من المؤمنين رجال

هارون الرشيد

« الخليفة المظلوم »

تأليف الشيخ
أحمد القطان
غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

تأليف الأستاذ
محمد طاهر الزين
غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين



﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ ﴾

هارون الرشيد

الخليفة المظلوم

تأليف

أحمد القطان

محمد طاهر الزين

دار الإيمان

للطبع والنشر والتوزيع

سكندرية ت: ٥٤٤٦٤٩٦ . ٥٤٥٧٧٦٩

رقم الإيداع ١١٦٤٥ / ٢٠٠١

الترقيم الدولى

977 - 331 - 105 - 8

دار الإيمان
للطبع والنشر والتوزيع
١٧ ش خليل الخياط - مصطفى كامل
إسكندرية ت: ٥٤٥٧٧٦٩ـ٥٤٤٦٤٩٦

بسم الله الرحمن الرحيم

المقـــدمـــة

إنَّ الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الذين كانوا قليلاً من الليل مايهجعون، وبالأسحار هم يستغفرون، وفي أموالهم حق للسائل والمحروم، نصروا الله فنصرهم، وأعزوا دينه فأعزهم، أولئك حزب الله، ألا إنَّ حزب الله هم المفلحون.

وبعـد: فقد يتساءل الأخوة عن سر اختيارنا لشخصية هارون الرشيد لتكون بين سلسلة كتبنا «من المؤمنين رجال»؟ وهل يستحق الرشيد أن يُصنَّف بين هؤلاء؟

وللجواب نقول:

إن الرشيد رجل مؤمن، يتجلى الإيمان في حاله ومقاله وأفعاله، فقد ينتحب الساعات الطوال إذا وعظه أحد، أو تجلت له حقيقة من حقائق الإيمان، حتى عُدَّ أحد البكائين، وكان يعظم الرسول ﷺ في قوله، فما يُذكر عنده حتى يقول: صلى الله على سيدي، وأما أفعاله فقد كانت منضبطة بموجب الشرع، لا يعمل بمسألة إلا وفتوى قاضي القضاة بين يديه حتى فيما يتعلق بحياته الزوجية، وأموره الخاصة، وقد وفقه الله بأبي يوسف صاحب أبي حنيفة الذي شهد أهل العلم والتاريخ له بالعدل والنزاهة، ومحمد بن الحسن الشيباني الذي يعدّ بشهادة الأحناف. ناشر المذهب الحنفي في الأصقاع، يضاف إلى هؤلاء القضاة: كوكبة مباركة من خيرة علماء الدنيا والدين.

وقد خلط كثير من المؤرخين وغيرهم بين أمرين، بين شخصية الرشيد وسيرته، وبين الزمن والفترة التي عاش فيها.

فالرشيد في سيرته الشخصية مثال العفة والطهر، ومثال الاستقامة والغيرة على الدين،

وعدم الانسياق وراء الهوى، والتقلل من الدنيا، والإقبال على العلماء، والاستفادة منهم، رغبة بالآخرة، وقربة إلى الله، وقد قضى حياته بين الغزو والحج، وقدّر الله له الموت غازياً في سبيل الله.

ومن كانت حياته بين سنابك الخيل، ورايات الجهاد وغبار المعامع، وشدة الوطيس فلا مجال عنده للهو والترف والسرف.

ومن كانت حياته بين العلماء والعُبَّاد والحجاج، يحج عاماً ويغزو عاماً، يحج ومعه العلماء، ويحج ما شياً على الأقدام، ويتحمل المشاق في سبيل الله، لا تحدثه نفسه بالفجور والخنا، فضلاً أن يأتيها، أو يرضى بها.

إننا نرى في عالم السياسة رجالاً لا يؤمنون بالله، ولايدينون بالإسلام، ولكن أعباء السياسة، وإدارة الدولة حالت بينهم وبين رغباتهم، فلا يجدون مجالاً للملذات، ولا مكانا للشهوات، وهم يحكمون دُوَلاً مهما اتسعت، ومهما كثر عدد سكانها، فهي ليست أكثر من نقطة في بحر الدولة الإسلامية التي كان يحكمها الرشيد.

نقول هذا عن قادةٍ كفرةٍ فجرةٍ امتنعوا عن المعصية لانشغال أوقاتهم بشئون دولتهم، فكيف إذا اجتمع الإيمان، والرهبة من الله، والخوف من العذاب، كيف إذا اجتمع كل ذلك إلى أعباء دولة مترامية الأطراف، واسعة الأرض، كثيرة السكان، عندها من الجنود فقط أكثر من مليون جندي، يقاتلون في جبهات متعددة، ولديها من الولاة والموظفين ما يعادل نصف ذلك العدد أو أقل قليلا، والإدارة يومها تتمركز في يد الخليفة وحده، فهو المسئول عن إقامة الصلاة في الناس، ومسئول عن إقامة الحق والعدل، ونصر الإسلام ونشره في الأصقاع، عدا الأمن والطرق والمصالح وغير ذلك، ! فمن أين يتسع الوقت لمثل هذا الحاكم أن يلهو أو يعبث، وكل ذلك منوط به، متعلق برقبته؟؟؟

هذا عن شخصية الرشيد، أما الفترة والزمن الذي عاش فيه، فإن رغد عيشه، ورفاهية أهله، وكثرة خيره وأرزاقه، جعل الناس يسرفون في المآكل والملبس، ويترددون على اللهو والغناء، فلم يميز الناس بين الرشيد كشخصية، وبين عصره الزاهي المتقدم.

لقد كانت بغداد عروس الدنيا، وحاضرة الخلافة، تفد إليها قوافل التجارة من أنحاء

العـالم، وفي خزائنهـا تنصب أمـوال الخـراج من بيزنطة ومن الصين، ومن خراسان ومن أفريقيا، وكانت الأسلاب والأنفال التي يفيئها الله على المجاهدين كثيرة وفيرة، حتى بيعت الأسلحة والرقيق بالدراهم القليلة.

وكان من البدهي أن ينعم الناس بالحياة الرخية الرافهة، وكان من البدهي كذلك أن يستغـل بعضهم هذا المال في اللهو والمتع الشهوانية، وقد انغمس بعض الأمراء في هذا الأتون، وظهر هذا على بعض الأشخاص. ولم يفرق كثير من الناس بين هذا المجتمع وفيه ما فيه من لهو وفساد، وفيه كذلك الصلاح والعلم والعلماء، وفيه الخليفة الورع، الذي يقرب العلماء، ويرسل السرايا، ويحج الى بيت الله الحرام .

لم يفرقوا بين هذا وذلك، فخلطوا بين الرشيد والزمن الذي عاش فيه، مع الفارق في التشابه، والتنافر في الطباع، والتغاير في الواقع والحال فكان لا بد من الكتابة لتمييز الحق من الباطل، وإنصاف هذا الرجل حقه.

وكـان العـزم منعقـداً منـذ مدة على الكتـابـة دفـاعاً عن الرشيد، ولكن أولويات الموضوعات تؤخر ذلك، إلى أن حضر أخ غيور على دينه، غيور على رجال أمته، فالقى في أذننا آهاته من جمهرة المثقفين الذين انساقوا وراء أكاذيب ألف ليلة وليلة، وانساقوا وراء روايات الهلال، وأكاذيب جورجي زيدان، وسموم أحمد أمين،. فأخذوا يتهمون الرشيد فيما لا يصح نقلا ولا عقلاً، وتمنى أن يحظى الموضوع باهتمام. فاجتمعت الرغبتان، وعُقد العزم على الموضوع، بدافع الذب عن عرض مسلم مظلوم، اجتمعَ على ظلمه الصديق والعدو على سواء، نسأل الله أن يكون في عوننا، وأن يستر عيوبنا، وأن يجعل بحثنا خالصاً لوجهه، دفاعاً عن رجال دينه، وأن يجعله في ميزان حسناتنا إنه سميع مجيب.

محمد الزين　　　　　　　　أحمد القطان

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

نحمد الله حمداً طيباً مباركاً فيه، ونصلي ونسلم على نبيه الصادق الأمين، وعلى آله وأصحابه الغر الميامين. وبعد:

فإن الحمد لله أن وفقنا لكشف زيف المبطلين، ودحض المفتريات الكاذبة عن هارون الرشيد رحمه الله، ونؤكد ما ذهبنا إليه من رضاعة أبناء يحيى البرمكي من الخيزران والدة الرشيد، وقد أكد ذلك الطبري وابن كثير وابن طباطبا وغيرهم منَ المؤرخين، وبهذا ندفع فرية اعتداء جعفر البرمكي على عرض العباسة أخت الرشيد، إذ لا يصح عقلاً ولا شرعاً اعتداء الأخ على أخته. فالعباسة أخت لجعفر من الرضاعة.

ولا ننكر أن الرشيد قد وقع منه بعض الأخطاء من أعظمها عدوانه على أبناء عمومته من آل علي بن أبي طالب رضي الله عنهم، وإن كنا نظن أن الرشيد لا يمكن أن يكون قد أقدم على عمل ما دون استشارة القضاة والعلماء وعنده من الشرع علم وبيان.

والله أسأل أن يوفقنا لما فيه الخير والحق، فإن أخطأنا فمن أنفسنا والشيطان، وإن أصبنا فمن الله وحده. هو مولانا. نعم المولى ونعم النصير.

الكويت: غرة رجب المبارك ١٤٠٩

محمد الزين

البـــاب الأول
الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية والاقتصادية

سنقف فيما يلي على جوانب من الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية والاقتصادية في العصر العباسي الأول، مقتصرين على الفترة التي تولى الرشيد فيها الخلافة

أولاً: الحياة السياسية:

نجح العباسيون في القضاء على الدولة الأموية، ومطاردة الأمويين والفتك بهم، وملاحقة كل من يلوذ بهم، مما كان له الأثر في قيام ثورات متعددة كلفت العباسيين جهوداً كبيرة للقضاء عليها.

يضاف إلى هذه الثورات خروج بعض الأمراء أو الوزراء على الخلافة، فكان يشغلها فترة للقضاء عليه، ولذلك لم تتوسع رقعة الدولة العباسية، بل كان همها المحافظة على الأرض الإسلامية التي ورثتها من الدولة الأموية، ولم يكن ذلك سهلاً نظراً لاتساع هذه الدولة واليك بياناً لأهم المناطق التي كانت تخضع لها:

أ - إقليم جزيرة العرب: ويشتمل على أربع كور جليلة وهي:

١ - **الحجاز:** وقصبته (مكة المكرمة) ومن مدنه (طيبة) و (ينبع) و (الجار) وهو ساحل المدينة و (جدة) وهي ساحل (مكة) و (الطائف) ويتبع الحجاز و(وادي القرى).

٢ - **اليمن:** وهو قسمان؛ فما كان نحو البحر فهو غور واسمه تهامة، وقصبته (زبيد) وما كان من ناحية الجبل فهو (نجد) وقصبته (صنعاء)؛ ومن مدنه (مخا) و (كمران) و (عدن)، وتتبعه بلاد الأحقاف، وبها من المدن (حضرموت).

٣ - **بلاد عُمان:** وقصبتها (صحار) على شاطىء بحر الهند ومن مدنها (نزوة السرّ) و (ضَنْك).

٤ - **بلاد هجر**: وقصبتها مدينة الأحساء (البحرين) ومن مدنها سابون (الزرقاء) ويتبع ديار هجر بلاد (اليمامة) وقصبتها (الحجر).

ب - **اقليم العراق: وهي ست كور وهي:**

١ - **الكوفة**: وقصبتها (الكوفة) وهي من أمهات المدن الإسلامية، ومن مدنها (القادسية) و (عين التمر) قرب كربلاء.

٢ - **البصرة**: وقصبتها (البصرة) وهي من كبريات المدن الإسلامية أيضاً، ومن مدنها (الأبلّة) ولعلها آتية من كلمة (Apolon) و (عبادان).

٣ - **واسط**: وقصبتها (واسط) وهي من كبريات المدن الإسلامية أيضاً، ومن مدنها (فم الصلح) قرب كوت الإمارة.

٤ - **المدائن**: وقصبتها (بغداد) وهي مدينة كسروية، ومن مدنها (النهروان) (ديالي) و(الدسكرة) و (جلولاء) و (جرجرايا).

٥ - **حلوان**: وقصبتها (حلوان) وبها من المدائن (خانقين) و(السيروان) و(بندنيجان).

٦ - **سامراء**: وقصبتها (سامراء) وبها من المدائن (الكرخ) و (عكبرا) و (الانبار، أبوفياض من قرب الفلوجه) و (هيت) و (تكريت). وهذا الاقليم كان يسمى في القديم، اقليم بابل.

ج - **اقليم آقور، ويسمى أقليم الجزيرة وآثورا، وآشور، وهو ما بين دجلة والفرات وبها ثلاث كور وهي:**

١ - **ديار ربيعة**: وقصبتها (الموصل) ومن مدنها (الحديثه) و (تل عفر) و (سنجار) و (نصيبين) و (دارا) و (رأس العين) و (ثمانين) وبها ناحية (جزيرة ابن عمر).

٢ - **ديار مضر**: وقصبتها (الرقة) وبها مدن (باجروان) و (الرافقة) و (سروج) و (حصن مسلمة) و (حران) و (الرُّها).

٣ - **ديار بكر**: وقصبتها (آمد) وبها مدن (ميافارقين) و (حصن كيفا).

وقد نزل العرب هذه الديار قبل الإسلام، وسكنتها قبائل من العدنانيين، سميت

بهم، ولـذلك نعدّ هذا الاقليم عربياً محضاً، لأن من كان به من الآشوريين وغيرهم قد درست آثـارهـم، وينتهي هذا الأقليم إلى حدود الـروم وأرمينية، ومناخه مقارب للشام، ومشـابـه للعـراق، وبـه مواضع حارة وباردة، وبه نخيل وزيتون، ومذاهب أهله سنة. و(عانة) وهي للمعتزلة.

د ـ اقليم الشام وبه ست كور وهي:

١ ـ قنسرين: وقصبتهـا (حلب) ومن مدنها (أنـطاكية) و(بـالس) و(سميسـاط) و(منبج) و(قنسرين) و(مرعش) و(أسكندرونة) و(معرة النعمان) و(حماة) و(شيزر).

٢ ـ حمص: وقصبتها (حمص) ومن مدنها (سلمية) و(تدمر) و(اللاذقية) و(انطرسوس).

٣ ـ دمشق: وقصبتها (دمشق) ومن مدنها (بانياس) و(صيدا) و(صور) و(بيروت) و(طرابلس) و(بعلبك).

٤ ـ الأردن: وقصبتها (طبرية) ومن مدنها (قدس) و(صور) و(عكا) و(بيسان) و(أذرعات).

٥ ـ فلسـطين: وقصبتها (الرملة) ومن مدنها (بيت المقدس) و(عسقلان) و(يافه) و(أرسوف) و(قيساريه) و(أريحا) و(عمان).

٦ ـ الشراة: وقصبتها (صُغَر) أو (زغر) ومن مدنها (مآب) و(معان) و(تبوك) و(أذرع) و(وايلة).

هـ ـ اقليم مصر وبه سبع كور وهي:

١ ـ الجفار: وقصبتها (الفَرَمة) ومن مدنها (البقّارة) و(الورادة) و(العريش).

٢ ـ الحوف: (الشرقية) وقصبتها (بلبيس) ومن مدنها (مشتول) و(قاقوس) و(القلزم).

٣ ـ الريف: وقصبتها العباسية (العباسة) ومن مدنها (منهور) و(سنهور) و(شهور) و(بنها العسل) و(شطنوف) و(مليج) و(المحلة الكبيرة) و(دقهلية) و(دميرة).

٤ ـ **أسكندرية**: وقصبتها (أسكندرية) ومن مدنها (الرشيد) و (مريوط) و (البرلس) و (ذات الحمام).

٥ ـ **مقدونية**: وقصبتها (الفسطاط) و (هوالمصر) ومن مدنها (العزيزية) و (الجيزة) و (عين شمس).

٦ ـ **الصعيد**: وقصبته (أسوان) ومن مدنها (حلوان) و (قوص) و (أخميم) و (البلينا) و (الفيوم) و (بوصيم).

٧ ـ **الواحات**: وهي عدة واحات في الصحراء المصريه

و ـ اقليم المغرب وهو ثماني كور وهي:

١ ـ **برقة**: وقصبتها (برقة) وبها من المدن (رمادة) و (طرابلس) و (أجدابية) و (غافق).

٢ ـ **أفريقية**: وقصبتها (القيروان) وبها من المدن (صفاقس) و (سوسة) و(تونس) و(بونية) و (بنزرد) و (جزيرة بني زغناية) و (منستير) و (طبرقة) و (قسنطينة).

٣ ـ **تاهرت**: وقصبتها (تاهرت) وبها من المدن (مطماطة) و (وهران) و (شلف).

٤ ـ **سجلماسة**: وقصبتها (سجلماسة) وبها من المدن (درعة) و (أمصلي) و (تازروت) و (دار الأمير).

٥ ـ **فاس السوس الأدنى**: وقصبتها (فاس) وبها من المدن (البصرة) و (طنجة) و (زغة) و (صنهاجة) و (هوّارة) و (سلا).

٦ ـ **السوس الأقصى**: وقصبتها (طرفانة) ومن مدنها (أغنات) و (ماسة) و (تندلي).

٧ ـ **الأندلس**: وقصبتها (قرطبة) وكان في العهد الاموي تابعاً لبني أمية، أما في العهد العباسي؛ فقد استقل كما هو معروف.

٨ ـ **جزيرة صقلية**: وقصبتها (بلرم) ومن مدنها (الخالصة) و (اطرابنش) و (ماوز) و (جرجنت) و (سرقوصة) و (القيروان).

ز ـ أقليم المشرق وهو قسمان وهما:

١ ـ ما وراء النهر، وهو شرقي نهر جيحون، ويسمى هيطل.

٢ ـ غربي نهر جيحون، ويسمى بلاد خراسان.

أما وراء النهر فهو ست كور وهي:

١ - **فرغانة**: وقصبتها (أخسيكث) ومن مدنها (نصر أباد) و(أوزكند) و (مرغينان).

٢ - **أسبيجاب**: وقصبتها (أسبيجاب) ومن مدنها: فاراب (باراب) و (ترار) و (طراز) و (بلاسكون).

٣ - **الشاش**: وقصبتها (بكث) ومن مدنها (نكث) و (بناكث) و (غناج) و (إيلاق).

٤ - **اشروسنة**: وقصبتها (بنجكث) ومن مدنها (كردكست) و (ساباط زمين).

٥ - **الصغد**: وقصبتها (سمرقند). ومن مدنها (ورغسر) و (مايمرغ) و (درغم) و (مرزبان) و (قطوانة).

٦ - **بخاري**: وقصبتها (بخارى) ومن مدنها (بيكند) و (الطواويس) و (يخسون) و (كش) و (نسف).

وأما بلاد خراسان: فهي تسع كور وهي:

١ - **بلخ**: وقصبتها (بلخ) وبها ناحية (طوخارستان) ومن مدنها (ولوالج) و (الطالقان).

٢ - **غزنين**: قصبتها (غزنين) وبها مدينة (كابل) و (كرديس) و (كاولي).

٣ - **بست**: وقصبتها (بست) ومن مدنها (جهالكان) و (كش روذان).

٤ - **سجستان**: وقصبتها (زرنج) ومن مدنها (أكوين) و (الطاق).

٥ - **هراة**: وقصبتها (هراة) ومن مدنها (باذغيس) و (كروخ) و (بوشنج).

٦ - **جوزجان**: وقصبتها (اليهودية) ومن مدنها (أبناربروز) و (فارياب).

٧ - **مرو شاهجان**: وقصبتها (مرو الشاهجان) وبها ناحية (مروروز) و (الطالقان).

٨ - **نيسابور**: وقصبتها (ايرانشهر) ومن مدنها (بيهق) و (طوس) و (نسا) و (أبيوزد) و (أسفراين).

٩ - **قهستان، قوهستان**: وقصبتها (فاين) ومن مدنها (تون) و (طبس العناب) و

(طبس التمر).

وهـذا الاقليم من أعمر الأقاليم الإسلامية، وأكثرها خيرات، وأهل خراسان هم الذين قاموا بالدولة العباسية، ومعظمهم من الشيعة.

ج - اقليم الديلم: وبه خمس كور وهي:

١ - **قومس**: وقصبتها (الدامغان) ومن مدنها (سمنان) و (بسطام).
٢ - **جرجان**: وقصبتها (شهرستان) ومن مدنها (استراباد) و (آبسكون).
٣ - **طبرستان**: وقصبتها (آمل) ومن مدنها (سالوس) و (سارية).
٤ - **الديلمان**: وقصبتها (بروان).
٥ - **الخزر**: وقصبتها (أتل) ومن مدنها (بلغار) و (سمندر).

ط - اقليم الرحاب: وهو ثلاث كور وهي:

١ - **الـران (أران)**: وقصبتهـا (بـرذعـة) ومن مدنها (تفليس) و (شروان) و (بـاب الأبواب) و(ملاذكرد).
٢ - **أرمينيـة**: وقصبتهـا (أردبيل) ومن مدنها (بـدليس) و (خـلاط) و (خـوي) و (سلماس)، و (أرميه)، و (مراغة) و (مرند) و (قاليقلا).
٣ - **أذربيجان**: وقصبتها (تبريز) ومن مدنه (موقان).

وفي هذا الأقليم كثير من الكرد والأرمن الفرس ولم يفش الإسلام فيه إلّا في العهد العباسي، واللغة العربية قليلة، وهذا الاقليم كثير الثمار، فيه مدن من أنزه البلاد، كموقان وخـلاط وتـبريز التي شاكلت العـراق، وهو للإسلام فخر وللغازين دار وأهله أهل سنة وجماعة، وفصاحة وهيبة، ومذاهب أهله مستقيمة إلا أن أهل الحديث حنابلة، والغالب بدبيل مذهب أبي حنيفة.

ي - اقليم الجبال: وبه ثلاث كور وهي:

١ - **الري**: وقصبتها (الريّ) وبها مدن (آوه) و (ساوه) و (قزوين) و (أبهر).
٢ - **همذان**: وقصبتها (همذان) ومن مدنها (قرماسين) و (نهاوند) و (الدينور).
٣ - **أصفهان**: وقصبتها (اليهودية).

وهذا الأقليم غني التربة، وأهله إما غوال حنابلة يفرطون في حب معاوية، أو نجارية غالية، وفي الري الغلبة أحناف، وأهل همذان أصحاب حديث، وفي الدينور بعض أصحاب سفيان الثوري، والري عصبيات في خلق القرآن، وأهل قم شيعة غالية.

ك - اقليم خوزستان: ويعرف قديما بالأهواز وفيه سبع كور وهي:

١ - السوس: وهي تتاخم العراق والجبال.
٢ - تستر: وقصبتها (جنديسابور).
٣ - تستر: وقصبتها (تستر).
٤ - عسكر مكرم: وقصبتها (عسكر مكرم) ومن مدنها (جوبك) و (زيدان) و (سوق الثلاثاء).
٥ - الأهواز: وقصبتها (الأهواز) ومن مدنها (تيري) و (مناذر) [illegible]ى والصغرى.
٦ - الدورق: وقصبتها (الدورق) وهي تتاخم العراق ومن مد[illegible]آرزن) و (أجم).
٧ - رامهرمز: وقصبتها (رامهرمز) وهي تتاخم فارس.

ل - اقليم فارس: وبه ست كور وهي:

١ - أرجان: وقصبتها (أرجان).
٢ - أردشير خرة: وقصبتها (سيراف) وهي ممتدة على البحر.
٣ - دار ابجرد: وقصبتها (دارابجرد).
٤ - شيراز: وقصبتها (شيراز) ومن مدنها (البيضاء) و (فسا).
٥ - سابور: وقصبتها (شهرستان) ومن مدنها (كازرون)، و (النوبندجان)، و (توّز).
٦ - اصطخر: وقصبتها (اصطخر) وهي أوسع الكور.

م - اقليم كرمان: وفيه خمس كور وهي:

١ - بردسير: وقصبتها (بردسير) ومن مدنها (ماهانا) و (كوغون) و (زرند).
٢ - نرماسير: وقصبتها (نرماسير).
٣ - سيرجان: وقصبتها (سيرجان).

٤ ـ بم: وقصبتها (بم) وهي تتاخم فارس.

٥ ـ جيرفت: وقصبتها (جيرفت) وهي على البحر.

س ـ أقليم السند: وفيه خمس كور وهي:

١ ـ مكران: وقصبتها (بنجبور) ومدنها (مشكة) و (خواش).

٢ ـ طوران: وقصبتها (قزدار) ومن مدنه (قندبيل).

٣ ـ السند: وقصبتها (المنصورة) ومن مدنها (ديبل).

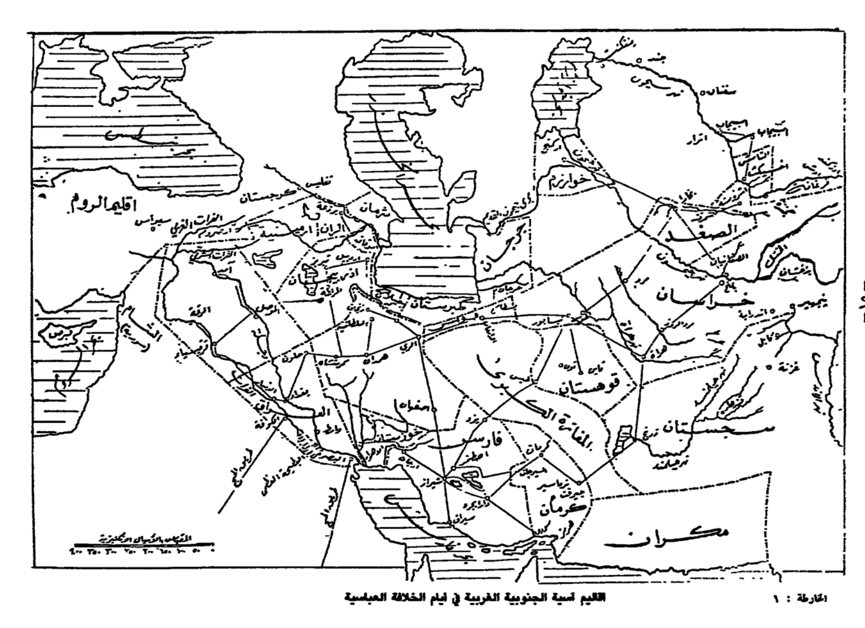
٤ ـ ويهند: وقصبتها (ويهند).

٥ ـ قنوج: وقصبتها (قنوج) ويتبعه بلاد (الملتان).

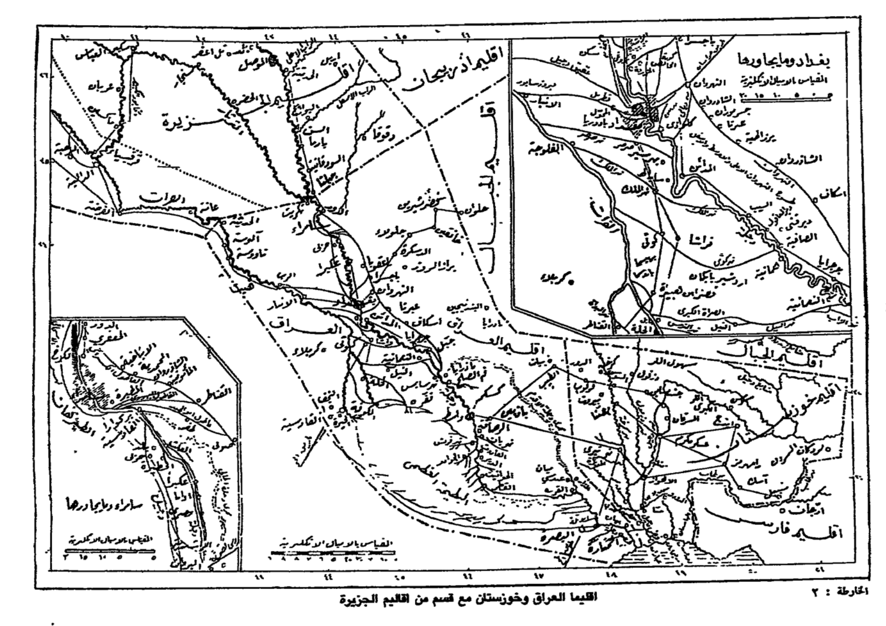
هذه هي أقاليم الدولة العباسية، وهي كما ترى مترامية الأطراف، كثيرة الخيرات، متعددة اللغات، متنوعة الشعوب، تكثر فيها المبادىء، ويصعب إدارتها والإشراف عليها. وقد كلفت الدولة العباسية جهداً بالغاً للمحافظة على وحدتها في العصر العباسي الأول، حتى إذا دب الضعف إلى الخليفة بدأت هذه الأقاليم تنفصل عن جسم الدولة، وتكوّن دُولاً مستقلة.

ولم يكن من تغيير في نظام الحكم العباسي، بل ساد ما كان في العهد الأموي، مع تغيير بسيط في بعض المظاهر السياسية، إذ دخلت العناصر الفارسية وغيرها إلى جسم الخلافة، وصاروا يحكمون من داخلها، وهذا ما لم يكن في العهد الأموي.

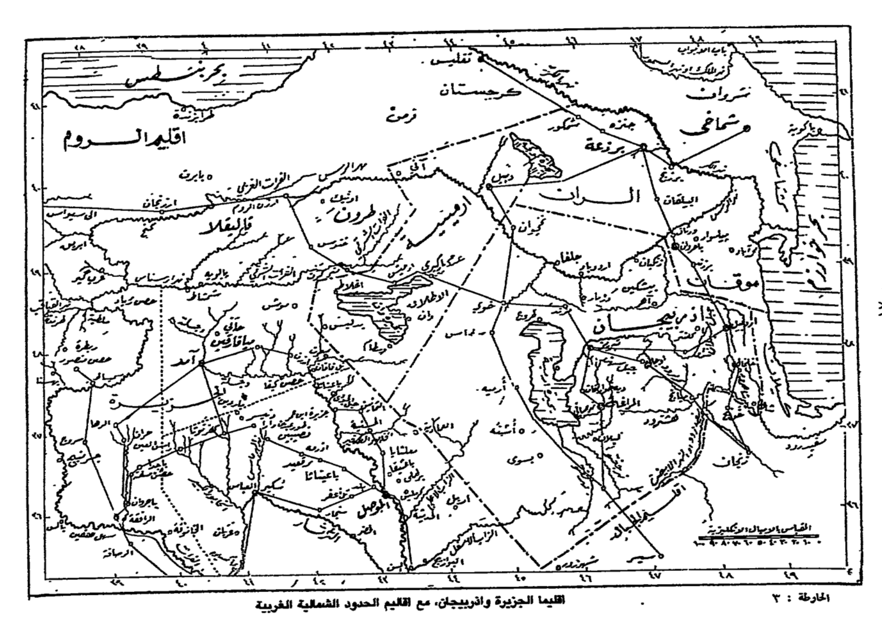
كما حاول العباسيون صبغ حكمهم بالصبغة الدينية، فلبسوا بردة النبي ﷺ أيام الجمع والأعياد، وقد قربوا إليهم العلماء، وحافظوا على إقامة الصلاة، وحاربوا بعنف الزندقة أو الخروج عن الدين.



الخارطة : ١ اقاليم آسية الجنوبية الغربية في ايام الخلافة العباسية



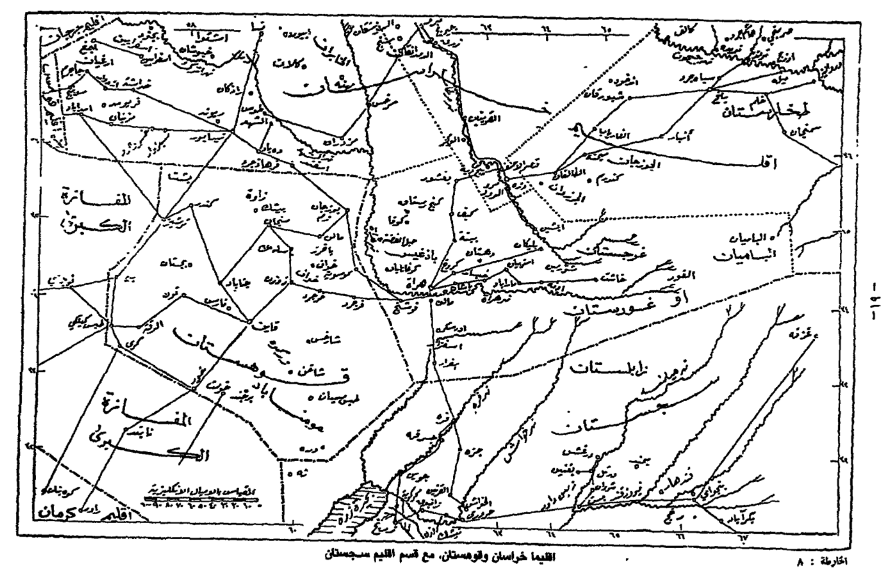
الخارطة : ٢
اقليما العراق وخوزستان مع قسم من اقاليم الجزيرة



الخارطة : ٣
اقليما الجزيرة واذربيجان، مع اقاليم الحدود الشمالية الغربية

الخارطة : ٤

بلاد الروم



اقليما خراسان وقوهستان، مع قسم اقليم سجستان

الخارطة : ٨

ثانيا: الحياة الاجتماعية:

خلال الحديث عن الحياة السياسية تبين لنا مدى اتساع رقعة الدولة العباسية، هذا الاتساع الذي جعل شعوب الدولة متباينة في عاداتها وأفكارها واتجاهاتها.

فالتباين بين شعوب هذه الدولة سمة واضحة بارزة، وهذا التباين في الأجناس والعقائد، وإن كان الظاهر انضواء جميع هذه الأجناس تحت مظلة الإسلام، وقد زاد من تعدد هذه الأجناس كثرة الحروب وازدياد الأسرى في أيدي المسلمين، وقد أطلق على غير العرب في هذا المجتمع اسم الموالي، تمييزاً لهم عن العرب الفاتحين، وكان الموالي عبارة عن مجموعة من الأجناس المختلفة، يغلب عليها الفرس، ويكثر فيها الترك، والرومان وغيرهم.

وقد استطاع الفرس أن ينالوا مركزاً مرموقاً في الدولة، وصلت هذه المرتبة في كثير من الأحيان إلى مركز الوزارة كالبرامكة، وأبناء سهل وغيرهم.

وقد حاول الموالي من غير العرب تحصيل العلوم، والانخراط في الخدمة العسكرية، حتى يأخذوا مكانهم في الدولة، ولذلك فان تاريخ المعارك الحربية، والعلوم المختلفة، يطالعنا بأسماء من الموالي لمعت في هذه الميادين. ولا نكون مغالين إذا جزمنا بأن الموالي لم يتركوا ميداناً فيه الشرف والسؤدد إلا ولجوه، وليس هذا بمستغرب، فإن الشعوب المغلوبة تحاول محاكاة الشعوب الغالبة لتنال الحياة الكريمة تحت سلطانها، وبدافع هذا الشعور ولوصول بعض هؤلاء إلى المعالي ظهرت فكرة الشعوبية التي تنال من العرب، وتحط من أقدارهم، وترفع من شأن الفرس ومن شاكلهم، مما دفع بعض المفكرين العرب إلى خوض المعركة ضدهم بكل قوة، وعلى رأس هؤلاء الأديب الجاحظ رحمه الله.

وبالمقابل فقد نزع فريق من العرب إلى محاكاة الفرس في عاداتهم، وفي لباسهم، بل وفي الاحتفال بأعيادهم، والاهتمام بكل ما يمت اليهم.

ومع ذلك فلم تزح الفوارق بين الشعوب، رغم محاربة الإسلام للعنصرية، والتعصب للجنس، فدأب كل فريق على تفضيل جنسه على الأجناس الأخرى، وبذلك اشتد الصراع بين الفرقاء، وقويت شوكة الخلاف بين الأقطار الإسلامية على امتدادها.

ولكن الملفت للنظر هو سيطرة اللغة العربية، وأخذها لباب الموالي وانشغالهم بها،

حتى نبغ فيها منهم كثيرون، كان لهم الصدارة في الأدب والشعر والتاريخ.

وقد كان للفتوحات، وكثرة الحروب أثر في إثراء مجموعة من الناس، وزيادة عدد الإماء والعبيد، ولذلك فإن الثراء صار سمة واضحة في هذا العصر، ولم يقتصر الترف والثراء على طبقة دون أخرى، بل شمل المجتمع بأكمله، وأخذ الناس يتسابقون إلى حيازة العبيد، وشراء الإماء، والإقبال على متع الحياة الفانية، وانغماس بعضهم في أتون الرذيلة والفاحشة.

وظل بعض ممن رفض هذا الاتجاه محافظاً على أصالته، وتمسك بعروبته، وتمسك بأهداب دينه، وكان هذا التيار يشمل بعض الأسر العريقة، ويضم بعض الأمراء، وربما تعدى الأمر إلى الخليفة، فكان هارون الرشيد ممن ينطبق عليهم ذلك، فإن الدنيا قد اجتمعت بين يديه، وقد أخذ منها بحظ وافر، ولكنه ظل مستقيماً، قائماً بأمر الدين، متشدداً في كل ما يخرج عن الفضيلة، نزاعاً إلى التقوى ومخافة الله، فكان أن قرّب العلماء والفقهاء والوعاظ إلى بلاطه.

لقد عرف هذا العصر ضروباً من الفساد والضلالة والزندقة، كما عرف نماذج من الورع والتقوى ضنت الأيام أن تأتي بمثلها.

ومن مظاهر الحياة الاجتماعية في هذا العصر محافظة المرأة الحرة على حجابها، وانشغالها بتربية أولادها، ورعاية منزلها، إضافة إلى القيام ببعض الأعمال الصناعية الخفيفة في بيتها كالغزل أو النسيج، وصنع الآلات المذهبة، والثياب الموشية، وبسط الديباج.

ونفق في هذا العصر سوق الإماء، فكانت الأمة حاصلة على كامل حقوقها، وتتمتع بالمظاهر الخلابة، والتدليل الزائد، والحرية التامة، وقد بلغ بعضهن مكاناً مرموقاً في الأدب والعلم، بدافع الحصول على أمير أو بيت شريف، فكان تجار الرقيق يقومون بتثقيف الإماء وتعليمهن، حتى يتناسبن مع الجو العام للأمراء، وأصحاب الفن والشعراء، ولذلك كثر الزواج بالإماء في هذا العصر، فكان أن كثر الخلفاء من أمهات الأولاد من الإماء.

وظل لباس المرأة والرجل سواء يتسم بالتمسك بالقديم، إلا أن بعض الأزياء الفارسية قد ظهرت في بعض الأحيان، نظراً لقوة تأثير الفرس في الحياة العامة.

وبهذا نكون قد وقفنا باختصار على أهم مظاهر الحياة الاجتماعية في العصر العباسي.

ثالثاً: الحياة الفكرية:

الإسلام دين العلم والمعرفة، ولا يرضى من المسلمين الخنوع لسلطان الجهل والتأخر، بل ندبهم إلى العلم والتعلم، ووجههم إلى إعمال الفكر في الكون من حولهم، وكره اليهم التقليد، وحبب اليهم الإبداع والتجديد، ولذلك فإن مسيرة الحياة الفكرية بدأت حية قوية منذ بزغ فجر الإسلام في غار حراء، واكتملت هذه الحياة، يوم أن أتم الله نعمته على المسلمين، وبشر برضاه للإسلام لهم دينا، وما الأطوار التي تلت هذه المرحلة غير طور التدوين والكتابة، مع شيء من التنظيم والتبويب والتخصيص، لذلك فقد وصلت العلوم إلى العصر العباسي ناضجة مكتملة، فوجدت المناخ المناسب في هذا العصر لتبويبها وتهذيبها وتدوينها، ولذلك فانِ العصر العباسي يعدّ من أزهى العصور الإسلامية من الناحية الفكرية.

ولا ننسى أن المذاهب الفقهية الأربعة قد توطدت دعائمها، ووضحت معالمها، واشتهر أمرها في هذا العصر.

كما نشطت حركة الترجمة نشاطاً لا نظير له، وإن كان قد سبق ذلك محاولات في العصر الأموى من قبل خالد بن يزيد بن معاوية، لكنها لم تصل إلى ما وصلت إليه في هذا العصر.

وقد ساهم الخلفاء في دفع الحياة الفكرية دفعاً قوياً، فالرشيد مثلاً قد أسس مكتبة دار الحكمة، وأمر القاضي أبا يوسف بتأليف كتاب الخراج، والذي يعدّ مفخرة العصر، كما قرأ بنفسه وبولديه كتاب الموطأ للإمام مالك، كما سبقه إلى ذلك والده المهدي، وكان قد ألح على الإمام مالك بتعميمه فامتنع الامام عن ذلك، وقد لقي العلماء على اختلاف علومهم ومذاهبهم كل الحب والتقدير من الخلفاء، بل أكد الجاحظ في كتابه التاج: أنه قد اجتمع للرشيد من العلماء ما لم يجتمع لغيره، ولم يكن الرشيد وحده الحريص على دفع الحركة العلمية قدماً إلى الأمام فقد سبقه والده والمنصور، وتابعه على النهج نفسه ولده المأمون، الذي يعدّ عصره العصر الذهبي في التأليف والترجمة، وإن كانت الترجمة قد أدخلت إلى الفكر بعض الآراء الفلسفية الخاطئة، غير أنها قد بعثت في الأمة الحركة والنشاط للتمييز

بينها والموازنة واختيار الصواب منها، وهذا كله في صالح الحركة العلمية والتقدم الفكري، وكان للانفتاح على ثقافات البلاد المفتوحة أثره الواضح في نهضة الحياة الفكرية وازدهارها، فقويت ملكة النقد، وصار للعلوم العقلية النصيب الأوفر، حتى اشتهر العراق باحتضانه لهذه المدرسة وعلى رأسها الإمام أبي حنيفة النعمان رحمه الله.

وقد أدت الفتوحات في هذا العصر إلى أسر بعض الصينيين، الذين حملوا معهم سر صناعة الورق، فوجدت هذه الصناعة رواجاً في الدولة، وبالتالي فقد ساعدت صناعة الورق على ازدهار الحياة الفكرية والحياة العلمية.

وقد ساهم كذلك وبدور كبير الصراع الفكري بين الفرق المختلفة، فأدى هذا التباين في الأفكار إلى اجتهاد كل فريق باقتناص الأدلة على صحة مذهبه، فنشطت الحياة العلمية بذلك نشاطاً هائلاً.

وكان للأمن الذي عم البلاد، ووضوح الطرق ومحاولة تسهيلها دور في انتقال العلماء من بلد الى آخر، يضاف إلى ذلك اجتماع الفقهاء في مواسم الحج، وتبادلهم الآراء والمعارف، وتشجيع الخلفاء لمثل هذه اللقاءات، واصطحابهم الفقهاء معهم إلى الحج كما يفعل الرشيد، كل ذلك أثرٌ في الحياة الفكرية، وعمل على توطيد المذاهب الإسلامية وانتشارها في البلاد.

ولسنا نجانب الصواب إذا قلنا: إن العلوم التي جاءت بعد هذا العصر كانت عالة على علومه، تستقي منها، وتستفيد من تراثها.

رابعاً: الحياة الاقتصادية:

من أبرز مظاهر الحضارة والتقدم في الدولة العباسية: الحياة الاقتصادية، وقد انعكس ذلك على الحياة الرافهة التي عاشتها الأمة في هذه الفترة، وسبب ذلك وفرة المحاصيل، وتنوع المزروعات، وازدهار التجارة، وتقدم الصناعة.

فقد كانت أرض العراق من أخصب الأراضي الزراعية، وكانت تمد الدولة بكل ما تحتاج إليه من حبوب وتمور وأقطان، إضافة إلى الفواكه والخضراوات.

كما تعدّ أرض بخارى من أخصب بلاد المشرق، حتى سماها اليعقوبي: «جنة الاقليم» ولا تقل بلاد الشام أهمية عن بلاد العراق.

وكانت سعة الأرض في الدولة واهتمام الأمراء بشق الأنهار والاعتناء بنظام الري، واهتمام الخليفة بذلك، حتى ذكر المسعودي في مروج الذهب: أن الرشيد رام أن يصل بين بحر القلزم «الأحمر» وبحر الروم «المتوسط» بقناة كما هي عليه اليوم، ولكنهم أشاروا عليه ألا يفعل ذلك خشية أن يصل الروم إلى شواطىء الجزيرة العربية فيختطفون الحجاج من مكة.

فهـذا كله كان من أهم الأسباب وراء التطور الهائل في الموارد الزراعية، والتقدم الكبير في الحياة الاقتصادية.

يضـاف إلى ذلـك أن بغداد صارت وجهة التجار من أنحاء الدنيا، وأخذ العرب يشتغلون بالتجارة، بعد أن كانوا يأنفون منها في العصور السابقة، وصارت التجارة مورداً مهماً في الحياة الاقتصادية للفرد والدولة على حد سواء.

كما ساهم كل اقليم بنوع من الصناعة التي يتقنها، ولأول مرة تدخل صناعة الورق إلى البلاد الإسلامية، عن طريق بعض الصينيين الذين جلبوها معهم من هناك، عدا عن صناعات الأقشمة بأنواعها المختلفة، وصناعة الزخارف بأنواعها المتعددة، ودخلت صناعة المصـوغـات الـذهبية والفضية عالم الاقتصـاد، فكـانت جميع هذه الينـابيع روافد الحياة الاقتصـادية الوفيرة، ولهذا طلب الرشيد من القاضي أبي يوسف أن يكتب له عن وظيفة الأرض، وتنظيم الخراج، وذلك دفعاً للظلم، وتحقيقاً للعدل، وبما يتوافق مع هدي القرآن الكريم والسنة المطهرة، وعلى النمط المشروع الذي سار عليه الخلفاء الراشدون، فوضع القاضي كتابه، وقد ضمنه: ما يلي:

أولاً: بيان موارد الدولة على اختلافها، وذلك حسبما جاءت به الشريعة الإسلامية، وكيف تتم مصاريف تلك الأموال.

ثانياً: بيان الطريقة التي تجبى بها الأموال مع التحقق بالعدل والإنصاف.

ثالثاً: بيان بعض الواجبات التي يلزم بيت المال القيام بها مما أغفله بعض الولاة، وتقاعس عن القيام به.

وقد انصب جل اهتمام القاضي أبي يوسف على الخراج، ووظيفة الأرض الخراجية،

وموقف عمر من أرض الخراج، وإقطاع الأرض وإحيائها، ولم ينسّ القاضي الحديث عن مصارف الزكاة وسبلها الشرعية، ويعدّ الكتاب سفراً مميزاً، وأثراً جليلاً من آثار دولة الرشيد رحمهما الله.

ولعل هذه المقـدمة المقتضبة قد ساهمت إلى حد ما بالتعرف على نواحي الحياة المختلفة في العصر العباسي، ونخص منه العصر العباسي الاول.

الباب الثاني
الفصل الأول

نسب الرشيد وأسرته

نسبه :

هو هارون «الرشيد» بن محمد «المهدي» بن عبدالله «المنصور» بن محمد «السفاح» بن علي «السجاد» بن عبدالله «حبر الأمة» بن العباس بن عبدالمطلب.

فهارون الرشيد ينحدر من سلالة العباس رضي الله عنه، عم النبي ﷺ، وقد أخرج الترمذي قول النبي ﷺ فيه : «من آذي العباس فقد آذاني»، فإنما عم الرجل صنو أبيه» وهو من ولـد أولاد عبدالله بن عباس رضي الله عنهما، الملقب بجبر الأمة، وهو الذي دعا له النبي ﷺ بقوله : «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل».

والده :

هو محمـد الملقب : «المهـدي» ابن عبدالله المنصور بُويع له بالخلافة بعد وفاة أبيه. المنصور، وذلك في أول عشر ذي الحجة من عام ١٥٨هـ، فجلس بعد مدة يرد الأموال التي تركها المنصور وكتبها لأصحابها في دفاتر خاصة، فجمع المهدي هذه الأموال وأرجعها إلى أهلها قائلاً لهم : «إن أمير المؤمنين المنصور كان بما حمّله الله من أموركم، وقلّده من رعايتكم يدبر عليكم كما يدبر الوالد البرّ على ولده، وكان أنظر لكم لأنفسكم، وكان يحفظ عليكم ما لا تحفظون على أنفسكم، فحرس لكم من أموالكم ما لم يأمن ذهابه، وهذه أموالكم

مبارك لكم فيها، فحللوا أمير المؤمنين من إبطائها عنكم»[1] ولم يعط أهله ومواليه من الأموال شيئاً، بل أجرى لهم من الأرزاق ما يكفيهم فقط»[2].

ثم أمر بإخراج من في السجن من الطالبيين[3] وغيرهم، وأمر بكسوة الخارجين من السجن وصلتهم ببعض المال، ولم يستثنِ من العفو إلا من كان في رقبته دم أو تباعة لأحد أو مظلمة لمخلوق.

وقد اشتهر بالكرم والجود، وعُرف بسماحة الأخلاق والرحمة بالرعية، وحسن الأناة، والتزام الشدة في الحق، والتتبع للزنادقة والنكال بهم.

بنى المهدي مسجد الرصافة، ووسع المسجد الحرام، وأمر بحفر الآبار وإقامة المصانع[4] وبناء القصور في طريق مكة، حتى صارت من أرفقِ الطرقِ وآمنها وأطيبها، وكان خليفة عادلاً يجلس للمظالم بنفسهِ، ويدخل معه القضاة حتى لا يُظلم عنده أحد، وكان حريصاً على التزام الهدي النَّبوي في أعماله، «فمن ذلك أنه أمر بنزع المقاصير من مساجد الجماعات، وتصيير منابرها الى المقدار الذي عليه منبر رسول الله ﷺ»[5].

باشر أعمال الفتوح والجهاد صغيراً، واستمر على ذلك أثناء ولايته للعهد، وبعد تسلمه زمام الخلافة، وقد «وجه رسلاً إلى الملوك يدعوهم إلى الطاعة، فدخل أكثرهم، فكان منهم ملك كابل شاه، ويقال له حنحل، وملك طبرستان الأصبهبذ، وملك السغد الأخشيد، وملك طخارستان شروين، وملك باميان الشير، وملك فرغانة، وملك أسروشَنة أفشين، وملك الخزلُخية جيفويه، وملك سجستان رتبيل، وملك الترك طرخان، وملك التبت جهورن، وملك السند، وملك الصين بغبور، وملك الهند، وملك التغر غزخاقان»[6].

---

(١) تاريخ اليعقوبي ـ المجلد الثاني ص ٣٩٤ طبع دار صادر.

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ج ١٠ ص ١٥٦

(٣) الطالبيون: هم المنتسبون إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٤) المقصود بالمصانع: أماكن تجمع الماء «صهاريج».

(٥) تاريخ الطبري ج ٣ ص ١٣٦.

(٦) تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ٣٩٧.

توفي رحمه الله سنة ١٦٩هـ عن عمر يقارب الثامنة والأربعين، دخلت به فرسه الى خربة يتعقب ظبياً، فصدمه باب الخربة، فحمل إلى مضاربه، فكان آخر العهد به.

والدته:

هي «الخيزران بنت عطاء الجرشية» نسبة إلى جرش باليمن، اشتراها المهدي من نخاس «بائع الجواري والعبيد» فأعجب بها، ويُذكر: أنه لما عرضت الخيزران على المهدي ليشتريها أعجبته، إلادقة في ساقيها، فقال لها: يا جارية إنك لعلى غاية المنى والجمال لولا دقة ساقيك وخموشهما «خدوش وآثار جروح»، فقالت: «يا أمير المؤمنين: إنك أحوج ما تكون اليهما، لا تراهما» فاستحسن جوابها فاشتراها.[1]

وقد حظيت عند المهدي بكل الإعجاب، ونالت منه كل الحب والتقدير، ولذلك أعتقها وتزوجها، فولدت له خليفتين: موسى الهادي، وهارون الرشيد، ولم يتفق هذا لغيرها من النساء إلا الولادة بنت العباس العبسية، زوجة عبدالملك بن مروان، وأم الوليد وسليمان، وكذلك لشاه فرند بنت فيروز يزدجرد.

وكان من عظم حظية الخيزران عند المهدي أنها كانت تسيطر على الشئون الداخلية في قصر الخلافة، وقد أكثرت من التدخل في أمور الدولة، وقد كان بابها محط رحال أصحاب الحاجات، تتدخل لدى المهدي أو سواه لقضاء هذه الحاجات، وقد نفر منها ابنها موسى الهادي لكثرة تدخلها في أمور خلافته، فوصل به الحال إلى قطيعتها وهجرها حتى لا تدس أنفها في أموره، رغم كثرة طاعته لها، وإجابته لها فيما تسأله من الحوائج. فكانت المواكب لا تخلو من بابها، وفي ذلك يقول أبو المعافي:

يا خيزران هنّاك ثم هنّاك   إن العباد يسوسهم ابناك

حتى مضى لذلك أربعة أشهر من خلافته. وانثال الناس عليها وطمعوا فيها. فسألت الخيزران ابنها الهادي أن يولي خاله الغطريف اليمن. فوعدها بذلك. ثم كتبت إليه يوماً رقعة تتنجز فيها أمره. فوجه اليها برسولها يقول لها خيّريه بين اليمن وطلاق ابنته، أو مقامي عليها، ولا أوليه اليمن فأيهما اختار فعلته.

---

(١) البداية والنهاية ج ١٠ ص ١٥٨ وقد نقل ابن كثير ذلك عن الواقدي.

فدخل الرسول عليها ولم يكن فهم عنه ما قال، فأخبرها بغيره، ثم خرج إليه فقال: تقول لك: ولاية اليمن. فغضب وطلق ابنته وولاه اليمن، ودخل الرسول فأعلمه بذلك فارتفع الصياح من داره فقال: ما هذا؟ فقالوا: من دار بنت خالك قال: أو لم تختر ذلك؟ قال: لا. لكن الرسول لم يفهم ما قلت فأدى غيره وعجلت بطلاقها. ثم ندم ودعا صالحاً صاحب الموصل وقال له: أقم على رأس كل رجل بحضرتي من الندماء رجلاً بسيف فمن لم يطلق امرأته فلتضرب عنقه ففعل ذلك ولم يبق في حضرته أحد إلا قد طلق امرأته.

ثم كلمت الخيزران الهادي ذات يوم في أمر، فلم يجد إلى إجابتها فيه سبيلا، فاعتل عليها بعلة، فقالت: لا بد من إجابتي. قال: لا أفعل. قالت: فإني قد ضمنت هذه الحاجة لعبدالله بن مالك. فغضب الهادي وقال: ويل لابن الفاعلة قد علمت أنه صاحبها لأقضيتها لك. قالت: إذاً والله لا أسأل حاجة أبداً. قال: إذاً والله لا أبالي، وقامت مغضبة. فقال: مكانكِ فاستوعبي كلامي، والله وإلا نفيت من قرابتي من رسول الله ﷺ لئن بلغني أنه وقف ببابك أحد من قوادي، أو أحد من خاصتي أو خدمي لأضربنّ عنقه ولأقبضن ماله، فمن شاء فليلزم ذلك، ما هذه المواكب التي تغدو وتروح الى بابكِ في كل يوم؟ أما لك مغزل يشغلكِ أو مصحف يذكركِ أو بيت يصونكِ؟ إياك ثم إياكِ ما فتحتِ بابكِ لِمِلّي أو لذمي. فانصرفت ولم تنطق عنده بحلوة ولا مرة بعدها.

ثم جمع الهادي قواده وقال فيهم: أيُّنا خيرٌ أنا أو أنتم؟ قالوا: بل أنت يا أمير المؤمنين. قال: فأينا خير أمي أو أمهاتكم؟ قالوا: بل أمك يا أمير المؤمنين. قال: فأيكم يحب أن يتحدث الرجال بأمه فيقولون: فعلت أم فلان وصنعت أم فلان وقالت أم فلان؟ قالوا: ما أحد منا يحب ذلك. قال: فما بال الرجال يأتون أمي فيتحدثون بحديثها؟ فلما سمعوا ذلك انقطعوا عن الخيزران البتة. فشق ذلك عليها فاعتزلته وحلفت ألا تكلمه. فما دخلت عليه حتى حضرته الوفاة!!

وبفقدها لطاعة ولدها الهادي وجدت مبتغاها عند أخيه الرشيد فقد كان محباً لها، طائعاً لأوامرها، منفذاً لمطالبها، ولم يستطع ردها عن التدخل في شئون خلافته مدة حياتها، لدالتها عليه، ولوقوفها بجانبه حين أراد موسى الهادي خلعه من ولاية عهده.

كانت الخيزران تحب السيطرة على من حولها، وكانت تحب جمع المال، فملكت من

الضياع عدداً كبيراً يغل لها ملايين الدنانير كل عام، ومع حبها للمال كانت سخية اليد، كثيرة البذل والعطاء.

وكان المهدي مولعاً بحبها، شغوفاً بها، لا يصبر على فراقها، وكانت تبادله ذلك، وقد كتب اليها المهدي وهي بمكة تريد الحج يبثها شوقه لها:

نحن في غاية السرور ولكنْ ليس إلا بكم يتمُ السرورُ
عيبُ ما نحن فيه يا أهل ودّي أنكم غُيّب ونحن حضورُ
فأجدّوا في السير بل إن قدرتم أن تطيروا مع الرياح فطيروا

فأجابته بقولها:

قد أتانا الذي وصفت من الشو ق فكدنا وما قدرنا نطيرُ
ليتَ أنّ الرياحَ كنَّ يؤدين اليكم ما قد يكنُّ الضميرُ
لم أزل صبّة فإن كنت بعدي في سرور فدام ذاك السرورُ

كما كانت الخيزران فقيهة حازمة، «أخذت الفقه عن الإمام الأوزاعي»[1] وكانت أديبة شاعرة.

وقد روي عن الخيزران حديث يتصل سنده بابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «من اتقى الله وقاه كل شيء».

توفيت الخيزران سنة ١٧٣هـ فخرج ابنها الرشيد في جنازتها، وعليه طيلسان أزرق، وقد شدّ وسطه بحزام، وأخذ بقائمة التابوت حافياً يخب في الطين، حتى أتي مقابر قريش، فغسل رجليه وصلى عليها، ونزل لحدها، وتصدق عنها بمال كثير.

وفور وفاتها وبعد الانتهاء من قبرها استدعى الفضل بن الربيع فولاه الخاتم والنفقات، وذكر له أنه كان يريد أن يوليه ذلك منذ مدة وأمه الخيزران تمنعه.

وإنما يدل ذلك على إحكام سيطرتها عليه، يساعدها في ذلك يحيى البرمكي وأتباعه.

(١) الأعلام للزركلي ج ٢ ص ٣٢٨.

جده المنصور:

هو عبدالله بن محمد بن علي بن عبدالله بن عباس بن عبدالمطلب المشهور: بأبي جعفر المنصور، بويع له بالخلافة بعد أخيه السفاح، وذلك في ذي الحجة سنة ست وثلاثين ومئة هجرية.

اشتهر المنصور بالشدة والبأس والثبات، وكان يؤاخذ ولاته ويشتد عليهم، عزل رجلاً ولاه حضرموت، لما وصل إليه أنه يكثر الخروج للصيد، وكتب إليه: «ثكلتك أمك، وعدمتك عشيرتك، إنّا إنما استكفيناك أمور المسلمين، ولم نستكفك أمور الوحوش، سلم ما كنت تلي من عملنا والحق بأهلك ملوماً مدحورا».

كان المنصور في أول النهار يتصدى للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والولايات والعزل والنظر في مصالح العامة، وبعد العصر ينظر في مصالح أهله، وينظر بعد العشاء في الكتب والرسائل الواردة من الولاة والآفاق، ويقوم إلى صلاته في الثلث الأخر من الليل حتى يصلي الصبح بالناس.

كان المنصور صارماً في أمور المسلمين ضنيناً بأموالهم، لا يحب الخيلاء والسرف، بنى بغداد، وفتح البلاد، وقمع الثورات، ونكب الزنادقة، وأحب العلماء وقربهم اليه.

للمنصور وصية قيمة أوصى بها ابنه المهدي، وهي تدل على شخصيته هي: «إن الخليفة لا يصلحه إلا التقوى، والسلطان لا يصلحه إلا الطاعة، والرعية لا يصلحها إلا العدل، وأولى الناس بالعفو أقدرهم على العقوبة، وأنقص الناس عقلا من ظلم من هو دونه».

ومن قوله أيضاً: «يا بُني استدم النعمة بالشكر، والقدرة بالعفو، والطاعة بالتأليف، والنصر بالتواضع والرحمة للناس، ولا تنسّ نصيبك من الدنيا ونصيبك من رحمة الله»[1]

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج ١٠ ص ١٢٦ وللمنصور وصايا قيمة رصينة أثبتها ابن الأثير في ترجمته فليُرجع اليها.

الفصل الثاني

الرشيد: من ولادته حتى خلافته

ولادته:

وجه المنصور ولده محمداً «المهدي» إلى خراسان سنة ١٤١ هـ للقضاء على تمرد أحد القـادة العسكريين وهو عبدالجبار بن عبدالرحمن الأزدي، وجعل معه خازم بن خزيمة، فتمكنا من عبدالجبار وأرسلاه الى الخليفة في العراق مكبلاً مهاناً حيث قُتل فيها.

واستمر المهدي في خراسان نائباً عليها، يتوغل وقائد جيشه خازم في طبرستان يقاتل الأصبهبذ إلى أن حاصروه وصالحهم على ما فيها من الذخائر، ثم نقض الأصبهبذ العهد فقاتلوه حتى تمكنوا منه وقتل نفسه مسموماً، واستقرت الأحوال وأخذ المهدي يرسل بالأموال والهدايا والغنائم إلى العاصمة دليلاً على ظفره وانتصاره.

عاد المهدي إلى العراق سنة «١٤٤ هـ» بعد أن ترك أثراً طيباً، وسيرة حميدة، فوصل إليها «واستقبله أبوجعفر المنصور في نهاوند استقبال الفاتحين الأبطال، ثم استقر به المقام في الهاشمية حيث تزوج ابنة عمه: «ريطة بنت أبي العباس السفاح وذلك في الحيرة». [(١)]

رجع المهدي بعد زواجه إلى بلاد الري مصحوباً بفرقة من الجيش تقدر بثلاثين ألفاً، يصحبه جماعة من كبار القواد على رأسهم «معاوية بن عبيد بن يسار» وظل في الري يقوم بالفتوحات، ويعمل في العمران، ويحسن السيرة في العباد.

وكان في حاشيته جارية جميلة ورقيقة اشتراها منذ مدة، وقد عُرفت بالأنوثة والنعومة

---

(١) البداية النهاية لابن كثير ج ١٠ ص ٨٣

وتدعى: «الخيزران بنت عطاء الجرشية» نسبة إلى جرش باليمن، أعجب بها المهدي فأعتقها ثم تزوجها.

أنجبت الخيزران للمهدي ولده البكر موسى الملقب بالهادي، ثم ولدت له في شتاء «١٤٨هـ ٧٦٥م»[1] ولده الثاني «هارون» ـ الملقب بالرشيد:

وفي ذلك قال الشاعر:

ليس في النــاس مثـل موسى وهـا	رون هجينــان انجبـا لهجـان
ما استثـرنـا عرق الخـلافـة حتى	أورق الــعــود في بني الخــيزران

رضاعته:

يذكر المؤرخون أن الخيزران كانت تربطها بنساء الأمراء روابط متينة وقوية، وأقوى هذه الروابط كانت بينها وبين أسرة يحيى بن خالد البرمكي، فإن نساء يحيى تمكنَّ من التسلل إلى قلب الخيزران، وحيازة رضاها، والفوز بالنصيب الأكبر من مجالستها ومسامرتها، ونلن ثقتها، فدفعت ولدها هارون الرشيد اليهن ملففاً في خرقه لإرضاعه وللعناية به، والسهر على راحته، ومساعدتها في تربيته.

وكان ليحيى بن برمك آنئذٍ ثلاث زوجات هن: «زينب بنت منير» و«عتابة» و«فاطمة بنت محمد بن الحسن بن قحطبة الطائي».

وقد ولدت زينب ابنها الفضل قبل ولادة هارون الرشيد بسبعة أشهر تقريباً، فكان الفضل يرضع على ثدي أمه حين دفعت الخيزران بهارون إليها لترضعه، وتعتني به، فصار الفضـل أخاً له في الرضاعة، كما شاركها في رضاعة هارون ضرتها فاطمة بنت محمد بن قحطبة، فصارت له أماً، وصار جعفر ولدها له أخاً.

ويقال إن «عتابة» ولدت ليحيى جعفرا بعد ذلك ببضعة أشهر، ويبـدو أنها توفيت وهـو في مهـده فدفع يحيى به إلى ضرتها فاطمة بنت محمد بن الحسن بن قحطبة الطائي

---

(١) الخلاف حاصل في ولادة الرشيد فمن قائل: إنه ولد عام ١٤٥هـ ومن قائل إنه عام ١٤٦هـ ١٤٧ والخلاف في هذا ليس بذي بال

لترضعـه، فاجتمع على ثديها مع هارون الذي سبق أن أرضعته كذلك.[1] وقد أرضعت الخيزران أولاد يحيى كذلك.

وبذلك صار يحيى بن خالد البرمكي أباً للرشيد، وصارت نساؤه له أمهات، وزادت الصلة والصحبة قوة ومتانة بين الخيزران وعائلة البرمكي يحيى، هذه الصلة التي دفعت بهم إلى أعالي المجد مدة طويلة من الزمن، عرفت الدنيا آثارهم، وتناقلت الكتب أخبارهم، إلى أن تمكن الرشيد منهم فأوقع بهم ونكبهم.

طفولته:

بدأ الرشيد طفولته بين صدر أمه وثدي زوجات يحيى البرمكي أمهاته بالرضاعة، وأخذ ينمو ويكبر، فصار يدب على الأرض، ويتنقل في حدائق قصر «الزينبدي» في بلاد الري، وهو القصر الـذي يقيم فيه المهدي، فكان هارون ينمو بين أترابه من أولاد الأمراء والقادة، وخاصة مع إخوته بالرضاعة الفضل وجعفر أولاد يحيى البرمكي.

وقد شُغل المهدي هذه الفترة بمقاومة العادين على الخلافة، حيث جهز جيوشه لقتال رجـل من الكفـرة اسمـه: «أستاذ سيس» الذي أعلن العصيان، ونشر الفساد، وسفك الدماء، وظل المهدي والقائد الفذ: خازم بن خزيمة يحاربان «أستاذ سيس» حتى قضيا عليه، وطهرا الأرض من شروره.

وفي أثناءهذه الفترة الواقعة في سنة ١٥٠هـ توالت الأنباء بوفاة جعفر الأكبر ولد المنصور وشقيق المهدي، ثم ورد الأمر من الخليفة بعودة المهدي وأسرته إلى بغداد، فودعت الأسرة أصدقاءها، وبكت الخيزران صويحباتها، وخاصة نساء آل برمك، كما خيم الحزن عليها لفراقها أسرة البرامكة برمتها.

وصلت الأسرة إلى بغـداد سنـة ١٥١ هـ، ونزلت في قصر الذهب، وجاء الأمراء والقواد يسلمون على المهدي ويهنئونه بالظفر والنصر وسلامة العودة، وكان فرح المنصور به وبـأحفاده عظيماً، وسره ما رأى من جمال هارون، وتوسم فيه الخير، وأعلن أنه يرى أن

---

(١) الذي نميل إليه أن عتابة وفاطمة اسمان لشخصية واحدة هي فاطمة، وفاطمة هي أم جعفر، وقد أرضعت الرشيد، كما أرضعت الخيزران الفضل، ويذكر ابن كثير في البداية والنهاية ج ١٠ ص ٢٠٥ : «أن اسمها عبادة».

هارون سيلي أمر الخلافة، فتعجب المهدي وسأله: «أتقول ذلك يا أبتي عن أمر بان لك؟؟» فقال: «لا، ولكني أتوسم ذلك».

استمر الرشيد يغدو ويروح في قصور بغداد، وفي أحضان الأسرة العباسية التي تمتلىء بها بغداد، وبعد سنة في أحضان قصر الخلافة انتقل هارون مع أسرته إلى القصر الجديد قرب الرصافة التي ابتناها المنصور لولده المهدي في الجانب الشرقي من بغداد، حيث بدأ الناس بالعمران والانتقال إلى هناك.

وظل هارون ينعم بالهدوء والحب والعطف في رحاب الرصافة، وبين أطفال الأمراء والقادة والعلماء، وأحب المكث بين أطفال عمه جعفر الأكبر الذي وافته المنية سنة ١٥٠هـ، فكان يقضي معظم وقته معهم، ومن حينها شغفه حب ابنة عمه زبيدة.

ومنذ أن صار هارون فتياً يعقل ما يقال له، عين له المهدي مدرساً يلازمه ويلقنه العلم، ويقي هذا المدرس بجانبه لم يفارقه حتى مات، وهو الكسائي رحمه الله.

لقد اهتم الخلفاء بتعليم أولادهم ورعايتهم، فلم يترك خليفة أولاده إلا وقد عين لهم أجلاء العلماء في الأدب والنحو والفقه وغير ذلك من العلوم، وقد عين المهدي لابنه الرشيد العالم النحوي المشهور: علي بن حمزة بن عبدالله الأسدي بالولاء، الكوفي، المشهور بالكسائي، وهو امام في اللغة والنحو والقراءة، قام بتأديب الرشيد وتعليمه، كما قام بتأديب ولده الأمين، قال الجاحظ عنه: «كان أثيراً عند الخليفة، حتى أخرجه من طبقة المؤدبين إلى طبقة الجلساء والمؤانسين».[1]

وممن كان يشرف على تأديب هارون وتعليمه كذلك: المفضل الضبي، وهو الذي كتب للمهدي أمثال العرب وحروبها، ولكنه لم يلازم هارون في صغره ملازمة الكسائي له، وكان علامة بالشعر والأدب وأيام العرب، من أهل الكوفة، قال عبدالواحد اللغوي: هو أوثق من روى الشعر من الكوفيين، صنف للمهدي كتاب «المفضليات» وسماه «الاختيارات».

---

(١) الأعلام للزركلي ج ٤ ص ٢٨٣.

وقد كان أثر هؤلاء العلماء واضحاً في هارون الرشيد، فحفظ الكثير من الشعر والأدب والحكم والخطب، وصار على معرفة تامة بأيام العرب وأمثالها، يظهر ذلك جلياً عند حديثنا عن علمه وأدبه.

ولما بلغ الرشيد العاشرة من عمره فجعه الموت بوفاة جده المنصور، وشاهد بأم عينه حزن الناس لوفاة المنصور، وانتقال الخلافة إلى أبيه، وذلك سنة ١٥٨هـ، فأخذت حياته مجرى جديدا، حيث بدأ المهدي يُعده وأخاه لتحمل مسؤوليات المستقبل، وأخذ عوده يقسو وساعده يشتد، وصار جسمه ينمو، حتى اكتمل حيوية وشبابا.

شبابه:

ولما اشتد ساعد هارون «الرشيد» وقوي عوده أخذ يتدرب على الفروسية وركوب الخيل، ويتعلم الرمي والطعن والجري، وكان في ذلك لا يجاريه أحد من أولاد الأمراء وأقرانهم من الشباب، فقد اشتهر المهدي باهتمامه الشديد بتدريب أولاده منذ الصغر على الفروسية والقتال، وقد ظهر ذلك جلياً حتى في بناته، فقد ذكر علي بن محمد، عن أبيه، قال: «رأيت المهدي وقد دخل البصرة من قبل سكة قريش، فرأيته يسير والبانوقة[1] بين يديه، بينه وبين صاحب الشرطة، عليها قباء أسود، متقلدة سيفاً، في هيئة الغلمان».[2] ويذكر السيوطي في تاريخ الخلفاء: أن الرشيد أول خليفة لعب الصَّوَالجة والكرة، ورمى النشاب في البرجاس.

ولم يكن اهتمام المهدي بتربية أولاده التربية العسكرية الحازمة إلا ليرمي بهم في وجوه أعدائه والخارجين عليه، ولذلك رمى بابنه هارون في وجوه أعدائه الروم عندما تسلم الخلافة.

ففي سنة ١٦٣هـ أراد المهدي غزو الروم، فجهز جيشاً كبيراً، زوده بما يلزمه من عدة ومن عدد، وحشر فيه كبار القواد والأمراء، منهم الحسين بن قحطبة، والربيع الحاجب، والحسن الحاجب، وموسى بن عيسى، وعبدالله بن صالح، وجعل على رئاسة هذا الحشد

---

(١) البانوقة: احدى بنات المهدي.

(٢) تاريخ الطبري ج٣ ص١٨٦.

من الجند ومن كبار القواد والحجاب والأمراء، ولده هارون الرشيد.

لقد تسلم هارون الرشيد قيادة هذا الجيش اللجب وسنه لم تتجاوز الخمس عشرة سنة، وكان يسير في مقدمة الجيش يضرب الصُّوالجة وموسى بن عيسى وعبدالملك بن صالح يتضاحكان ويتغامزان استصغاراً لسنه، وتقليلاً لشأنه، ولكنه أثبت براعة وحزماً وحسن تدبير جعله محلا للفخر والتقدير.

لقد تسلم هارون هذا الجيش بما فيه من الوزراء والقواد والكبار، فكان معه خالد بن برمك، وسليمان والحسن ابنا برمك كذلك، وصارت امرة النفقات على العسكر والقيام بأمره إلى يحيى بن خالد البرمكي، ففي جيشه حشد من الأمراء والقواد وأهل الحل والعقد.

سار المهدي في وداع هذا الجيش حتى بلغ الحدود الرومية، فشيع ابنه هارون وودعه، ثم توجه الى بيت المقدس.

جاوز الرشيد بجيشه حدود الروم، وتوغل فيها، ونزل رستاقاً من رساتيق الروم فيه قلعة يقال لها: «سمالوا» فأقام عليها ثمانية وثلاثين يوماً، وقد نصب عليها المنجانيق، حتى فتحها الله عليهم، بسبب ما أصاب أهلها من عطش وجوع نتيجة الحصار، فاضطروا إلى فتحها على شروط اشترطوها لأنفسهم منها:

١ ـ ألا يُقتلوا ولا يُرحلّوا.

٢ ـ ألا يفرق بينهم.

فأعطاهم هارون ما شرطوا لأنفسهم، ووفى لهم عهدهم، وعاد بجيشه سالماً غانماً، يحمل الأموال الجزيلة والعطايا الكثيرة، فتلقاهم أهل بغداد بالفرح والسرور، والأغاني والأفراح بذلك النصر المبين، وقد فرح المهدي بهذه النتيجة المشرفة التي فتحها الله على ابنه هارون «فكافأه بتوليته بلاد المغرب وأذربيجان وأرمينية وجعل على رسائله يحيى بن خالد البرمكي»[1].

وفي سنة ١٦٥ هـ أعد المهدي جيشاً ثانيا لغزو الروم، كان قوامه خمسة وتسعين الفاً

---

(١) تاريخ الطبري، والبداية والنهاية لابن كثير، أحداث ١٦٣هـ

وسبعمائة وثلاثة وتسعين رجلاً، وكان معه من النفقة مائة ألف دينار، وأربعة وتسعون الف دينار عدا الكثير من الفضة والدراهم.

سلم المهدي قيادة الجيش هذه المرة كذلك إلى ولده هارون، وكان قد بنى بابنة عمه في هذا العام، فلم يمنعه من إنفاذ أمر والده، وترك عروسه وفارقها إلى الحرب والطعان.

خرج الجيش بقيادة هارون يوم السبت لإحدى عشرة ليلة بقيت من جمادى الآخرة، وقد ضُم اليه الربيع الحاجب، وصار على العسكر يزيد بن مزيد، فغز هارون السير حتى وصل حدود الروم فتوغل فيها، وفتح ماجدة، ولقيته خيول نقيطا، فبارزه يزيد بن مزيد، فأرجل يزيد، ثم سقط نقيطا، فضربه يزيد حتى أثخنه، فلما رأت الروم قائدها على هذه الحال هربت مدبرة، فسار هارون بجيشه الى الدُّمُستُق بنقمودية، فحمل اليهم صاحبها أموالاً كثيرة من الذهب والفضة، فتركوه وساروا حتى وصلوا إلى خليج البحر الذي على القسطنطينية، وصاحب الروم يومئذٍ أغسطه امرأة أليون، لان زوجها هلك وولده صغير في حجرها فصار الملك اليها.

ولما كانت أخبار انتصارات المسلمين قد وصلت اليها، وعرفت أن المسلمين قد توغلوا في بلادها أخذت تجري الرسل إلى هارون وتبعث بالسفراء، وذلك في طلب الصلح والموادعة وإعطاء الفدية للمسلمين، فقبل هارون ذلك منها، وشرط عليها الوفاء بها أعطت، وأن تقيم له الأدلاء والأسواق في طريقه، وذلك لأنه دخل مدخلاً صعباً في بلادها فخاف على المسملين، فأجابته إلى ما سأل.

والذي وقع عليه الصلح بينه وبينها أن تدفع له تسعين أو سبعين الف دينار، تؤديها في نيسان من كل سنة، وفي حزيران كذلك.

أقامت أغسطة لهارون الأسواق في منصرفه، ووجهت معه رسولاً إلى المهدي بما بذلت، على أن تؤدي ما تيسر من الذهب والفضة والعَرْض، وكتبوا كتاب الهدنة الى ثلاث سنين، وسُلمت الأسارى.

وكان الذي أفاء الله على هارون إلى أن أذعنت الروم بالجزية خمسة الاف رأس وستمائة وثلاثة وأربعين رأساً من الجند الأسارى، عدا الدواب والأغنام والبقر، فرخصت أسعار

أدوات الحروب والدواب لكثرة ما أفاء الله على المسلمين منها.

وقد قتل من الروم أربعة وخمسون ألفاً، وقتل من الأسرى بالسيف الفان وتسعون أسيراً.

قال مروان بن أبي حفصه مادحاً لهارون:

أطفت بقسطنطينية الروم مسندا | اليها القنا حتى اكتسى الذل سورها
وما رمتها حتى اتتك ملوكها | بجزيتها والحرب تغلي قدورها

وفي المحرم من سنة ١٦٦هـ وصل هارون إلى بغداد قادماً من بلاد الروم، وقد دخل مدينة السلام في أبهة عظيمة، وحفاوة كريمة، معه الروم يحملون الجزية من الذهب وغيره.

وقد فرح المهدي بهذا النصر كثيرا، فكافأ هارون على ذلك بأحسن المكافأة، حيث أخذ البيعة له بعد أخيه موسى الهادي، وأطلق عليه لقب: «الرشيد».[1]

ولا يفوتنا أن نذكر: أن هارون صحب والده في سنة ١٦٠هـ الى حج بيت الله الحرام، وقد تحمل هارون الشاب شديد المشاق في سبيل تأدية فريضة الحج، وهناك رأى بأم عينه كيف نزع والده كسوة الكعبة المهترئة، وجدد لها كسوتها، وعاين كذلك الأموال الكثيرة التي قدمها أبوه الخليفة المهدي إلى أهل الحرمين.

هذا شباب هارون، وهذه الفترة الخطيرة في حياة كل شاب قضاها هارون بين جهاد العبادة ومشاق الحج، وبين جهاد العدو والحرب والطعان ضد أعدائه الروم.

لقد حقق هارون للمسلمين في غزواته للروم وهو فتى لم ينبت في وجهه شعر الشباب أفضل المكاسب، وهو في هذه السن تفاوض مع ملكة الروم أُغسطة وعقد معها هدنة حرب لمدة ثلاث سنوات.

فمن كان هذا شبابه!! فماذا تنتظر منه في شيخوخته وشيبته؟؟.

---

(١) ابن جرير وابن كثير في حوادث ١٦٥هـ ١٦٦هـ.

زواجه:

أراد المهدي أن يتوج شباب ولده هارون بالعفة والطهر فخطب له ابنة أخيه جعفر، وكانت رفيقة هارون في دروب الطفولة، وفي قصور الشباب، وقد تبادلا الحب البريء الذي يكون مثله بين أولاد العمومة وبنات عمهم، وقد اشتهرت ابنة جعفر، واسمها «أمة العزيز» بجمالها وبضاضة جسمها، وهذا ما دعا جدها المنصور أن يلقبها بزبيدة، اللقب الذي غلب عليها، فقد كانت بارعة الجمال، رقيقة القسمات، ساحرة العينين، فاحمة الشعر، هيفاء القامة، ناعمة البشرة، بيضاء المحيا، وقد عاشت في قصور عمها المهدي، ترشف من مناهل العلم وينابيع المعرفة المتدفقة في هذه الناحية من الدنيا.

واستعد المهدي لهذا الزواج استعداداً لم يستعد لمثله من قبل، ولم يكن لامرأة قبل زبيدة، وحُملت صناديق الحلي وأكاليل الذهب، ومصوغات الفضة، وأنواع الكسوة، وأطايب العطور، ووزعت الأموال والثياب على الناس، والأمراء، والنساء والرجال.

وحفل قصر محمد بن سليمان العباسي زوج العباسة ابنة المهدي بأجمل عروسين، بعد تجميله وتأثيثه بأيدي أمهر الصناع، وأدق العمال، وأعظم الفنانين.

نعم لقد تزوج هارون وهو في ريعان الشباب، بل في مقتبل العمر، فصانه زواجه عن الحرام، وحال بينه وبين المغريات والمحرمات.

ولايته للعهد:

كان المهدي قد عزم على نقل ولاية العهد من ولده موسى الهادي إلى ولده هارون الرشيد، بدافع من الخيزران أمهما، التي كانت تميل إلى الرشيد أكثر من ميلها إلى ولدها موسى الهادي، وبدافع من المهدي نفسه، لما رآه في ولده من تقوى وبطولة، ومن ذكاء ونبوغ، ومن حسن تصرف وحكمة..،

وتنفيذاً لهذه الرغبة من المهدي أنفذ كتبه يطلب من ولده موسى الحضور اليه، وقد سبق لعلم موسى الهادي الخبر، وعرف المكيدة، فرفض الامتثال للأمر، وأساء لرسل والده الخليفة، وظل مقيماً في جرجان، فجهز المهدي نفسه للمسير اليه.

ولما وصل المهدي إلى ماسبذان ومعه ابنه هارون توفي فيها، ويقال: إنه لحق بالصيد فدخلت فرسه بيتاً خرباً أصابه حائطه فوقع عن فرسه، ولم يبق طويلاً حتى مات، فصلى عليه ولده هارون، وواراه الثرى هناك، ثم أرسل إلى الهادي الخاتم والقضيب، وصحب ذلك بتعزيته لوفاة والدهما، وتهنئته بالخلافة، وقد أخذ له البيعة من أمراء بني هاشم ومن القواد ومن الناس، وكتب إلى الأقاليم بذلك، فلما وصل الخبر إلى موسى الهادي توجه من فوره إلى بغداد، وأخذ البيعة لنفسه، وتسلم زمام الأمور، وقام في الناس خليفة عادلاً، يسير بهم بالرفق والإحسان.

وتسلم الهادي الخلافة بعد وفاة والده، وذلك في المحرم من أول سنة تسع وستين ومائة، واستمر فيها إلى أن وافته المنية بعيساباذ ليلة الجمعة للنصف من ربيع الأول سنة سبعين ومائة، وكانت مدة خلافته قصيرة لا تزيد عن سنة وثلاثة أشهر.

وقد تكرر من الهادي نفس الذي كان من والده في نقل الخلافة إلى غير من صارت اليه، فالمهدي أراد نقل الخلافة من ولده موسى الهادي بعد أن صارت اليه إلى ولده هارون الرشيد، وكذلك أراد موسى الهادي نقل الخلافة بعده من أخيه هارون الرشيد إلى ولده جعفر، وذلك رغم العهود والمواثيق والأيمان التي وثّق بها المهدي ولاية العهد لابنه الرشيد بعد وفاة أخيه موسى الهادي.

لم يحاول هارون الدخول مع أخيه في صراع حول الخلافة، ولذلك لم يتردد لحظة في إرسال الخاتم والقضيب له بعد وفاة أبيه المهدي، بل جمع الأمراء والقواد وأخذ البيعة بالخلافة لأخيه، فهو من بداية الأمر لم يكن راغباً في الصراع مع أخيه، وقد كاد أن يتنازل عن حقه في ولاية العهد لابن أخيه، إيثاراً للسلامة، وحباً في الهدوء، ولكن وقوف يحيى البرمكي إلى جانبه وتحريضه ومدافعته لئلا يستسلم لرغبة أخيه جعله يرفض ما يريده منه الهادي، وقد شجعته أمه الخيزران على هذا الرفض.

لقد تعطلت ولاية هارون على الجانب الغربي للدولة، وأخذ موسى الهادي يُعرض به في المجالس، ويبدي عدم اهتمامه به، وازدرائه له، وأمر أن لا يسير الغلمان أمامه بالحراب، فانصرف الرشيد لشؤونه الخاصة، وقد نال يحيى البرمكي بعض القيود بسبب صلته بهارون

الرشيد، وطلب منه أكثر من مرة أن يتخلى عن الرشيد، ويتركه ليتنازل عن ولاية العهد، فقد ذكر أبوحفص الكرماني أن محمد بن يحيى بن خالد حدثّه، قال: بعث الهادي إلى يحيى ليلا، فأيس من نفسه، وودّع أهله، وتحنّط وجدّد ثيابه، ولم يشكّ أنه يقتله؛ فلمّا أُدخل عليه، قال: يا يحيى، ما لي ولك! قال: أنا عبدُك يا أميرَ المؤمنين؛ فما يكنُ العبد إلى مولاه إلا طاعته. قال: فَلِمَ تدخل بيني وبين أخي وتفسده علي! قال: يا أمير المؤمنين، مَنْ أنا حتى أدخل بينكما! إنما صيرني المهديّ معه، وأمرني بالقيام بأمره؛ فقمت بما أمرني به، ثم أمرتَني بذلك فانتهيت إلى أمرك. قال: فما الذي صنع هارون؟ قال: ما صنع شيئاً، ولا ذلك فيه ولا عنده. قال: فسكن غضبه،[1] ولكن الهادي عاد مرة ثانية يتهدد يحيى البرمكي ويتوعده حتى ألقى به آخر الأمر في السجن.

وقد بلغ الأمر بالهادي أن يُعرِّض بأخيه الرشيد أمام الناس، وفي مجلس الخلافة، فقد دخل عليه يوماً، وقبل يَديْه، وجلس عن يمينه بعيداً من ناحية، فأطرق موسى ينظر إليه، وأدمن ذلك، ثم التفت إليه، فقال: يا هارون، كأني بك تحدِّث نفسك بتمام الرؤيا،[2] وتؤمِّل ما أنت منه بعيد، ودون ذلك خَرْطُ القتاد، تؤمِّل الخلافة! قال: فبرك هارون على ركبتيه، وقال: يا موسى؛ إنك إن تجبرّتَ وُضعتَ، وإن تواضعتَ رُفعتَ؛ وإن ظَلَمْتَ خُتِلت؛[3] وإني لأرجو أن يفضي الأمر إليّ؛ فأُنصف مَنْ ظلمتَ، وأصِل مَنْ قطعتَ، وأصيرُ أولادك أعلى من أولادي، وأزوِّجهم بناتي، وأبلغ ما يجب من حق الإمام المهديّ. قال: فقال له موسى: ذلك الظنّ بك يا أبا جعفر؛ ادن مني، فدنا منه، فقبَّل يديه، ثم ذهب يعـود إلى مجلسه، فقال له: لا والشيخ الجليل، والملك النبيل - أعني أباك المنصور - لا جلستَ إلاّ معي، وأجلسه في صدر المجلس معه، ثم قال: يا حَرّانيّ، احمل إلى أخي ألف ألف دينار، وإذا افتتح الخراج فاحْمل إليه النصف منه، واعرض عليه ما في الخزائن من مالنا، وما أخذ من أهل بيت اللعنة؛ فيأخذ جميع ما أراد، وانصرف الرشيد على الرضا والمحبة بينه وبين أخيه، ولكن الدسائس عادت من جديد لتعكر صفو المودة بينهما، وقد

---

(١) الطبري ج ٣ ص ٢٠٨.

(٢) قال المهدي: أريت في منامي كأني دفعت إلى موسى قضيباً وإلى هارون قضيباً، فأورق من قضيب موسى أعلاه قليلاً؛ فأما هارون فأورق قضيبه من أوله إلى آخره.

(٣) ختلت: قتلت.

وصلت مداها حين أعلن موسى الهادي أخذ البيعة لولده جعفر أمام قواده وكبار شيعته، ولما رفض الرشيد التنازل لجعفر أمر الهادي بحبسه في بيت خاص وتحت اشراف «سلامة الأبرش» السجان المعروف منذ عهد المنصور، وكاد الهادي أن يقتل يحيى البرمكي ومعه هارون غير أن المرض عاجله ومات قبل أن يجزم في أمر قتلهما.

ففي ليلة النصف من شهر ربيع الأول عام ١٧٠هـ أعلن قصر الخلافة وفاة الخليفة موسى الهادي، وأرسلت الخيزران مَنْ أخرج يحيى بن خالد البرمكي من سجنه، فذهب لفوره وتأكد من الخبر، ثم ذهب إلى هارون الرشيد في البيت الذي يقيم فيه مسجوناً فوجده نائماً، فأيقظه قائلاً له: «قم يا أمير المؤمنين» وأخبره حقيقة الأمر، فنهض الرشيد واستلم الخاتم، واتجه إلى حيث قصر الهادي فأمر به فغُسل ثم صلى عليه هارون ودفنه في بستان قصره.

ثم أسرع القائد خزيمة بن خازم وأخذ جعفر بن موسى الهادي وصعد به مكاناً عالياً ليعلن فيه خلع نفسه من البيعة التي أُعطيت له من بعض الناس في حياة والده، فخلع نفسه وحلل الناس من بيعته، وبايع بالخلافة لعمه هارون الرشيد، وتتابع الأمراء والقواد والناس في البيعة، للرشيد، وسُيرت الكتب على البريد إلى الآفاق لأخذ البيعة له في الأقاليم والأمصار.

الباب الثالث
الفصـــل الأول
الرشيد: خلافته ووفاته

١٤ ربيع الأول ١٧٠هـ ـ ١٣ جمادى الآخرة ١٩٣هـ
١٢ أيلول ٧٨٦م ـ ٢٤ مارس ٨٠٨م

تسلم هارون الرشيد زمام الخلافة صبيحة الرابع عشر من ربيع الأول سنة ١٧٠هـ الموافق ١٢ أيلول ٧٨٦م، وكان يبلغ من العمر آنذاك اثنتين وعشرين سنة[1] وقد سميت ليلة خلافته بليلة الخلفاء، ففيها توفي الخليفة موسى الهادي، وفيها توّج هارون بالخلافة، وفيها ولد ابن الرشيد المأمون الخليفة.

ولّى هارون الرشيد لساعته يحيى بن خالد البرمكي وزارته، وزارة تفويض، قائلاً له: «يا أبتِ أنت أجلستني في هذا المجلس ببركتك ويُمنك، وحسن تدبيرك، وقد قلدتك الأمر» فكانت وزارة يحيى أول وزارة تفويض من الخليفة لوزيره في العصر العباسي، ثم دفع خاتمه اليه، وفي ذلك يقول إبراهيم الموصلي:

ألم تر أن الشـمس كانت سقيمـة ... فلما ولي هارون أشرق نورهـا
بيمن أمـين الله هارون ذو النـدى ... فهارون واليها، ويحيى وزيرهـا.[2]

كما ولّى يوسف بن القاسم بن صبيح كتابة الإنشاء، فقام يوسف بين يديه خطيباً على المنبر في عيساباذ[3] لأخذ البيعة له، فقال بعد حمد الله عز وجل والصلاة والسلام على نبيه ﷺ:

(١) الطبري وابن كثير في أحداث سنة ١٧٠هـ.

(٢) مروج الذهب ج ٣ ص ٣٢٧.

(٣) ضاحية من ضواحي بغداد.

«إن الله بمنه ولطفه منَّ عليكم معاشر أهل بيت نبيه، ببيت الخلافة ومعدن الرسالة، وإياكم أهل الطاعة من أنصار الدولة وأعوان الدعوة من نعمه التي لا تحصى بالعدد ولا تنقضي مدى الأبد، وأياديه التامة أن جمع الفتكم وأعلى أمركم وشد عضدكم وأوهن عدوكم، وأظهر كلمة الحق، وكنتم أولى بها وأهلها، فأعزكم الله وكان الله قوياً عزيزاً، فكنتم أنصار دين الله المرتضى، والذابين بسيفه المنتضى عن أهل بيت نبيه ﷺ، وبكم استنقذهم من أيدي الظلمة أئمة الجور والناقضين عهد الله، والسافكين الدم الحرام، والآكلين الفيء والمستأثرين به، فاذكروا ما أعطاكم الله من هذه النعمة واحذروا أن تغيروا فيغير بكم، وإن الله جل وعز استأثر بخليفته موسى الهادي الإمام فقبضه إليه وولى بعده رشيداً مرضيا أمير المؤمنين، بكم رؤوفاً رحيماً، من محسنكم قبولاً، وعلى مسيئكم بالعفو عطوفاً، وهو أمتعه الله بالنعمة وحفظ له ما استرعاه إياه من أمر الأمة وتولاه بما تولى به أولياءه وأهل طاعته ـ يعدكم من نفسه الرأفة بكم والرحمة لكم وقسم أعطياتكم فيكم عند استحقاقكم، ويبذل لكم من الجائزة مما أفاء الله على الخلفاء مما في بيوت الأموال ما ينوب عن رزق كذا وكذا شهراً، غير مقاص لكم بذلك فيما تستقبلون من أعطياتكم، وحاملاً باقي ذلك للدفع عن حريمكم، وما لعله أن يحدث في النواحي والأقطار من العصاة المارقين، إلى بيوت الأموال حتى تعود الأموال إلى جمالها وكثرتها والحال التي كانت عليها، فاحمدوا الله وجددوا شكراً يوجب لكم المزيد من إحسانه إليكم بما جدد لكم من رأي أمير المؤمنين وتفضل به عليكم ـ أيده الله بطاعته ـ فارغبوا إلى الله له في البقاء، ولكم به في إدامة النعماء، لعلكم ترحمون، واعطوا صفقة أيمانكم وقوموا إلى بيعتكم حاطكم الله وحاط عليكم، وأصلح بكم وعلى أيديكم، وتولاكم ولاية عباده الصالحين.» (١)

ثم جهز الرشيد نفسه لصلاة الجمعة في بغداد، ووصل نبأ قدومه إلى الناس فخفوا لاستقباله، وتوزعوا على جوانب الشوارع ورأسي الجسر الكبير المتصل بالطريق المؤدي الى قصر الخلد حيث ينزل الخليفة الجديد، وظهر موكب الخليفة من جانب الرصافة، فاستقبلته الجماهير بالهتاف والتهليل والتكبير، وعلت زغاريد النساء من شرفات المقاصير وأسطحة الدور؛ فكان منظراً لمهرجان شعبي، لم ترَ مثله بغداد إلا يوم جاءها الرشيد نفسه من غزوته

(١) الوثائق السياسية والادارية. العصر العباسي.

للقسطنطينية في عهد أبيه، قبل بضعة أعوام. واقترب الموكب من الجسر، تتقدمه كتيبة أبناء الأنصار، بسيوفهم المشهورة وجيادهم المطهمة، وألبستهم السوداء المزركشة؛ ثم عدد كبير من كبار شخصيات بني العباس؛ يتوسطهم أمير المؤمنين، في حلة سوداء، على فرس أبيض مطهم بلجام وسرج من صنع فارس، وسيف رصع غمده بأثمن الجواهر؛ وهو يحيي الناس بابتسامة رقيقة، في وجه وسيم الطلعة، وقامة معتدلة، كأجمل ما يكون الشباب في عامه الثالث والعشرين. ويليه القواد والفقهاء والقضاة والعلماء ورجال الحاشية الآخرين» [1].

وظل الرشيد جالساً في قصر الخلد حتى حان وقت الصلاة، فذهب في موكب ضخم إلى المسجد وصلى إماماً بالناس، ثم جلس في صحن الجامع على أريكته، فتقدم لبيعته من لم يبايعه في عيساباذ، وظل الناس وخليفتهم يومهم هذا في مبايعة وأفراح واستبشار وهناء.

وقد استفتح الرشيد خلافته بالعفو عن المحكومين، والأمان للهاربين أو المستخفين، إلا من كان في عنقه حق للغير، والزنادقة والمجرمين، وقد شمل بعفوه يعقوب بن داود الذي سجنه والده المهدي في سجن المطبق، وسبب حبسه كما قيل ميله إلى العلويين، كما شمل من نفاهم أو سجنهم الهادي أيام خلافته، فأخرجهم من السجن، وأعادهم إلى المدينة.

وفي هذا العام كذلك وفّى بما وعد به أبناء عمومته، فقسّم سهم ذوي القربى بالتساوي بين بني هاشم.

كذلك اهتم بأمر الجهاد فقام بفصل انطاكية وبعض الحصون التي في شمال بلاد الشام، وجعلها وحدة إدارية سماها العواصم، وجعل مركزها منبج، وولّى عليها عمه عبدالملك بن صالح، وكذلك أكمل بناء مدينة طرسوس كثغر جهادي نزله الناس.

ولم ينته العام الذي تولى فيه الخلافة حتى رزقه الله بولده الثاني: محمد الأمين وذلك في يوم الجمعة لست عشرة ليلة خلت من شوال سنة ١٧٠هـ.

وقد ظهرت من الروم بعض الاعتداءات على المسلمين فولى هارون موسى بن عيسى إمارة الحج لهذا العام، خوفاً أن يشغله أمر الروم عن ذلك، ولكنَّ الأمر لم يأخذ منه

---

(١) هارون الرشيد للدكتور عبدالجبار الجومرد ج ١ ص ١٤٦

كبير جهد، فقد غزا الروم ثم عاد[1] فعزم على الحج، فلما وصل إلى الحرمين أعطى أهلها أموالاً كثيرة، وعطايا جزيلة، أسوة بوالده المهدي، وبهذا يكون قد ختم عامه بغزوة وحجة، وكان أول خليفة يغزو ويحج في عام واحد.

وقد ألهب موقفه هذا الشاعر داود بن رزين فقال:

بهارون لاح النور في كل بلدة	وقام به في عدل سيرته النهجُ
إمام بذات الله أصبح شغله	وأكثر ما يعنى به الغزو والحجُّ
تضيق عيون الناس عن نور وجهه	إذا ما بدا للناس منظره البلْجُ
وإن أمين الله هارون ذا الندى	ينيل الذي يرجوه أضعافَ ما يرجو[2]

وكان من رفق هارون ورحمته بالرعية أن وضع عنهم العشر الذي كان يؤخذ منهم بعد النصف.[3]

دفع الرشيد خاتم ديوان الخلافة إلى أبي العباس الفضل بن سليمان الطوسي، ولكنه لم يلبث طويلا حتى توفي، فدفع الرشيد خاتم ديوان الخلافة إلى يحيى البرمكي، فاجتمعت له الوزارتان، وأخذ يقضي في أمور الخلافة حسب ما يراه، ويرجع فيما يعزم عليه إلى الخيزران والدة الرشيد، وكان يقنعها بمايريد بحكمته، وبراعة أسلوبه، يظهر ذلك جلياً حين أشارت على ابنها هارون بقتل كل من وقف إلى جانب موسى الهادي في خلع هارون عن ولاية العهد، فلما أشارت بهذا الرأي أقنعها البرمكي برمي هؤلاء في وجوه أعداء الدولة بدلاً من قتلهم، «فإن دافعوا عن أنفسهم كان لهم في الدفع عنها شغل، وإن أصابهم العدو كنت قد استرحت منهم» فاستحسنت الخيزران رأيه واقتنعت به، وبذلك سار يحيى على هذا النهج يعزل ويضع، ويصرّف الأمور تحت سمع وبصر هارون الرشيد، يساعده أولاده الأربعة: الفضل، وجعفر، ومحمد، وموسى، الذين عُرفوا بالعقل والنجابة والشجاعة.

وما هي إلا فترة وجيزة حتى فُجع هارون بعزيزين عليه هما:

١ ـ أمه الخيزران التي وافتها المنية سنة ١٧٣هـ إثر مرض عضال لم يمهلها طويلا، وكانت

---

(١) أسند الصولي ذلك عن يعقوب بن جعفر «تاريخ الخلفاء للسيوطي ص٢٩٢».

(٢-٣) البداية والنهاية ج ١٠ ص ١٦٦ ـ ١٦٧.

قد قاربت الخمسين من العمر، فحزن عليها الرشيد حزناً شديداً، وخرج في جنازتها يلبس جبة سعيدية وطيلسان خرق أزرق، قد شُدّ به وسطه، وهو آخذ بقائمة السرير «النعش» حافياً يعدو في الطين، حتى أتى مقابر قريش فغسل رجليه، ثم دعا بخف وصلى عليها، ودخل قبرها»[1] متفجعاً باكياً، ثم دفنها، وتصدق عنها بمال عظيم لم يسبق أن تصدق أحد بمثله.

٢ ـ صهره محمد بن سليمان زوج أخته العباسة، الذي توفي في البصرة، فأمر الرشيد بالاحتياط على حواصله وأمواله ومتاعه، فوجدوا من ذلك شيئاً كثيرا، «فحملوه ليستعان به على الحرب وعلى مصالح المسلمين».[2] وبوفاته عادت العباسة إلى دار أخيها الرشيد حيث أقامت معه حتى تزوجت موسى بن عيسى العباسي.

«وسبب احتجاز الرشيد لأمواله أنه لم يكن له ولد، ولم يكن له أخ لأبيه وأمه سوى جعفر، وكان جعفر يدس على أخيه عند الرشيد، ويتقول على أخيه أنه يريد الخلافة، وأن أمواله حل طلق للخليفة، وقد أظهر الرشيد لجعفر كتبه التي أرسلها يدس فيها على أخيه، وحرمه لهذا السبب من الميراث».[3]

وفاته:

في أواخر سنة اثنتين وتسعين ومائة سار الرشيد من الرقة إلى بغداد، وذلك لحرب رافع ابن الليث، فاتجه نحو خراسان، واستخلف على الرقة ابنه القاسم يسانده خزيمة بن خازم، واستخلف على بغداد ابنه الأمين، وأمر ابنه المأمون بالاقامة في بغداد كذلك، ولم يأذن له بالخروج معه، ويذكر بعض المؤرخين أنه لحق به فيما بعد.

سار الرشيد إلى خراسان، فلما صار في بعض الطريق ابتدأت به العلة، وأخذت تزداد عليه، ولكنه استمر في سيره حتى دخل طوس، وقد اشتد عليه المرض، وثقُل عن الحركة، فأُذيع بين الناس أنه قد مات، فأراد أن يرد الشائعة بظهوره، فأراد أن يركب فرساً

---

(١) الطبري ج ٨ ص ٢٣٨.

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ج ١٠ حوادث سنة ١٧٣.

(٣) الكامل في التاريخ لابن الأثير ج ٦ ص ١١٩.

فلم يقدر على ذلك، فجلس ولم يخرج، وقد أيس من نفسه، فدعا بأكفان فاختار منها ما أراد، وأمر بحفر قبر، فلما أطلع فيه قال: (ما أغنى عني ماليه، هلك عني سلطانيه) ثم دعا بأخي رافع، فقال: أزعجتموني حتى تجشمت هذه الأسفار مع علتي وضعفي، وكان أخو رافع بن الليث ممن خرج عليه، قال: لأقتلنك قتلة ما قتل مثلها أحد قبلك، ثم أمر فقتل، واستأمن رافع بعد ذلك على المأمون؛ ثم دعا من كان بعسكره من بني هاشم فقال: إن كل مخلوق ميت، وكل جديد بال، وقد نزل بي ما ترون وأنا أوصيكم بثلاث: الحفظ لأمانتكم، والنصحية لأئمتكم، واجتماع كلمتكم؛ وانظروا محمداً وعبدالله فمن بغى منهما على صاحبه فردوه عن بغيه وقبحوا له بغيه ونكثه، وأقطع في ذلك اليوم أموالاً كثيرة وضياعاً ورباعاً.

ولما بدأت لحظات قبض روحه رحمه الله دعا بملحفة غليظة فاحتبى بها، وجعل يقاسي سكرات الموت، حتى أفضت روحه إلى بارئها، وكان ذلك سنة ثلاث وتسعين ومائة، لثلاث ليال خلون من جمادى الآخرة.[1]

(١) الطبري وابن كثير، وابن الأثير، حوادث سنة ١٩٣.

الفصل الثاني

الحوادث المؤثرة في خلافة الرشيد

ترك المهـدي الدولة لولديه وقد استقرت أمورها، وهدأت ثوراتها، وخمدت فتنها، وارتفع شأنها، وكثرت خيراتها.

ولذلك فلا غرابة إن قلنا: إن عهود الرشيد من أكثر عهود الدولة العباسية استقراراً وأمنا، وكان من أفضلها رخاء، ومن أحسنها عدلاً، ومن أعظمها جهاداً وبلاء في سبيل الله.

لقد نَعِمَ الناس بالهدوء وذاقوا طعم الأمن والراحة في هذا العهد، وكل ما نجده فيه ـ على الرغم من امتداده الزمني ـ لا يعدو التشاجر بين بعض القبائل كما حصل بين القيسية واليمنية، أو خروج بعض المارقين على الدين والقضاء عليهم، أو رد غارات الروم ومحاولة التـوغل في أرضهـم، وإرغامهم في نهاية المطاف إلى عقد معاهدات مذلة دفعوا بموجبها الجزية عن أنفسهم ليحفظوا أنفسهم وبلادهم من المسلمين..

وسوف نقف فيما يلي على أهم الحوادث ذات الفعالية والأثر في الخلافة، وفي تغيير مجرى الأحداث ومنها:

١ ـ خروج الطالبيين.
٢ ـ الحركات والثورات الصغيرة.
٣ ـ استئصال البرامكة، وسنتحدث عنه في فصل مستقل.
٤ ـ القبض على عبدالملك بن صالح.
٥ ـ ولاية العهد.

٦ ـ علاقة الرشيد بالروم.

أولاً: خروج الطالبيين:

ابتدأ الرشيد خلافته مع أبناء عمومته أحفاد علي بن أبي طالب رضي الله عنه بالعفو عمن سُجن منهم، وتأمين الهارب والمستخفي، فأخرج من كان محبوساً منهم كيعقوب بن داود وغيره، وسيرهم إلى المدينة مكرمين، وأحسن اليهم وأغدق عليهم.[١]

وبموجب الأمان الذي منحه لهم الرشيد ظهر من كان منهم مستخفياً، مثل طباطبا العلوي، ويدعى إبراهيم بن إسماعيل، ومنهم علي بن الحسن بن إبراهيم بن عبدالله بن الحسن.

وكان من أبرز الطالبيين في ذلك الوقت يحيى بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن، علي بن ابي طالب، رباه جعفر الصادق بالمدينة، فتفقه وروى الحديث، وكان مع ابن عمه: الحسين بن علي بن الحسن في ثورته بالمدينة أيام موسى الهادي، وحضر كذلك معركة فخ سنة ١٦٩هـ، ونجا منها، ثم ذهب إلى اليمن وأقام مدة فيها، ثم غادر إلى أن وصل العراق متنكراً، ثم غادر إلى الري ومنها إلى خاقان ملك الترك، ثم إلى بلاد الديلم، حيث ثار وأخذ يدعو لنفسه.

اشتدت شوكة يحيى الطالبي في بلاد الديلم، وقوي أمره، ونزع الناس اليه، فاغتم الرشيد لذلك، فندب اليه الفضل بن يحيى البرمكي سنة ١٧٥هـ في خمسين ألف رجل، ومعه صناديد القواد، وولاه كور الجبال والري وجرجان وطبرستان وقومس ودنباوند والرويان، وحمل معه الأموال والعطايا، ففرق منها الشيء الكثير، ولم تزل كتب الرشيد تتابع إلى الفضل باللطف والجوائز والإلحاح بإنهاء ثورة يحيى الطالبي.

بدأ الفضل بمكاتبة يحيى الطالبي ورفق به واستماله وحذره، كما كاتب صاحب الديلم، وجعل له ألف ألف درهم، على أن يسهل خروج يحيى اليه، أو يحمله على الصلح.

---

(١) استثنى الرشيد من العلويين العباس بن الحسن بن عبدالله بن عبدالله فلم يسمح له بالخروج الى المدينة.

فلما عرف يحيى الطالبي بالأمر، وأنه بين فكي الكماشة بدا له الصلح وأجاب الفضل اليه، على أن يكتب له الرشيد أماناً بخطه على نسخة يبعث بها اليه.

كتب الفضل إلى الرشيد بذلك، ففرح الرشيد، وكتب أماناً ليحيى بن عبدالله، وأشهد عليه الفقهاء والقضاة وجلة بني هاشم ومشايخهم، ووجه به مع جوائز وكرامات وهدايا ليصير كل ذلك ليحيى بن عبدالله، فوجه الفضل بها اليه، فقدم يحيى الطالبي اليه، وعادا معاً إلى بغداد، فلقيه الرشيد بكل ما أحب، وأمر له بمال كثير، وأجرى له أرزاقاً سنية، ثم أقام في منزل يحيى البرمكي، وسمح للناس بإتيانه بعد انتقاله من منزل يحيى البرمكي.

أقام يحيى بن عبدالله مدة ثم كَثُرَ الناس في التوافد عليه، وتواترت الأخبار إلى الرشيد بأن يحيى الطالبي يدعو لنفسه، فاستدعاه وسأله عمن يأتيه، فذكر له أنهم ممن كان معه ويشملهم كتاب العفو، فسأله عن اسمائهم فرفض يحيى وقال للرشيد: والله لو كانوا تحت قدمي ما رفعته عنهم، فكيف أشي بهم، فأخذه الرشيد وحبسه، وذلك بعد أن شاور الفقهاء في نقض كتاب الأمان، فرفض القاضي محمد بن الحسن الشيباني نقض الأمان وأفتى بصحته، ثم أفتى أبوالبختري بنقضه من وجوه ومزقه، فحبس الرشيد يحيى، وكان كثيراً ما يخرجه من السجن يناقشه ويناظره، وكان بكار بن مصعب بن ثابت بن عبدالله بن الزبير يكره آل طالب، ويغري الرشيد بهم، فحدث أن أخرج الرشيد مرة يحيى بن عبدالله وعنده بكار الزبيري، فقال الرشيد ليحيى: هيه هيه! متضاحكاً، وهذا يزعم أيضاً أننا سممناه! فقال يحيى: ها هو ذا لساني ـ وأخرج لسانه أخضر مثل السلق ـ وفي رواية أخرى: أن يحيى قال: لا يـ أمير المؤمنين، إنما هو أثر علة بي، ثم أردف يحيى قائلاً:

«إن لنا قرابة ورحماً وحقاً، فعلام تعذبني وتحبسني؟»؛ فرق له الرشيد، فاعترض بكار ابن مصعب بن ثابت بن عبدالله بن الزبير فقال: يا أمير المؤمنين لا يغرنك هذا الكلام من هذا، فإنه عاص شاق، وإنما هذا منه مكر وخبث. وقد أفسد علينا مدينتنا وأظهر فيها العصيان فقال له يحيى: ومن أنتم عافاكم الله؟ وإنما هاجر أبوك إلى المدينة بآبائي وآباء هذا، ثم قال يحيى: يا أمير المؤمنين لقد جاءني هذا حين قُتل أخي محمد بن عبدالله فقال: لعن

الله قاتله، وأنشدني فيه نحواً من عشرين بيتاً، وقال لي، إن تحركت إلى هذا الأمر فأنا أول من يبايعك، وما يمنعك أن تلحق بالبصرة وأيدينا معك؟ قال: فتغير وجه الرشيد ووجه الزبيري وأنكر وشرع يحلف بالأيمان المغلظة إنه لكاذب في ذلك، وتحير الرشيد. ثم قال ليحيى: أتحفظ شيئاً من المرثية؟ قال: نعم. وأنشده منها جانباً. فازداد الزبيري في الإنكار، فقال له يحيى بن عبدالله: فقل: إن كنت كاذبا فقد برئت من حول الله وقوته، ووكلني الله إلى حولي وقوتي. فامتنع من الحلف بذلك، فعزم عليه الرشيد وتغيظ عليه، فحلف بذلك، فما كان إلا أن خرج من عند الرشيد فرماه الله بالفالج فمات من ساعته. ويقال إن امرأته غمت وجهه بمخدة فقتله الله.

ثم إن الرشيد أطلق يحيى بن عبدالله وأطلق له مائة ألف دينار، ويقال إنما حبسه بعض يوم وقيل ثلاثة أيام. وكان جملة ما وصله من المال من الرشيد أربعمائة ألف دينار من بيت المال، وعاش بعد ذلك كله شهراً واحداً ثم مات رحمه الله.[1]

وفي سنة ١٧٩هـ حج الرشيد، فبلغه أن الناس يبايعون موسى بن جعفر الصادق الملقب بالكاظم، ويحملون اليه خمس أموالهم، فخاف الرشيد خروجه عليه، فأمر به فحُمل إلى البصرة وحبس عند واليها عيسى بن جعفر، ثم نُقل إلى بغداد حيث توفي في السجن. رحمه الله. وذلك سنة ١٨٣هـ.

ومما يجدر ذكره أن إدريس بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي هرب بعد معركة فخ التي كانت بين الحسين بن علي بن الحسن المثلث وعسكر الهادي، سنة ١٦٩هـ، فوصل إلى المغرب الأقصى سنة ١٧٢هـ، ونزل بمدينة وليلي «بالقرب من مدينة مكناس» وتمكن من إقامة دولة قوية، جمع عليها البربر في تلك البلاد، حتى وافاه الأجل مسموما سنة ١٧٧هـ.

وكان حرص الرشيد شديداً بأن يحسن إلى أبناء عمه آل علي رضي الله عنهم، فقد أخرجهم من الحبس وقت وليّ الخلافة، وأوصلهم إلى المدينة، وأمنهم وأكرمهم، وقد أخرج معهم كل من يمت لهم بصلة، فقد أخرج يعقوب بن داود الذي استوزره المهدي مدة

---

(١) البداية والنهاية ج ١٠ ص ١٧٣

طويلة، ثم نما اليه ميل يعقوب إلى آل علي، وعدم حفظه الأمانة التي استأمنه عليها المهدي، فهرّب أحد المحبوسين عنده، وفي أمانته، ثم كذب على المهدي بذلك فغضب عليه، وألقاه في جب مدة خلافته ثم أخرجه الرشيد، وجعل له رزقاً من الخراج، وأوصله إلى مكة حسب رغبته إلى أن وافته المنية سنة ١٨٢هـ.

وكـان حري بالعلويين أن يكافئوا الرشيد بصنيعه هذا فلا يخرجوا عليه، كما فعل الخوارج في عهد عمر بن عبدالعزيز[1] مثلاً، ولكن العلة ليست في آل علي بل فيمن حولهم، فقد كانوا سبب البلاء لهم منذ خرج الحسين رضي الله عنهم، فإنهم يعدونهم النصرة والتأييد ثم يتخلون عنهم ويخذلونهم.

وقد أشهد الرشيد على نفسه حبه لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال: «بلغني أن العامة يظنون بأني أبغض عليّ بن أبي طالب!؟ والله ما أحب أحداً حبي له» وبرر موقفه من أبناء علي، فقال: «ولكن هؤلاء أشد الناس بغضا لنا، وطعنا علينا، وسعيا في إفساد ملكنا، بعد أخذنا بثأرهم، ومساهمتنا اياهم ما حويناه، حتى إنهم لأميل لبني أمية منهم الينا، فأما ولده لصلبه - أي ولد علي رضي الله عنه - فهم سادة الأهل والسابقون إلى الفضل».[2]

ثانيا: الحركات والثورات الصغيرة:

كانت دولة الرشيد مترامية الأطراف، وقد ربطها الرشيد بالعاصمة بغداد عن طريق البريد المنظم، وكانت المسافات الشاسعة تحول دون وصول البريد في الوقت المناسب، مما ساعد على اشتداد ساعد بعض الخارجين على الخلافة، ولكن ذلك لم يدم طويلاً، فكانت جيوش الخلافة الضاربة في أرجاء الدولة تسرع للضرب على أيدي العابثين الذين سولت لهم أنفسهم الخروج على الخلافة. وسنقف على أهم هذه الحركات.

١ - الخوارج: في سنة ١٧١هـ خرج الفضل بن سعيد الحروري فلم يلبث طويلاً حتى قتل، وفي سنة ١٧١هـ خرج الصَّحْصِحُ الخارجي بالجزيرة، فقاومه واليها: أبوهريرة

(١) يذكر المؤرخون أن الخوارج هدأت ثوراتهم في عهد عمر بن عبدالعزيز، حين لمسوا عدله وحسن سيرته في خلافته.

(٢) تاريخ الخلفاء ١١٤.

محمد بن فروخ ولكنه انهزم أمامه، وسار الصحصح إلى الموصل فقاتله عسكرها بباجرمي فقتَل منهم كثيراً ورجع إلى الجزيرة، فأرسل له الرشيد جيشاً لحقه بُدورَين فقتله وقضى عليه.

وفي سنة ١٧٥هـ خرج حصين الخارجي في خراسان، وهو من أهل أوق، وكان على سجستان عثمان بن عمارة، فأرسل له جيشاً، فلقيهم حصين وهزمهم، ثم أتى خراسان وقصد باذغيس، وبوشنج، وهراة، فكتب الرشيد الى الغطريف في طلبه، فسير الغطريف داود بن يزيد في اثني عشر ألفاً فهزمهم حصين، ثم قتل في خراسان سنة ١٧٧هـ.

وفي سنة ١٧٨هـ خرج الوليد بن طريف التغلبي بالجزيرة، ففتك بإبراهيم بن خازم ابن خُزَيْمة بنصيبين، ثمّ قويت شوكة الوليد، فدخل إلى أرمينية، وحصر خلاط عشرين يوماً، فافتدوا منه أنفسهم بثلاثين ألفاً.

ثمّ سار إلى أذربيجان، ثمّ إلى حُلْوان وأرض السواد، ثمّ عبر إلى غرب دجلة، وقصد مدينة بَلَدَ، فافتدوا منه بمائة ألف، وعاث في أرض الجزيرة فسيّر إليه الرشيدُ يَزيدَ بن مَزْيد ابن زائدة الشيبانيّ، وهو ابن أخي معن بن زائدة، فقال الوليد:

ستعلم يا يزيدُ إذا التقينا بشَط الزّابِ أيّ فَتى يَكُونَ

فجعل يزيد يخاتله ويماكره، وكانت البرامكة منحرفة عن يزيد فقالوا للرشيد: إنما يتجافَى يزيد عن الوليد للرحم، لأنّ كلاهما من وائل وهوّنوا أمر الوليد، فكتب إليه الرشيد كتاب مغضب، وقال له: لو وجّهت أحد الخدم لقام بأكثر ممّا تقوم به، ولكنّك مداهن، متعصّب، وأقسم بالله إن أخّرتَ مناجزته لأوجّهنّ إليك مَنْ يحمل رأسك، فلقي الوليد عشِيةَ خميس في شهر رمضان سنة تسع وسبعين، فيقال: جهد عطشاً حتى رمى بخاتمه في فيه، وجعل يلوكه ويقول: اللهمّ إنّها شدّة شديدة، فاسترها! وقال لأصحابه: فداكم أبي وأمّي إنما هي الخوارج، ولهم حملة، فاثبتوا، فإذا انقضت حملتهم فاحملوا عليهم فإنّهم إذا انهزموا لم يرجعوا.

فكان كما قال، حملوا عليهم حملة، فثبت يزيد ومَنْ معه من عشيرته، ثمّ حمل عليهم فانكشفوا، وأتبع يزيد الوليد بن طريف، فلحقه فاحتز رأسه، فقال بعض الشعراء:

وائـل بعـضُـهـم يُقَـتِّـلُ بَعـضـاً   لا يفُـلّ الحـديدَ إلّا الحـديد

فلمّا قُتـل الوليد صبحتْهم أخته ليلى بنت طريف مستعدة، عليها الدّرع فجعلت تحمل على النّاس، فعُرفت، فقال يزيد: دعوها! ثمّ خرج اليها فضرب بالرّمح قَطَاة فرسها، ثمّ قال: أعزبي عزّبَ الله عليك، فقد فضحت العشيرة، فاستحيت وانصرفت وهي تقول ترثي الوليد:

فإنْ يَكُ أرداهُ يَزيدُ بن مَزْيَدٍ   فيا رُبّ خَيلٍ فَضّـهـا وصُفُـوفِ
الا يا لَقَـوْمـي للنّـوائبِ والـرّدى   ودَهـرٍ مُلحٍ بالـكِـرام عَنـيفِ
وللبَـدرِ من بينِ الكواكبِ قد هوَى   ولـلشّمس همّتْ بعـدَه بكُسـوفِ
فيا شَجَـرَ الخـابـورِ ما لَكَ مُورقـاً   كأنّـك لم تجزَعْ على ابـنِ طَريفِ
فتى لا يُحبّ الـزّادَ إلّا منَ التّقى   وَلا المـالَ إلّا من قَنـاً وسُـيُوفِ
وَلا الخَـيلَ إلّا كل جرداء شطبـةٍ   وكـلّ حِصَـانٍ بالـيَدين عَرُوف
فلا تجْزعـا يا ابـنَيْ طريف فانـني   أرى المَـوْتَ نَزّالاً بكُـلّ شريفِ
فَقَـدْنـاكَ فُقـدانَ الـرّبيعِ فلَيْتَنَا   فَدَينـاك من دَهْمـائِـنـا بألـوفِ

وقال مُسلم بن الوليد في قتل الوليد ورفق يزيد في قتاله من قصيدة هذه الأبيات:

يَفـتَرّ عِنـدَ افْـتِرارِ الحَـرْبِ مُبْتَسِـماً   إذا تَغَـيّرَ وَجْـهُ الفـارِسِ البَـطَلِ
مُوفٍ على مُهَـجٍ في يومِ ذي رَهَـجٍ   كأنّـهُ أجَـلٌ يَسـعـى الى أمَـلِ
يَنَـالُ بالـرِّفقِ ما يَعيا الـرّجَـالُ بِهِ   كالمَـوْتِ مُستَعجلاً يأتي على مَهَـلِ[1]

«واعتمر الرشيد في شهر رمضان من سنة ١٧٩هـ شكراً لله على قتل الوليد بن طريف، وعاد إلى المدينة، فأقام بها إلى وقت الحج، وحج بالناس، ومشى من مكة إلى منى ثم إلى عرفات، وشهد المشاعر كلها ماشياً».[2]

وفي عام ١٧٩هـ خرج حمزة بن أترك السجستاني، وأخذ يتنقل من مكان إلى آخر

---

(١) الكامل في التاريخ لابن الأثير ـ حوادث سنة ١٧٨هـ.

(٢) الكامل لابن الأثير ج ٦ ص ١٤٧.

حتى اشتد أمره، ووصل أقصاه سنة ١٨٥هـ فعاث فساداً في أرض باذغيس بخراسان، فأكثر عيسى بن علي بن عيسى القتل في أصحابه ففر حمزة إلى كابل، وانتهى أثره.

وقد تم قتل خراشة الشيباني الخارجي سنة ١٨٠هـ، كما قتل أبوعمرو الشاري بالجزيرة سنة ١٨٤هـ.

وفي هذه السنة ١٨٥هـ قتل عبدالرحمن الأنباري أبان بن قحطبة الخارجي وذلك في مرج القلعة.

وفي سنة ١٩١هـ خرج ثروان بن سيف في سواد العراق، فقاتله طوق بن مالك فهزمه وقتل عامة أصحابه، ولكن ثروان فر هارباً، ولم يعد له من أثر يذكر.

٢ ـ الفتن المحلية:

قامت بعض الحركات الصغيرة، والثورات الضعيفة في عهد الرشيد، وأغلب هذه الحركات كان مبعثه العجب والغرور من قادتها، وقصدت بناء مجد للقائمين عليها، ولذلك كان القضاء عليها سهلاً، لأنها لم تكن مدعومة بمبادىء أخلاقية ومثل عليا، ولم تكن تهدف إلى القضاء على الخلافة، ولكنها ترغب في الاستقلال عنها.

ففي سنة ١٧٦هـ وقعت فتنة في الشام بين المضرية واليمانية، وقُتل من الطرفين عدد كبير، ودامت الحرب بين القبيلتين طويلاً، ثم تزعم أبوالهيذام رأس المضرية الحرب، وأكثر القتل حتى تمكن منه السندي بن سهل.تؤازره جنود موسى بن عيسى وذلك سنة ١٧٧هـ

وفي سنة ١٧٨هـ وثبت طائفة من قيس وقضاعة على عامل مصر اسحق بن سليمان فقاتلوه، فبعث الرشيد عامله على فلسطين هرثمة بن أعين فقاتلهم حتى أذعنوا بالطاعة، وأدوا ما عليهم من الخراج.

وأخمد هرثمة بن أعين كذلك فتنة قامت في أفريقيا بقيادة عبدويه الأنباري، وكان الفضل فيها ليحيى بن خالد البرمكي الذي كاتب عبدويه، ووعده الأمان إن استجاب له، وقد استسلم عبدويه، ووفى له يحيى بالأمان.

وفي سنة ١٨٠هـ ظهرت طائفة بجرجان يقال لها المحمرة، لبسوا الحمرة واتبعوا رجلاً

يقال له عمرو بن محمد العمركي، وكان ينسب إلى الزندقة، فبعث الرشيد يأمر بقتله فقُتل، وأطفأ الله شره.

وفي عام ١٨٣هـ خرجت الخزر على الناس من ثلمة أرمينية، فعاثوا في تلك البلاد فساداً، وسبوا من المسلمين وأهل الذمة نحوا من مائة ألف، وقتلوا بشراً كثيراً، فانهزم نائب أرمينية سعيد بن مسلم، فأرسل الرشيد إليهم خازم بن خزيمة ويزيد بن مزيد في جيوش كثيرة كثيفة، فأصلحوا ما فسد في تلك البلاد.

كما خرج في سنة ١٨٥ أبوالخصيب وهيب بن عبدالله النسائي، وكان خروجه ببلدة «نسا» واحتل أبيورد وطوس ونيسابور، ثم هُزم في مرو، وخرج إليه علي بن عيسى بن ماهان وأنهى أمره في عام ١٨٦هـ.

وثار رافع بن الليث بن نصر بن سيار بسمرقند من بلاد ما وراء النهر لسبب تافه، وهو الزواج من امرأة بحيلة[1] فلما رُفع الأمر إلى الرشيد، أمر واليه علي بن عيسى على خراسان أن يُفرق بينهما، وأن يجلد رافعاً، ويعزّره بالطواف به في أسواق سمرقند ليكون عبرة لغيره، فنفذ الوالي أمر الرشيد وسجن رافعا، فهرب من السجن، ولحق بعلي بن عيسى ببلخ، فطلب منه الأمان فلم يجبه علي إليه، وسمح له بالعودة إلى سمرقند، فعاد إليها، ووثب على عاملها سليمان بن حميد فقتله، فأرسل إليه علي بن عيسى ابنه عيسى ثم سار إليه بنفسه وذلك عام ١٩٠، وعظم أمر رافع عام ١٩١، وأطاعه أهل (نسف)، ودعمه الأتراك، وقتلوا عيسى بن علي. وولى الرشيد هرثمة بن أعين على خراسان، وعزل علي بن عيسى عنها. وقاتل هرثمة رافع، وتمكن هرثمة من دخول بخارى وأسر بشير بن الليث أخي رافع وأرسله إلى الرشيد وهو في (طوس) متوجه لقتال رافع فضرب عنق بشير. واستمر أمر رافع إلى ما بعد أيام الرشيد، حيث دخل في الطاعة في عهد الخليفة المأمون.

وفي عام ١٩٢هـ خرجت طائفة الخرمية بالجبل وبلاد أذربيجان، فوجه إليهم الرشيد عبدالله بن مالك بن الهيثم الخزاعي في عشرة آلاف فارس، فقتل منهم خلقاً وأسر وسبى ذراريهم، وقدم بهم بغداد، فأمره الرشيد بقتل الرجال منهم، وببيع الذرية.

---

(١) هي زوجة يحيى بن الأشعث، غاب عنها ببغداد، فطمع بها رافع، ودلها أن تشرك بالله، وتكشف شعرها بين شهود، فتطلق من زوجها، ففعلت ثم تزوجها رافع طمعاً في مالها وجمالها.

الفصل الثالث

ثالثاً : استئصال البرامكة

شهد عصر الرشيد انقلاب الخليفة هارون الرشيد على البرامكة، والقضاء عليهم، ومحاولة استئصالهم من جذورهم، وهم الذين وقفوا إلى جانبه وآزروه وعاونوه، وقاموا بالقضاء على الثورات التي خرجت عليه، ولكن الرشيد نقم عليهم أموراً أثارته ضدهم، فتنكر لهم وأهلكهم.

أصل البرامكة :

ينتسب البرامكة إلى خالد بن برمك بن جاماس بن بشتاسف، وهم مجوس من أشراف الفرس، اشتهر منهم برمك بخدمة النوبهار في مدينة بلخ، حيث يقوم بخدمة النار المقدسة، وإلى برمك هذا انتسبت الأسرة البرمكية، ويبدو أن برمك قد أسلم في خلافة عبدالملك بن مروان.

ويذكر ابن كثير أن قتيبة بن مسلم سبى وأسر من جملة الغنائم زوجة برمك ووالدة خالد البرمكي، عندما فتح بلاد مرو وخراسان سنة ٨٦هـ، وقد أعطى قتيبة أخاه عبدالله زوجة برمك المذكورة فنكحها فحملت منه، ثم منَّ قتيبة على الأسرى وأمر بردهم، فرجعت زوجة برمك إليه وفي بطنها ولد لعبدالله بن مسلم، فولدته فتربى الولد في ديارهم إلى أن أسلموا أيام دولة بني العباس فردوه معهم إلى أهله[1]

---

(١) البداية والنهاية ج ٩ ص ٦٥ وقد تكون هذه القصة من بنات الخيال.

جاء في دائرة المعارف الإسلامية: أن برمك ليس اسما لجد البرامكة، وإنما هو لقب يطلق على الموبذان في النوبهار، وهو منصب وراثي لهذه الأسرة في بلخ[1] يؤيد ذلك ما ذكره ابن الفقيه الهمذاني، بأنه لقب لسادن المعبد، وإلى مثله ذهب المسعودي في مروج الذهب.[2]

وقد أسلم خالد بن برمك، وكان أحد دعاة الدولة العباسية والعاملين في بنائها، وقد توجه سنة ١٣٠هـ بتوجيه من أبي مسلم الخراساني لقتال نصر بن سيار في نيسابور، كما سار بجيشه لفتح دير قنى، وتم تعيينه وزيراً مالياً للقائد قحطبة بن شبيب في حروبه ضد أعداء العباسيين بخراسان، يشرف على الشؤون المالية وتقسيم الغنائم بين الجند.

ولما دخل خالد لمبايعة السفاح ظنه من العرب لفصاحته، فأقره على الغنائم، وجعل إليه ديوان الخراج وديوان الجند، وفي عهد السفاح تولى إمارة الموصل سنة ١٥٨هـ، ويقال إنه أشار على المنصور ببناء بغداد في موضعها، وقد أعجب المنصور رأيه، فجعل إليه الإشراف على العمال والصناع لإتمام البناء.

وفي عهد المنصور أيضا تولى طبرستان والري ودنباوند، ثم عزله المنصور لترتب الديون عليه لبيت المال، ولكن المهدي رضي عنه وولاه إمارة فارس، وجعله مع ابنه هارون سنة ١٦٣هـ لغزو بلاد الروم، وكان منه مثل الوزير، كما سار معه ابنه يحيى وكانت إليه النفقات، ووقعت وفاته بين ١٦٥هـ أو ١٦٦هـ على اختلاف في الروايات.

وصف المسعودي خالد بن برمك فقال: «لم يبلغ مبلغ خالد بن برمك أحد من ولده في جودة رأيه وبأسه وجميع خُلاله، لا يحيى في رأيه ووفور عقله ولا الفضل في جوده وبراعته ولا جعفر بن يحيى في كتابته وفصاحته، ولا محمد بن يحيى في سروره وبعد همته، ولا موسى ابن يحيى في شجاعته وبأسه».[3]

وقد ازداد نفوذ البرامكة في حياة خالد بن برمك، ونما هذا النفوذ وقوي أثره عندما

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية ج ٣ ص ٤٩٢ - ٤٩٨.

(٢) مروج الذهب ج١ ص ٣٧٤.

(٣) مروج الذهب ح ٣ ص ٣٩٨.

قويت الصلة بين أسرة يحيى بن خالد البرمكي وبين أسرة المهدي الذي كان ولياً للعهد ووالياً من قبـل والده على بلاد الري، حيث قرّب المهدي يحيى بن خالد إليه، ودفع إليه ولده هارون الرشيد ترضعه نساؤه مع أطفاله، فلما شب الرشيد وكبر سنه صار يناديه يا أبي، وظل يحيى بأمر من المهدي يرعى ولده ويشرف على تربيته، ويخرج معه في غزواته، ويلازمه في جميع شأنه.

وظلت صلة يحيى وأسرته قوية متينة بالرشيد وأمه الخيزران، ووالده المهدي الذي ولاه خراسان، واختاره سنة ١٦٣هـ ليشرف على النفقات في جيش هارون إلى غزو الروم، وكان يساهم برأيه ومشورته في تحركات الرشيد العسكرية.

ولما ولى المهدي ابنه هارون المغرب سنة ١٦٤هـ أمر الرشيد يحيى بن خالد أن يتولى ذلك، فكانت إليه أعماله ودواوينه، وظل على رعايته لهارون ووقوفه بجانبه حتى مات المهدي.

ولقد اشتد الخلاف واحتدم الصدام بين الهادي ويحيى بن برمك، فالهادي يريد من الرشيد أن يتنازل عن ولاية العهد من بعده، ويحيى بن خالد يثبت الرشيد ويحرضه على عدم التنازل عن ولاية العهد، وأمام إصرار يحيى على مؤازرة هارون، واتخاذه الأسباب الكفيلة بمنعه من التنازل، قام الهادي بحبس يحيى وتهديده بالقتل، حتى كاد هذا التهديد يصل إلى التنفيذ، غير أن الموت عاجل الهادي، ومنع وقوع الموت بيحيى.

ولـما مات الهـادي يقال: إن الخيزران أخرجت يحيى من السجن، وقام هو بدوره بالذهاب إلى هارون وأعلن أمامه الخبر، وهنأه بالخلافة، ويقال: إن الرشيد هو الذي أخرج يحيى من السجن، وأي الروايتين صحت فإنها تدل على متانة الصلة بين الرشيد ويحيى البرمكي.

وكان أول عمل قام به الرشيد في خلافته أن استوزر يحيى بن خالد، وفوضه في أمور الدولة، وأطلق يده في تصريف أمورها، قائلاً له:

«لقد قلدتك أمر الرعية فأحكم بها بما ترى، واعزل من رأيت، واستعمل من رأيت، ودفع إليه خاتمه» وظل البرمكي في هذا المنصب أو ما يعادله حتى تغير عليه الرشيد، وقد

بدأ هذا التغير بعدما توفيت الخيزران فبدأ بعض التغير - يهم من الرشيد، ولكن حكمة يحيى وحسن تدبيره كانا يقضيان على كل جفاء يحس به من الرشيد، فتعود العلاقة كما كانت عليه من قبل.

وقد وصف المسعودي يحيى بن خالد البرمكي فقال: «كان ذا علم ومعرفة وبحث، وله مجلس يجتمع فيه أهل الكلام من أهل الإسلام، وغيرهم من أهل الآراء والنحل».[1]

وصفهم الجاحظ نقلاً عن سهل بن هارون، فقال: «والله إن كانوا سجعوا الخطب، وقرضوا القريض لعيال على يحيى بن خالد بن برمك وجعفر بن يحيى، ولو كان كلام يتصور درا، أو يحيله المنطق السري جوهرا، لكان كلامهما والمنتقى من لفظهما؛ ولقد كانا مع هذا عند كلام الرشيد وبديهته وتوقيعاته في كتبه - فدمين[2] عييّين، وجاهلين أمّيينْ؛ ولقد عُمِّرْتُ معهم وأدركت طبقة المتكلمين في أيامهم؛ وهم يرون أن البلاغة لم تستكمل إلا فيهم، ولم تكن مقصورة إلا عليهم، ولا انقادت إلا لهم؛ وأنهم محض الأيام، ولباب[3] الكرام وملح الأنـام، عِتْق[4] منظر وجودةَ مخبر، وجزالة منطق، وسهولة لفظ، ونزاهة أنفس، واكتمال خصال، حتى لو فاخرت الدنيا بقليل أيامهم والمأثور من خصالهم بكثير أيام سواهم من لدن آدم أبيهم إلى النفخ في الصور وانبعاث أهل القبور - حاشا أنبياء الله المكرمين، وأهل وحيه المرسلين - لما باهت إلا بهم، ولا عوّلت إلا عليهم، ولقد كانوا مع تهذيب أخلاقهم، وكريم أعراقهم، وسعة آفاقهم، ورونق سياقهم، ومعسول مذاقهم، وبهاء إشراقهم، ونقاوة أعراضهم، وتهذيب أغراضهم، واكتمال الخير فيهم - في جنب محاسن الرشيد كالنقطة في البحر، والخردلة في المهمه[5] القفر».[6]

---

(١) مروج الذهب ج ٣ ص ٣٧٠.

(٢) رجل فدم: ثقيل الفهم: عيي.

(٣) اللباب: خالص كل شيء.

(٤) العتق: النجابة.

(٥) المهمه: المفازة البعيدة والبلد المقفر.

(٦) العقد الفريد ج ٥ ص ٣١٧.

وكـان ليحيى أربعـة من الأولاد، اشتهـروا جميعاً بالنجابة والسيادة والكرم، وهم الفضل وجعفر ومحمد وموسى، يقول فيهم أبوالغول الشاعر:

أولاد يحيى بن خالـد وهـم أربـعـة سيد ومـتـبـوع
الخـير فيهـم إذا سألـت بهم مفـرق فيهـم ومجـمـوع[1]

وكان أكبر أولاد يحيى هو الفضل، وقد رضع مع الرشيد من الخيزران، كما رضع الرشيد من أم الفضل، فلما كبر وشب كان ينوب عن والده في عظائم الأمور، كما عهد اليه الخليفة برعاية فلذة كبده محمدٍ الأمين، وكان يدفعه إلى المهمات الصعبة لثقته به، فقد ندبه الرشيد سنة ١٧٦هـ للقضاء على ثورة يحيى بن عبدالله بن حسن بن حسن بن علي رضي الله عنهم، في بلاد الديلم، وولاه بلاد الري وجرجان وطبرستان وقومس، وكان من حسن سياسته أن كاتب يحيى الطالبي وأخذ له الأمان من الرشيد، فحقن دماء المسلمين، واستطاع استقدام يحيى إلى الـرشيد دون إراقـة دم، ففـرح الرشيد بذلك، وأكبر للفضل صنيعه، فمدحه الشعراء، وأثنى عليه الخليفة وولاه خراسان سنة ١٧٨هـ فأحسن السيرة، وفتح البلدان، ومنها كابل وما وراء النهر، وقهر ملك الترك، وبنى الرباطات والمساجد، وأشعل المصابيح في المساجد في رمضان، وزاد رواتب الجند والقواد، ووصل الزوار والكتاب، ولما عاد الى بغداد تلقاه الخليفة بالإكرام والتقدير، وكان بصحبته عشرون ألفاً من الجند عرفوا فيما بعد بالكرنبية، وهم جزء من الجند الذين اتخذهم الفضل بخراسان وسماهم العباسية ويقدر عددهم بنصف مليون جنـدي، وجعل ولاءهم له، وبذلك زاد نفوذ البرامكة «وقد كان الفضل أكرم من أخيه جعفر، وكان فيه كبر شديد، وكان أكبر رتبة عند الرشيد، مات محبوسا سنة ١٩٢ هـ»[2].

وكـان ثاني أولاد يحيى هو جعفر الذي اشتهر بملازمة الرشيد ومنادمته، وقد نقل الرشيد ديوان الخاتم من أخيه الفضل اليه، وقد ولاه الرشيد مصر سنة ١٧٦هـ فأناب هو من قبله عمر بن مهران، كما ندبه الرشيد سنة ١٨٠هـ إلى الشام لتهدئة العصبية التي هاجت

---

(١) مروج الذهب ج ٣ ص ٣٩٨.

(٢) البداية والنهاية ح ١٠ ص ٢١٩

بين اليمنية والنزارية، فأصلح بينهم، وأحسن حالهم ثم عاد إلى بغداد، فنال من الرشيد الرضا والمكانة، ونال من الشعراء المدح والثناء.

وقد ولاه الرشيد بلاد خراسان ثم صيره على الحرس، ودفع اليه ولده المأمون لرعايته والعناية به، وهو الذي أشار على الرشيد بتولية المأمون بعد أخيه.

اشتهر بالفصاحة والبلاغة وحسن التوقيع، جمع له الجاحظ في البيان والتبيين مجموعة من تواقيعه البليغة، واشتهر كذلك بكثرة العطايا، والسخاء، والكرم الحاتمي، وقد قرّب اليه الكتاب والأدباء وأهل العلم.

كان الرشيد يسميه «أخي» ويدخله معه في ثوبه، وقلده بريد الآفاق ودور ضرب العملات والطرز في جميع الكور «البلاد». [١]

قال الخطيب: كان جعفر عند الرشيد بحالة لم يشاركه فيها أحد، وجوده أشهر من أن يذكر، وكان من ذوي اللسن والبلاغة، يقال: «إنه وقّع ليلة بحضرة الرشيد زيادة على ألف توقيع، ونظر في جميعها، فلم يخرج شيئاً منها عن موجب الفقه، كان أبوه قد ضمه الى القاضي أبي يوسف حتى فقه» [٢] وقد أخذ منه الرشيد الخاتم سنة ١٨٠هـ وأعطاه إلى أبيه يحيى بن خالد البرمكي، قتله الرشيد غاضباً عليه وعلق جثته على الجسر، وعلق أجزاء منها في أماكن أخرى، ثم أحرقت ودفنت. مات سنة ١٨٧ بدير يقال له: «العُمْر».

أما موسى بن يحيى فلم ينل من الشهرة والمكانة ما كان لأخويه، وكان أشجعهم وأشدهم بأسا، فقد أسندت اليه ولاية الشام سنة ١٧٦هـ، فأصلح بين أهلها، واستقام به أمرها، وقد اتهمه علي بن عيسى بن ماهان بمحاولة الخروج على الخليفة، واضطراب خراسان بأمره وبمكاتبته، فلما أتى الرشيد حبسه ثم ضمنه أبوه وتكلمت به أمه، فأخرج، ثم تكلم مع الرشيد وتبرأ مما نسب اليه فرضي الرشيد عنه وقربه.

أما محمد بن يحيى فلم ينل شهرة أخوته، ويبدو أنه لم يدخل مداخل أهله، وكان سرياً بعيد الهمة.

---

(١) الجهشياري ص ٢٠٤.

(٢) سير أعلام النبلاء ج ٩ ص ٦١.

وبالجملة: فقد تبوأ البرامكة منزلة سياسية عالية في ظل الخلافة العباسية، وقد زادت هذه المنزلة رفعة وعلواً في عهد الخليفة هارون الرشيد، فكان يحيى يمضي في الدولة ما يريد، ويثبت ما يريد، وقد عهد اليه الرشيد بأمور الخلافة كلها، إضافة إلى الإشراف على شؤون الرشيد العائلية، ورعاية مصالح بيت الخلافة نفسه، وقد حظي ابنه جعفر بمنزلة من الرشيد يحسده عليها آل الرشيد أنفسهم، فقد تقلب في عدة مناصب رفيعة، فكان سفير الرشيد إلى بلاد كثيرة يصلح بين أهلها، وكان وزيره، وكان والياً على مصر، وكان نديم الرشيد وصاحبه في خلواته، وأنيسه في وحشته، وكان الفضل له مثل ذلك من المكانة، إضافة الى موسى الأخ الثالث لهما، حيث تولى قيادة جيوش الرشيد مرات عديدة، وقد كانت الحجوبية إلى محمد بن خالد بن برمك شقيق يحيى، ولذلك كانت الرحال تحط عند أبواب البرامكة لقضاء الحوائج، وإنفاذ أمور الخلافة، وقضاء المظالم، وهذا ما حدا بشاعر أن يقول:

ليهــن الـرشيـد خلافتــه وأمــر الــذي قــد وهى عقــده
أضــاف الى بيعــة بيعــةً فقــام بهــا جعـفــر وحــدَه
بنــو بـرمـك أسـسـوا ملكـه وشــدوا لــوارثــه عهــدَه

وقد كانت لهم في عالم الأدب منزلة مثل التي لهم في عالم السياسة، وقد عُرفوا بالكرم واشتهروا بالسخاء، ونالوا مكانة اجتماعية راقية دونها أبناء العباسيين، وقواد الجيوش، وأمراء بني هاشم.

أسباب الإيقاع بالبرامكة:

ذكر المؤرخون أسباباً عدة أدت إلى إيقاع الرشيد بالبرامكة، وسوف نعرض هذه الأسباب مع التعليق على ما لا نراه صواباً.

السبب الأول: من أعظم الأسباب التي أدت بالبرامكة إلى الهلاك «استبدادهم على الدولة، واحتجافهم أموال الجباية، حتى كان الرشيد يطلب اليسير من المال فلا يصل إليه،

فغلبوه على أمره، وشاركوه في سلطانه، ولم يكن له معهم تصرف في أمور ملكه، فعظمت آثارهم وبعد صيتهم، وعمروا مراتب الدولة وخططها بالرؤساء من ولدهم وصنائعهم، واحتازوها عمن سواهم، من وزارة وكتابة وقيادة وحجابة وسيف وقلم، يقال: إنه كان بدار الرشيد من ولد يحيى بن خالد خمسة وعشرون رئيساً من بين صاحب سيف وصاحب قلم، زاحموا فيها أهل الدولة بالمناكب ودفعوهم عنها بالراح، لمكان أبيهم يحيى من كفالة هارون ولي عهد وخليفة، حتى شب في حجره ودرج من عشه، وغلب على أمره، وكان يدعوه يا أبتِ! فتوجه الإيثار من السلطان إليهم، وعظمت الدالة منهم، وانبسط الجاه عندهم، وانصرفت نحوهم الوجوه، وخضعت لهم الرقاب، وقصرت عليهم الآمال، وتخطت إليهم من أقصى التخوم هدايا الملوك وتحف الأمراء، وتسربت إلى خزائنهم في سبيل التزلف والاستمالة أموال الجباية، وأفاضوا في رجال الشيعة وعظماء القرابة العطاء، وطوقوهم المنن وكسبوا من بيوتات الأشراف المعدم وفكوا العاني، ومُدحوا بما لم يُمدح به خليفتهم، وأسنوا لعفاتهم الجوائز والصلات، واستولوا على القرى والضياع من الضواحي والأمصار في سائر الممالك، حتى أسفوا البطانة وأحقدوا الخاصة وأغصوا أهل الولاية، فكُشفت لهم وجوه المنافسة والحسد، ودبت إلى مهادهم الوثير من الدولة عقارب السعاية، حتى لقد كان بنو قحطبة أخوال جعفر من أعظم الساعين عليهم، لم تعطفهم لما وقر في نفوسهم من الحسد عواطف الرحم، ولا وزعتهم أواصر القرابة، وقارن ذلك عند مخدومهم نواشىء الغَيرة والاستنكاف من الحجر والأنفة، وكان الحقود التي بعثتها منهم صغائر الدالة وانتهى بها الإصرار على شأنهم إلى كبائر المخالفة.»[1]

هذا الرأي ساقه ابن خلدون وذكره المسعودي كذلك في مروج الذهب،[2] وهو كما نرى من أهم الأسباب، يؤيد ذلك ما رواه ابن كثير قال: «ويقال: إنما قتلهم الرشيد لأنه كان لا يمر ببلد ولا إقليم ولا قرية ولا مزرعة ولا بستان إلا قيل هذا لجعفر».[3]

«وقد بنى جعفر داراً كلفته عشرين ألف درهم، فرفع ذلك إلى الرشيد وقيل: هذه

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ١٥ - ١٦.

(٢) مروج الذهب للمسعودي ح ٣ ص ٣٦٨

(٣) البداية والنهاية ح ١٠ ص ١٩٦.

غرامته على دار، فما ظنك بنفقاته وصلاته وغير ذلك»[1] فاستعظم الرشيد ذلك.

وقد بلغ من جرأة يحيى أن يمنع زبيدة أم جعفر زوج الرشيد من الخدم، ويقفل عليها الأبواب ويذهب بالمفاتيح إلى بيته، يقول المسعودي: «وغلب هو «جعفر» وأبوه وإخوته على أمر المملكة، وكانت زبيدة أم جعفر زوج الرشيد بالمنزلة التي لا يتقدمها أحد من نظرائها، وكان يحيى بن خالد لا يزال يتفقد أمر حرم الرشيد، ويمنعهن من خدمة الخدم، فشكت زبيدة إلى الرشيد، فقال: ليحيى بن خالد: يا أبتِ! ما بال أم جعفر تشكوك؟ فقال: يا أمير المؤمنين، أمتهم أنا في حرمك وتدبير قصرك عندك؟ فقال: لا والله، فقال: لا تقبل قولها!!!! قال الرشيد: فلست أعاودك، فازداد يحيى لها منعاً، وعليها في ذلك غلظة، وكان يأمر بقفل أبواب الحرم بالليل، ويمضي بالمفاتيح إلى منزله، فبلغ ذلك من أم جعفر كل مبلغ، فدخلت ذات يوم على الرشيد فقالت: يا أمير المؤمنين، ما يحمل يحيى على ما لا يزال يفعله من منعه إياي من خدمي ووضعه إياي في غير موضعي؟»!![2] لقد وصل به الأمر أن يتحكم وبعنجهية كبيرة في زوج أمير المؤمنين.

وما قاله الشعراء في البرامكة ينبئك على أنهم كانوا أصحاب العطايا، وأرباب السخاء، وإليهم المنتهى في الكرم والرجاء، وكل ذلك من أموال الدولة، وفي ظل سلطان الرشيد.

يقول الرقاشي:

وقل للمنايا: قد ظفرت بجعفر ... ولن تظفري من بعده بمُسَوَّدِ
وقل للعطايا بعد فضل تعطلي ... وقل للرزايا كل يوم تجدّدي
كانت يداً للجود حتى غلّها ... قدر فأضحى الجود مغلول اليدِ

وأما أخبار عطاياهم وكرمهم فمما لا ينكره منكر، ومما يصعب وصفه أو ذكره في هذا الكتاب، ومن أراد المزيد فليرجع إلى كتب التأريخ والسير ففيها المفيد، وما ذلك إلا دليلٌ

(١) الكامل في التاريخ لابن الاثير ج ٦ ص ١٧٦

(٢) مروج الذهب ج ٣ ص ٣٧٧

واضحٌ على احتجابهم الأموال دون الخليفة والأمراء، وتصرفهم في أموال الدولة بها يشاؤون وكما يحبون.

أما البذخ والترف فقد كانوا في قمتها، نكتفي بذكر ما قالته والدة جعفر بعد نكبتهم: «لقد أتى علي عيد مثل هذا وأنا على رأسي أربعمائة وصيفة، وإني لأعد ابني عاقاً لي»[1] إنها تعد ابنها عاقاً لها لأن على رأسها أربعمائة جارية فقط!! فكم تريد أم جعفر من الجواري حتى لا تعد ابنها عاقاً لها؟؟؟

وقد كانت المطايا والرواحل من أصحاب الحاجات والمظالم تحط رحالها في ديارهم، وتنتظر على أبوابهم، وتركت باب الخليفة إليهم، فاستبدوا بالأمر، وقاموا به دون الخليفة يؤيد ذلك ما رواه ابن طباطبا: «عن بختيشوع الطبيب قال: دخلت يوماً على الرشيد وهو جالس في قصر الخلد. وكان البرامكة يسكنون بحذائه من الجانب الآخر، وبينهم وبينه عرض دجلة، فنظر الرشيد فرأى اعتراك الخيول وازدحام الناس على باب يحيى بن خالد فقال: جزى الله يحيى خيراً تصدى للأمور وأراحني من الكد ووفر أوقاتي على اللذة؛ ثم دخلتُ عليه بعد أوقات وقد شرع يتغير عليهم، فنظر فرأى الخيول كما رآها تلك المرة فقال: استبد يحيى بالأمور دوني، فالخلافة على الحقيقة له، وليس لي منها إلا اسمها، فقلت: إنه سينكبهم فنكبهم عقيب ذلك»[2].

ويذكر الجهشياري: «أن البرامكة قد فارقوا الرشيد على شيء يطلقونه له من المال للحوادث، سوى نفقاته وما يحتاج إليه هو وعياله، وأنه طلبت من جعفر عشرة آلاف درهم فاعتذر له» ويذكر كذلك: «أن الرشيد قال ليحيى: «طالبت منك ألف ألف درهم، وكان قد ورد من مال فارس ستة ملايين درهم فاعتذرت بأنك لا تستطيع الصرف من هذا المال، فاحتلت أنا بقرض تولاه يونس، وأخذت أنت منها ألف الف وخمسمائة ألف درهم فوزعتها في أعمالك».

ويروى أن بختيشوع الطبيب اشترى داراً فلم يتمكن من سداد ثمنها، فأعطاه يحيى

(١) مروج الذهب ج ٣ ص ٣٨٣.
(٢) الفخري ص ١٩٠.

وجعفر والفضل بعض المال، فلما ذهب إلى الرشيد عجز الرشيد عن الدفع، وذهب إلى يحيى وقال له: «يا أبتِ أخبرني جبرئيل بما كان، فما حالي أنا من بين ولدك؟ فأمر لي يحيى بخمسمائة ألف درهم هدية من الرشيد»[1]

فهذا الخليفة يعجز عن قليل من المال، ويمتنع عليه وزيره يحيى فلا يدفع له من أموال الجباية ما يقوم بحقه وحق أسرته، ويبيح يحيى لنفسه ولأولاده بيوت المال يأخذون منها ما يريدون يوزعونها على الأتباع.[2]

السبب الثاني: من الأسباب التي نراها أدت بهم إلى الهلاك والدمار تعاطفهم مع العلويين أعـداء الدولة العباسية، بل ألد خصومها وأخطرهم عليها، وقد أطلق جعفر البرمكي يحيى بن عبدالله بن حسن بعد أن حبسه الرشيد في دار جعفر، ولذلك جزم كثير من المؤرخين: أن نكبة البرامكة إنما كانت بسبب ذلك.

ذكر أبو محمد اليزيدي ـ وكان فيما قيل من أعلم الناس بأخبار القوم ـ قال: من قال إن الرشيد قتل جعفر بن يحيى بغير سبب يحيى بن عبدالله بن حسن فلا تصدقه؛ وذلك أن الرشيد دفع يحيى إلى جعفر فحبسه، ثم دعا به ليلة من الليالي فسأله عن شيء من أمره، فأجابه، إلى أن قال: اتق الله في أمري، ولا تتعرض أن يكون خصمك غداً محمد ﷺ، فوالله ما أحدثتُ حدثاً، ولا أويت محدثاً. فرق عليه، وقال له: اذهب حيث شئت من بلاد الله. قال: وكيف أذهب ولا آمن أن أوخذ بعد قليل فأُردَّ إليك أو إلى غيرك! فوجه معه مَنْ أدّاه إلى مأمنه. وبلغ الخبرُ الفضلَ بن الربيع، من عين كانت له عليه من خاص خدمه، فعـلا الأمر، فوجده حقاً، وانكشف عنده؛ فدخل على الرشيد فأخبره، فأراه أنه لا يعبأ بخبره. وقال: وما أنت وهذا لا أم لك! فلعلّ ذلك عن أمري؛ فانكسر الفضل! وجاءه جعفر فدعا بالغداء فأكلا، وجعل يلقمه ويحادثه، إلى أن كان آخر ما دار بينهما أن قال: ما فعـل يحيى بن عبـدالله؟ قال: بحاله يا أمير المؤمنين في الحبس الضيق والأكبال. قال: بحياتي! فأحجم جعفر ـ وكان من أدق الخلق ذهناً، وأصحّهم فكراً ـ وهجس في نفسه أنه

---

(١) نظام الوزارة في العصر العباسي الأول ص ١١١.

(٢) نكرر الرد على من زعم: أن الرشيد عاش في بذخ وإسراف فنقول: هذا حال الرشيد مع البرامكة، فمن أين له المال ليسرف به أو يبذخ منه.

قد علم بشيء من أمره، فقال: لا وحياتك يا سيدي ولكن أطلقته وعلمتُ أنه لا حياة به ولا مكروه عنده. قال: نِعْمَ ما فعلت؛ ما عدوت ما كان في نفسي. فلما خرج أتبعه بصره حتى كاد أن يتوارى عن وجهه، ثم قال: قتلني الله بسيف الهدى على عمل الضلالة إن لم أقتلك! فكان من أمره ما كان»[1].

ولم يكتفِ جعفر بإطلاق يحيى بل زوده بكتاب أمان موقع منه، يأمن به على نفسه ومن معه من أصحابه إذا عُرِض له، فقد حدّث إدريس بن بدر، قال: عرض رجل للرشيد وهو يناظر يحيى، فقال: يا أمير المؤمنين، نصيحة؛ فادعُ بي إليك، فقال لهرثمة: خذ الرجل إليك. وسلْه عن نصيحته هذه، فسأله، فأبى أن يخبره وقال: هي سر من أسرار الخليفة، فأخبر هرثمة الرشيد بقوله، قال: فقل له لا يبرح الباب حتى أفرغ له، قال: فلما كان في الهاجرة انصرف من كان عنده، ودعا به، فقال: أخْلني، فالتفت هارون إلى بنيه، فقال: انصرفوا يا فتيان، فوثبوا وبقي خاقان وحسين على رأسه، فنظر إليهما الرجل، فقال الرشيد: تنحيا عني، ففعلا، ثم أقبل على الرجل، فقال: هات ما عندك، فقال: على أن تؤمّني! قال: على أن أؤمنك وأحسن إليك. قال: كنت بحلوان في خان من خاناتها، فإذا أنا بيحيى ابن عبدالله في دراعة صوف غليظة وكساء صوف أخضر غليظ، وإذا معه جماعة ينزلون إذا نزل، ويرحلون إذا رحل، ويكونون منه بصدد يوهمون من رآهم أنهم لا يعرفونه وهم من أعوانه، ومع كل واحد منهم منشور يأمن به إن عُرِض له. قال: أوتعرف يحيى بن عبدالله؟ قال: أعرفه قديماً، وذلك الذي حقق معرفتي به بالأمس، قال: فصفه لي، قال: مربوع أسمر رقيق السمرة، أجلح، حسن العينين، عظيم البطن. قال: صدقت؛ هو ذاك. قال: فما سمعته يقول؟ قال: ما سمعته يقول شيئاً؛ غير أني رأيته يصلي، ورأيت غلاماً من غلمانه أعرفه قديماً جالساً على باب الخان، فلما فرغ من صلاته أتاه بثوب غسيل، فألقاه في عنقه ونزع جبة الصوف، فلما كان بعد الزوال صلّى صلاة ظننتُها العصر، وأنا أرمقه؛ أطال في الأُولَيَيْن، وخفف في الأُخريَيْن، فقال: لله أبوك! لجاد ما حفظت عليه، نعم تلك صلاة العصر؛ وذاك وقتها عند القوم، أحسن الله جزاءك، وشكر سعيك! فمن أنْت؟ قال: أنا رجل من أعقاب أبناء هذه الدولة، وأصلي من مرو، ومولدي مدينة السلام، قال: فمنزلك

(١) تاريخ الطبري ج ٨ ص ٢٨٩.

بها؟ قال: نعم؛ فأطرق ملياً، ثم قال: كيف احتمالُك لمكروه تُمتحن به في طاعتي! قال: أبلغُ من ذلك حيث أحب أمير المؤمنين، قال: كن بمكانك حتى أرجعَ. فطفَر في حجرة[1] كانت خلف ظهره، فأخرج كيساً فيه ألفا دينار، فقال: خذ هذه، ودعني وما أدبر فيك، فأخذها، وضم عليها ثيابه، ثم قال: يا غلام، فأجابه خاقان وحسين، فقال: اصفعا ابن اللخناء، فصفَعاه نحواً من مائة صَفْعة، ثم قال: أخرجاه إلى من بقيَ في الدار، وعمامتُه في عنقه، وقولا: هذا جزاء من يسعى ببساطنة أمير المؤمنين وأوليائه! ففعلا ذلك؛ وتحدثوا بخبره؛ ولم يعلم بحال الرجل أحد، ولا بما كان ألقى إلى الرشيد، حتى كان من أمر البرامكة ما كان»[2].

«وكان يحيى بن خالد قد خدم يحيى بن عبدالله بن حسن بنفسه وولده، وخدمه آل برمك خدمة عظيمة»[2] وهذه الخدمة إنما تدل على الحب والولاء ليحيى العلوي.

والجدير بالذكر أن الشيعة تعدّ آل برمك وراء نكبات العلويين في العصر العباسي، ويبدو لنا أن بعضهم ـ كالفضل مثلاً ـ ميالاً إلى العلويين، وقد بدا من جعفر مثله، أمّا يحيى فقد اتهمه الأصفهاني في مقاتل الطالبيين: بأنه اتهم الكاظم بحيازة الأموال والدعوى لنفسه، وتحصيل العشر وغير ذلك، فكان أن حُبس بسبب ذلك.

ويُنسب إلى الفضل بن يحيى أنه لما ولي المشرق «بلاد خراسان» وبلغه مكان يحيى بن عبدالله، كتب إليه يقول: «إني أحب أن أحدث بك عهداً، وأخشى أن تبتلى بي وابتلى بك، فكاتبْ صاحب الديلم فإني قد كاتبته لك لتدخل في بلاده فتمتنع به»[3].

إنه كتب إلى صاحب الديلم ليحمي يحيى الطالبي من الرشيد، وأخبر يحيى بذلك، لتقوى شوكته، ويحمي نفسه ومن معه، ولعل ذلك يفسر السر في ملاينته ومكاتبته ليحيى. عندما عهد إليه الرشيد بالقضاء عليه، فظل يكاتبه حتى أقنعه بالعودة إلى الرشيد، وقد جاء له بكتاب أمان من الرشيد له ولأصحابه.

---

(١) تاريخ الطبري ج٨ ص ٢٩٠.

(٢) البداية والنهاية ج ١٠ ص ١٧٢.

(٣) مقاتل الطالبين لأبي فرج الاصفهاني ص ٤٦٧

السبب الثالث: ومن الأسباب المهمة لهلاكهم اشتطاطهم في الدالة على الخليفة، والجرأة على الأمراء، وصناعتهم في الدولة بما يريدون، وإمضاء إرادتهم حتى في بيت الخلافة ونساء الرشيد، ذكر ابن عبد ربه والذهبي:

«عن ابراهيم بن المهدي قال: قال لي جعفر بن يحيى يوما: إنني استأذنت أمير المؤمنين في الحجامة، وأردت أن أخلو بنفسي وأفر من أشغال الناس وأتوحّد، فهل أنت مساعدي؟ قلت: جعلني الله فداك، أنا أسعد بمساعدتك وآنس بمخالاتك. فقال: بكّر إليّ بكور الغراب. قال: فأتيت عند الفجر الثاني فوجدت الشمعة بين يديه وهو قاعد ينتظرني للميعاد. قال: فصلينا ثم أفضنا في الحديث، حتى أتى وقتُ الحجامة، فأتى الحجّام، فحجمَنا في ساعة واحدة، ثم قُدِّم إلينا الطعام فطعِمْنا فلما غسلنا أيدينا خُلع علينا ثياب المنادمة وضمخنا بالخَلوق، وظللنا بأسرِّ يوم مَرَّ بنا؛ ثم إنه تذكر حاجة، فدعا الحاجب فقال له: إذا جاء عبدالملك القهرمان فأذن له، فنسي الحاجب وجاء عبدالملك بن صالح الهاشمي على جلالته وسنّه وقدره وأدبه، فأذن له الحاجب، فما راعنا إلا طلعة عبدالملك بن صالح، فتغيَّر لذلك وجه جعفر بن يحيى، وتنغّص عليه ما كان فيه؛ فلما نظر إليه عبدالملك على تلك الحالة، دعا غلامه، فدفع إليه سيفَه وسوادَه وعمامته، ثم جاء فوقف على باب المجلس، فقال: اصنعوا بنا ما صنعتم بأنفسكم! قال: فجاء الغلام فطرح عليه ثياب المنادمة؛ ودعا بطعام فطعم؛ ثم دعا بالشراب فشرب ثلاثاً، ثم قال: ليخفف عني، فإنه شيء ما شربته قط! فتهلل وجه جعفر فرحاً، وقد كان الرشيد حاور عبدالملك على المنادمة فأبى ذلك وتنزه عنه؛ ثم قال له جعفر بن يحيى: جعلني الله فداك؛ قد تفضلت وتطولت، فهل من حاجة تبلغها مقدرتي، وتحيط بها نعمتي، فأقضيها لك مكافأة لما صنعت؟ قال: بلى، إن قلب أمير المؤمنين عاتب علي، فتسأله الرضا عني. فقال قد رضي عنك أمير المؤمنين! ثم قال [عبدالملك]. وعلي أربعة آلاف دينار. قال: هي حاضرة، ولكن من مال أمير المؤمنين أحب إليّ من مالي. قال: وابني إبراهيم أُحبُّ أنْ أشد ظهره بمصاهرة أمير المؤمنين. قال: قد زوَّجه أمير المؤمنين ابنته عائشة الغالية. قال: وأحب أن تخفق الألوية على رأسه بولاية. قال: وقد ولاه أمير المؤمنين مصر!

قال: فانصرف عبدالملك ونحن نعجب من إقدام جعفر على الرشيد من غير

استئذان، فلما كان الغد وقفنا على باب أمير المؤمنين، ودخل جعفر فلم يلبث أن دعا بأبي يوسف القاضي، ومحمد بن الحسن، وإبراهيم بن عبدالملك فعقد له النكاح، وحملت البدْر إلى عبدالملك، وكتب سجل إبراهيم على مصر؛ وخرج جعفر، فأشار إلينا، فلما صار إلى منزله ونحن خلفه نزل ونزلنا بنزوله، فالتفت إلينا فقال: تعلقت قلوبكم بأول أمر عبدالملك فأحببتم أن تعرفوا آخره وإني لما دخلت على أمير المؤمنين ومثلت بين يديه سألني عن أمسي، فابتدأت أحدثه بالقصة من أولها إلى آخرها، فجعل يقول أحسنَ والله! ثم قال: فما أجبته؟ فجعلت أخبره، وهو يقول في كل شيء: أحسنت! وخرج إبراهيم والياً على مصر»[1].

فهذه الحكاية تدل بوضوح مدى تبجح جعفر ودالته على الرشيد في أمور لا تكون لأحد أبداً، فهو قد أراد مكافأة عبدالملك بن صالح، فأمر برضا الخليفة عنه، وتزويجه ابنته لولده، وتولية ابنه مصر، وهذه الأمور كلها من اختصاص الرشيد وحده، لا يشاركه فيها أحد، ولكن جعفر تطاول قدره، وتجاوز حده، ففعل ما فعل.

وننبه القارىء إلى أن عبدالملك بن صالح هو عم الخليفة، وأحد قواده المعروفين بالحكمة والمقدرة والشجاعة، وهذا الأمير العباسي قد غضب عليه الرشيد يوماً، فأحضره يرفل بقيوده، ثم حدّثه الرشيد غاضباً، ورد عبدالملك بن صالح مستعطفاً منكراً ما نُسب إليه من إرادة الخلافة والتحريض ضدها، «فأراد يحيى بن خالد البرمكي أن يضع من مقام عبدالملك عند الرشيد فقال له: يا عبدالملك، بلغني أنك حقود، فقال: أصلح الله الوزير! إن يكن الحقد هو بقاء الخير والشر عندي إنهما لباقيان في قلبي»[2] فالبرمكي الفارسي يضع من قدر الأمير الهاشمي وأمام الرشيد الهاشمي!!!

ونضع بين يدي القارىء قصة أخرى، حفظها لنا ابن عبد ربه، تبين لنا مدى التعالي والعنجهية التي يخاطب به الفضل بن يحيى البرمكي الخليفة هارون الرشيد، وأنه يحاول دائما النيل مما يمت إلى العرب، وما يتعلق بهم.

حدّث الأصمعي في مقالة طويلة، نقتطف منها ما يهمنا وما يتعلق منها بموضوعنا،

---

(١) العقد الفريد ج ٥ ص ٣٣١ وسير أعلام النبلاء ج ٩ ص ٦٧.

(٢) مروج الذهب ج ٣ ص ٣٤٤.

فقال: قال لي الرشيد: أحسنت؛ أرويت للعجاج ورؤبة شيئا؟ قلت: هما يا أمير المؤمنين يتناشدان لك بالقوافي وإن غابا عنك بالأشخاص. فمد يده فأخرج من تحت فراشه رقعة، ثم قال: أسمعني. فقلت: أرَّقني طارقُ هم طَرَقا فمضيت فيها مضي الجواد في سنن ميدانه، تهدر بها أشداقي، حتى إذا صرت إلى مدح بني أمية ثنيت عنان اللسان إلى امتداحه المنصور في قوله: قلت لزيرٍ لم تصله مريَمُهْ.

قال: أعن حيرة أم عن عمد؟ قلت: عن عمد؛ تركت كذبه إلى صدقه فيما وصف به المنصور من مجده. قال الفضل: أحسنت بارك الله فيك، مثلك يؤمل لهذا الموقف. قال الرشيد: ارجع إلى أول هذا الشعر. فأخذت من أوله حتى صرت إلى صفة الجمل فأطلت، فقال الفضل: ما لك تضيق علينا كل ما اتسع لنا من مساعدة السهر في ليلتنا هذه بذكر جمل أجرب؟ صِره إلى امتداح المنصور حتى تأتي على آخره. فقال الرشيد: اسكت، هي التي أخرجتك من دارك، وأزعجتك من قرارك، وسلبتك تاج ملكك؛ ثم ماتت، فعمل جلودها سياطاً تضرب بها قومك ضرب العبيد! ثم قهقه، ثم قال: لا تدع نفسك والتعرض لما تكره. فقال الفضل: لقد عوقبت على غير ذنب، والحمدلله! قال الرشيد: أخطأت في كلامك يرحمك الله! لو قلت: واستغفر الله! قلت صواباً، إنما يُحمدُ الله على النعم. ثم صرف وجهه إليّ، وقال: ما أحسن ما أديت في قدر ما سئلت! أسمعني كلمة عدي بن الرقاع في الوليد بن يزيد بن عبدالملك، قوله: عرف الديارَ توهُّما فاعتادها

فقال الفضل: يا أمير المؤمنين، ألبستنا ثوب السهر ليلتنا هذه لاستماع الكذب! لم تأمره يسمعك ما قالت الشعراء فيك وفي آبائك؟ قال: «ويحك! إنه أدب وقلما يعتاض عن مثله؛ ولأن أسمع من ثقيف بعبارة تشغله العناية بها عمره، أحبُّ إليّ من أن تشافهني به الرسوم».

ثم مضى بهما الحديث إلى نهايته، والفضل يعترض على كلام أمير المؤمنين مباشرة أو بتوجيه اللوم إلى الأصمعي، فلما نهض الرشيد وجاء يلبس نعله، وأراد الخادم أن يساعده، قال له الرشيد: ارفق ويحك، حسبك قد عقرتني، فاغتنمها الفضل فرصة، وأراد أن ينتقص من قدر العرب وسوء صناعتهم، فقال الفضل: «لله در العجم ما أحكم صنعتهم، لو

كانت سندية ما احتجت إلى هذه الكلفة»! قال الرشيد: هذه نعلي ونعل آبائي رحمة الله عليهم، وتلك نعلك ونعل آبائك، لا تزال تعارضني في الشيء ولا أدعك بغير جواب يمضك»[1].

فالقصة يتجلى خلالها اعتزاز البرمكي بفارسيته، وتضايق الرشيد منه، فكان يلجمه بأجوبته المؤلمة، ولكن هل يكتفي الرشيد بالقول وهو سلطان العرب المسلمين، ولذلك ترصد لهم الوقيعة، وبيّت لهم الهلاك.

السبب الرابع: إذا كانت الأسباب السابقة تتعلق بالخليفة وخاصته، فإن سبباً شعبياً يضاف إلى ما سبق، ذلك أن كثيراً من الشعب أخذ يتململ من حكم البرامكة الفرس، وأخذ يستشعر بخطرهم على الأمة، غير مبال بما يصيبه في سبيل ذلك، ذُكر عن أحمد بن يوسف أنَّ ثُمامة بن أشرس، قال: أوّل ما أنكر يحيى بن خالد من أمره، أن محمد بن الليث رفع رسالة إلى الرشيد يعظه فيها، ويذكر أن يحيى بن خالد لا يغني عنك من الله شيئا، وقد جعلته فيما بينك وبين الله؛ فكيف أنت إذا وقفت بين يديه، فسألك عما عملت في عباده وبلاده، فقلت: يا ربِّ إني استكفيتُ يحيى أمورَ عبادك! أتراك تحتجّ بحجّة يرضى بها! مع كلام فيه توبيخ وتقريع. فدعا الرّشيد يحيى ـ وقد تقدم إليه خبر الرسالة ـ فقال: تعرف محمد بن الليث؟ قال: نعم، قال: فأيّ الرجال هو؟ قال: متهم على الإسلام، فأمر به فوضع في المطبَق دهراً؛ فلما تنكر الرشيد للبرامكة ذكره فأمر بإخراجه، فأحضر، فقال له بعد مخاطبة طويلة: يا محمد، أتحبني؟ قال: لا والله يا أمير المؤمنين، قال: تقول هذا! قال: نعم، وضعتَ في رجلي الأكبال، وحُلتَ بيني وبين العيال بلا ذنب أتيت، ولا حدث أحدثت، سوى قولِ حاسد يكيد الإسلام وأهلَه، ويحب الإلحاد وأهله؛ فكيف أحبُّك: قال: صدقت، وأمر بإطلاقه، ثم قال: يا محمد، أتحبني؟ قال: لا والله يا أمير المؤمنين؛ ولكن قد ذهب ما في قلبي، فأمر أن يعطى مائة ألف درهم، فأحضرت، فقال: يا محمد، أتحبني؟ قال: أمّا الآن فنعم؛ قد أنعمت عليّ، وأحسنت إليّ، قال: انتقم الله ممّن ظلمك، وأخذ لك بحقّك ممن بعثني عليك. قال: فقال الناس في البرامكة فأكثروا، وكان ذلك أوّل ما ظهر من تغيّر حالهم[2].

---

(١) العقد الفريد ج ٦ ص ١٥٩ وما بعدها.

(٢) تاريخ الطبري ج ٨ ص ٢٨٨.

وهذا شاعر يغري الرشيد بالفتك بكل البرامكة بعد مقتل جعفر فيقول:

قل للخليفة باكتفائه ... دون الأنام بحسن رائهْ
إمّا بدأت بجعفرٍ ... فاسق البرامكَ من إنائهْ
ما برمكي بعده ... تقف الظنونُ على وفائه
إني وقصد البرمكـ ... ـيّ إلى انتكاثٍ من شَقائهْ
فلقد رفعت لجعفر ... ذكرين قلّا في جزائه
فارفع ليحيى مثله ... ما العودُ إلا مِن لحائه
واخضِب بصدر مُهنّد ... عُثنونَ يحيى من دمائهْ

ولقد حاولت بطانة الرشيد إيقاظ همته وتحريك حفائظه، وإثارته ضد البرامكة، فدسوا هذه الأبيات إليه كي يسمعها:

ليت[1] هنداً أنجزتنا ما تعد ... وشفت أنفسنا مما تجد
واستبدّت مرةً واحدةً ... إنما العاجز من لا يستبد

فلما سمع الرشيد ذلك ثارت في نفسه كوامن الألم من تحكم البرامكة بالخلافة وأضمر الإيقاع بهم، وقال: «إي والله إني عاجز»[1]

وقد أورد ابن خلكان هذه الأبيات لأحد الشعراء يخاطب الرشيد ويحرضه على البرامكة:

قل لأمين الله في أرضه ... ومن إليه الحل والعقد
هذا ابن يحيى قد غدا مالكاً ... مثلك ما بينكما حدُّ
أمرك مردود إلى أمره ... وأمره ما إنْ له رَدُّ
وقد بنى الدار التي ما بنى ... الفرس لها مِثلاً ولا الهند
الدر والياقوت حصباؤها ... وتُربُها العنبرُ والنَّدُّ
ونحن نخشى أنه وارث ... مُلكك إن غيبك اللحد

فقرأها، وأثرت فيه[2].

(١) تاريخ الإسلام للدكتور حسن إبراهيم حسن ج ٢ ص ١٦٨

(٢) ابن خلكان ١/٣٣٥، ٣٣٦ وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي ج ١ ص ٣١٢.

لقد صور هذا الشاعر حال الرشيد مع البرامكة، وأوضح أن أوامرهم لا تُرد، بينما أوامر الخليفة ترجع إليهم، وتُعرض عليهم، وأظهر الشاعر خوفه أن يرثوا مجد الدولة العباسية وخلافتها بعد موت الرشيد.

وهذا ما حدا بالرشيد أن ينكب البرامكة بعد أن أخذ العهد من الناس لولديه، وأشهد عليه الأمراء والقواد وأعيان الناس، وعلق ذلك في الكعبة ليشهده الجميع في كل موسم، فلا يبقى مجال لنقضه، فبعد أن اطمأن إلى ذلك، ورجع من حجته التي عقد فيها العهد من بعده لولديه، نكب البرامكة وقتل جعفراً.

وهذا دال وبوضوح أن الرشيد كان يخشاهم على نفسه وعلى أولاده، وإلا فما الحاجة إلى تعليق كتاب العهد في الكعبة، وما الذي جعله يعجل بقتل جعفر ونكبتهم عقب عودته من هذه الحجة مباشرة.

ونضيف إلى القارىء علماً: أن الفضل البرمكي قد اتخذ جيشاً تعداده «٥٠٠» ألف جندي من خراسان، وقد سماهم «العباسية» وجعل ولاءهم له، وقد قدم إلى بغداد بعشرين ألف منهم. أفلا يحق للرشيد أن يخشاهم؟؟.

السبب الخامس: ويرجع إلى العداوة والكراهية التي بدأت تظهر بين يحيى البرمكي وبين زبيدة زوجة الرشيد، وذلك بعد أن أخذ «يضيق على عيال الرشيد في النفقة»[1] بل صار يمنعها من خدمها ويغلق عليها الأبواب، ثم يأخذ المفاتيح إلى بيته.

يضاف إلى ذلك أن جعفر البرمكي كان يقوم برعاية المأمون ابن مراجل ضرة زبيدة، والمنافس القوي لابنها الأمين على ولاية عهد الرشيد، وكان جعفر ويحيى يحاولان دائما أن يعهد الرشيد بالخلافة بعده لولده المأمون، فكان ذلك سبباً قوياً يدفع زبيدة إلى كراهية البرامكة وتحريض الرشيد عليهم.

ويروى أن الأمين لما حلف للرشيد بما حلف له به، وأراد الخروج من الكعبة ردّ جعفر ابن يحيى، وقال له: فإن غدرت بأخيك خذلك الله، حتى فعل ذلك ثلاثاً في كلها يحلف

---

(١) البداية والنهاية ج ١٠ ص ١٩٧.

له، وبهذا السبب اضطغنت أم جعفر على جعفر بن يحيى، فكانت أحد من حرّض الرشيد على أمره، وبعثته على ما نزل به.

ومثل هذه الكراهية كانت بين الفضل بن الربيع وبين البرامكة، فقد كان يحيى يكيد له باستمرار، ويمنع عنه كل ما يستطيع من مناصب، فقد أخذ الرشيد له الخاتم بعد وفاة أمه الخيزران، فلم تمضِ مدة قصيرة حتى أخذه منه، ولا يخفى أن ذلك من تدبير يحيى البرمكي، ولذلك كان الربيع يسعى بهم عند الرشيد، ويبث عيونه حولهم حتى أفضى ذلك في النهاية إلى هلاكهم.

والعداوة كانت مستحكمة بين قواد الرشيد العرب وبين البرامكة، فقد حاول يحيى منع الرشيد من تولية يزيد بن مزيد الشيباني قيادة الجيش المتوجه إلى قتال الوليد بن طريف الشيباني، ومثل ذلك كيده الدائم لعبدالملك بن صالح، ولأمراء بني هاشم، فظهر جلياً العداوة والبغضاء بين الأمراء العرب، وبين البرامكة الذين دأبوا على إبعاد العرب وتقريب الفرس، ومحاولة إعادة الكسروية إلى عروش المسلمين.

السبب السادس: نقل الدكتور حسن إبراهيم حسن عن البغدادي في تاريخه «ج ١٠ ص٨٢» أنه يقول عند كلامه على الباطنية: «ولم يمكنهم إظهار عبادة النيران، فاحتالوا بأن قالوا للمسلمين: ينبغي أن تُجمر المساجد كلها، وأن تكون في كل مسجد مجمرة يوضع عليها الند «الطيب» والعود في كل حال، فيرميهم بالزندقة والميل إلى مذاهب المجوس، وأنهم قد زينوا للرشيد أن يتخذ في جوف الكعبة مجمرة يتبخر عليها العود أبداً، فعلم الرشيد أنهم أرادوا من ذلك عبادة النار في الكعبة، وأن تصير بيت نار»(1).

وذكر ابن النديم في الفهرست «ص ٤٧٣»: «أن البرامكة بأسرها ـ إلا محمد بن خالد بن برمك ـ كانت زنادقة» ومحمد البرمكي لم ينله أذى من الرشيد، وذلك كما ذكر المؤرخون: «لنصيحته لأمير المؤمنين».

وحكى الجهشياري: «أن الفضل بن سهل «وكان مجوسيا» نقل ليحيى بن خالد البرمكي كتاباً من الفارسية إلى العربية، فأعجب بفهمه وبجودة عبارته، فقال له يحيى: إني

(1) تاريخ الإسلام ج ٢ ص ١٧٢.

أراك ذكياً، وستبلغ مبلغاً رفيعاً، فأسلم حتى أجد السبيل إلى إدخالك في أمورنا والإحسان إليك، وقال له يحيى: الآن، ودعا بسلّام مولاه فقال له: خذ بيد هذا الفتى وامض به إلى جعفر وقل له يدخله على المأمون حتى يسلم على يديه، ففعل وأسلم على يد المأمون، وهو الذي صار فيها بعد وزير المأمون، والذي لقب بذي الرياستين»[1].

«ويستفاد من كشف الظنون أن أول من عني بتعريب المجسطي يحيى بن خالد[2] ويبدو أن المجسطي هو الكتاب المترجم والذي عناه الجهشياري.

ويذكر الخطيب البغدادي: أن البرامكة آووا كثيراً ممن اتهم بالزندقة: كهشام بن الحكم الرافضي، وغيره، ويروي الجاحظ عن ثمامة قال: «كان أصحابنا يقولون: «لم يكن يرى لجليس خالد «البرمكي» دار إلا وخالد بناها له، ولا ضيعة إلا وخالد ابتاعها له، ولا ولد إلا وخالد ابتاع أمّه إن كانت أمَة، أو أدى مهرها إن كانت حرة، ولا دابة إلّا وخالد حمله عليها، إما من نتاجه أو من غير نتاجه»[3].

ويُنسب إلى الأصمعي في البرامكة:

إذا ذكر الشرك في مجلس	أنارت وجوه بني برمك
وإن تليت عندهم آية	أتوا بالأحاديث عن مزدك[4]

وقال آخر:

إن الفراغ دعاني	إلى ابتناء المساجد
وإن رأيي فيها	كرأي يحيى بن خالد[5]

وقال «أبوعمرو» كلثوم بن عمرو بن الحارث التغلبي:

---

(١) هارون الرشيد. شوقي ابوخليل ص ١٦١.

(٢) الأعلام للزركلي ج ٨ ص ١٤٤.

(٣) الجهشياري ص ١٧٣ وتاريخ بغداد ج ٤ ص ١٤٤.

(٤) عيون الأخبار ج ١ ص ٥١.

(٥) المصدر السابق عيون الأخبار ج١ ص٥١

إن البرامك لا تنفك أنجية بصفحة الدين من نجواهم ندب[1]
تجرمت حجج منهم ومنصلهم مضرج بدم الإسلام مختضب

ونقل ابن كثير: «ويقال: إن البرامكة كانوا يريدون خلافة الرشيد وإظهار الزندقة»[2]

والعهدة في هذه الروايات على من رواها، فإن الاتهام بالكفر يحتاج إلى أدلة قوية، وعلم يقيني، ولكنه من المؤكد أنهم يعملون لهيمنة الفرس على الحكم، وإقامة دولتهم على أنقاض الدولة العباسية.

السبب السابع: من الأسباب الرئيسة التي أدت بالبرامكة للهلاك، خوف الرشيد منهم على نفسه وولده، فقد أمر بالقبض على عبدالملك بن صالح العباسي بعد اتهامه بالتآمر عليه، وأرسل إلى يحيى البرمكي يسأله عن صلته بعبدالملك، فأنكر يحيى أن يكون بينهما صلة سوء، وقد شهد على عبدالملك ولده وكاتبه بأنه كان يريد الخلافة، وأنه يعمل للخروج على الرشيد، ولم يقتنع الرشيد برد يحيى البرمكي على سؤاله، ولذلك اشتد عليهم بالأذى، وضيّق عليهم بالحبس، بعد أن قبض على عبدالملك.

وقد بطش الرشيد بالبرامكة فور عودته من حجته سنة ١٨٧هـ، والتي أخذ فيها البيعة لولديه بولاية العهد بعده، وقد أخذ عليهما أوثق الأيمان وأغلظها، وأشهد على ذلك الأمراء والقواد، وأبلغها من كان في الحج ذلك العام، ثم علقها في الكعبة، وأمر بكتابه إلى عماله يذكر فيه ما عزم عليه من ولاية العهد لولديه، وقد عرّض فيه ولثلاث مرات بمن أسماهم أعداء النعم وبين أن عمله هذا إنما كان لدفع كيد هؤلاء «والحسم لكيد أعداء النعم، من أهل الكفر والنفاق والغل والشقاق، والقطع لآمالهم من كل فرصة يرجون إدراكها وانتهازها منهما، بانتقاص حقهما»[3] فهذا واضح بأن الرشيد كان يخشى على ولديه ممن أسماهم أعداء النعم، وقد أعقب هذا الكتاب وصوله إلى الأنبار بعد الحج، وقتله جعفر البرمكي، وسجن كل من يمت به من أهل أو خاصة أو خدم، فعلم أن أعداء النعم هم البرامكة.

(١) الندبة: أثر الجرح.

(٢) البداية والنهاية ج ١٠ ص ١٩٦.

(٣) الطبري ج٨ ص ٢٨٤.

وبالدافع نفسه حبس عبدالملك بن صالح، لأنه الوحيد بعد البرامكة الذي يخشاه على أولاده، وحرصا منه على وحدة الكلمة، ووحدة الصف في وجه أعداء الدين، وحتى ينعم الناس بالأمن والاستقرار.

يقول الأستاذ محمد كرد علي: «ولما رأى الرشيد أن ملكه في خطر محقق، من نفوذ آل برمك وزرائه وخاصته، لانصراف الوجوه اليهم، لكثرة ما أحسنوا إلى الناس، ولإجماع القاصي والداني على حبهم، حتى ساووا الخليفة وأربوا عليه في المكانة، أمر بالقبض عليهم، ومصادرتهم وقتلهم، وذلك لأنه خافهم على ملكه، وهم فرس لهم نفوذ قديم يمتون إليه من الإمارة، والفرس يحاولون منذ القرن الأول أن يعيدوا الملك فيهم فارسياً ويخرجونه عن صبغته العربية»[1].

وبهذا يتضح لنا الدوافع الكثيرة وراء هلاك البرامكة، وكل واحد منها يكفي لإهلاكهم والقضاء عليهم، فكيف إذا اجتمعت فيهم.

إعداد الرشيد للإيقاع بالبرامكة:

من عجيب ما قرأناه حول شخصية الرشيد قول بعض الكتاب: إن للرشيد شخصية عاطفية، وهو متقلب العاطفة، يحب بسرعة ويكره بسرعة، يقرب البرامكة وفجأة ينقلب عليهم، يحب وفجأة يكره.

وهذا القول محض افتراء وكذب، فإن المطلع على شخصية الرشيد يجد أن للرشيد شخصية متزنة هادئة، تحس بالحب، وتشعر بالكره، وتقرب من تحب، وتتحين الفرص لمن تكره، لا يأخذ أحداً دون ذنب، ولا يُقرب عاصياً لقرابة أو جاه.

نقول هذا رداً لمن زعم أن الرشيد قد انقلب فجأة على البرامكة، لأن هذا القول ينطوي على اتهام الرشيد بالانسياق وراء عواطفه المتهورة، وهذا زعم باطل لا حقيقة لادعائه، فهو لا يأخذ إلا بالذنب، ولا يعاقب إلا بعد الإدانة، وهذا ينسحب على البرامكة وغيرهم.

---

(١) الإسلام والحضارة العربية ج٢ ص٢١٣ نقلا عن كتاب نظام الوزارة ص ١١٠.

وحسبنا هنا أن نثبت أن الرشيد كان يحصي للبرامكة ذنوبهم، ويجمعها لهم، حتى يأخذهم بسوء فعلهم، بعد الإدانة والذنب، وإليك الأدلة:

١ - لما نما إلى علم الرشيد أن جعفر البرمكي قد أطلق يحيى بن عبدالله بن حسن بن حسن ابن علي بن أبي طالب من حبسه، وقد كان الرشيد حبسه عنده، فاستدعى جعفراً، وسأله عنه، فأخبره بأنه قد أطلقه، فلما خرج جعفر أتبعه الرشيد بصره قائلاً: «قتلني الله بسيف الهدى على عمل الضلالة إن لم أقتلك»[1] يقول الطبري: «فكان من أمره ما كان»[2].

وقد مات يحيى بن حسن رحمه الله سنة ١٧٦هـ، فمنذ ذلك اليوم والرشيد يبيت النية لقتل جعفر، لكن ذنبه هذا لم يكن يوجب قتله في ذلك الوقت.

٢ - حدّث إسماعيل بن صبيح، قال: «بعث إليّ الرشيد يوماً، وهو ببغداد، فدخلت، فلم أرَ في المقاصير والأروقة أحداً، حتى انتهيت إليه، فقال: يا إسماعيل! هل رأيت في الدار أحداً؟ فقلت: لا، والله! قال: فطف المجالس والأروقة والمقاصير! فطفت فلم أجد أحداً، فقال: عد ثالثة! فعدت، ثم قال: خذ ذلك الكرسيّ! فأخذته، وخرج وفي يده عمود حتى صار إلى وسط الصحن، ثم قال: ضع الكرسيّ! فوضعته، فجلس عليه، والعمود في يده، ثم قال: اجلس! فأوحشتْ نفسي خيفة، وجلست، فقال: إنّي أريد أن أفشي اليك سرّا، والله لئن سمعتُه من أحد من الناس لأضربنّ عنقك! فتراجعت نفسي، وقلت: إن كنت يا أمير المؤمنين قلته لأحد، أو تقوله، فلا حاجة بي إليه. فقال: ما قلته لأحد، ولا أقوله، إنّي أريد أن أوقع بآل برمك إيقاعاً ما أُوقعه بأحد، وأجعلهم أحدوثة ونكالا إلى آخر الأبد، فقلت: وفّقك الله، يا أمير المؤمنين، وأرشد أمرك! ثم قام، فعاد، وأخذت الكرسيّ، فرددته، وقلت: إنّما أراد أن يعرف ما عندي فيهم، فبعث بي إليهم، وكان يفعل ذلك كثيراً، ثم حال الحول، وحال حول ثان، ثم حال ثالث، فلمّا كان رأس الرابع قتلهم»[3].

---

(١) (٢) الطبري ج ٨ ص ٢٨٩.

(٣) تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ٤٢٢

إن النية تتجه إلى قتل البرامكة قبل الإيقاع بهم بمدة تزيد على أربعة أعوام، وهذا أوضح دليل على الإعداد لهذا الحدث، وإنه لم يكن فجأة.

٣ ـ ذكر عن بختيشوع بن جبريل، عن أبيه أنه قال: إني لقاعد في مجلس الرشيد، إذ طلع يحيى بن خالد ـ وكان فيما مضى يدخل بلا إذن ـ فلما دخل وصار بالقُرْب من الرّشيد وسلّم ردّ عليه ردًا ضعيفاً، فعلم يحيى أن أمرهم قد تغيّر.

قال: ثم أقبل عليَّ الرشيد، فقال: يا جبريل، يدخل عليك وأنت في منزلك أحدٌ بلا إذنك! فقلت: لا، ولا يطمع في ذلك. قال: فما بالُنا يُدْخَل علينا بلا إذن! فقام يحيى، فقال: يا أميرَ المؤمنين، قدّمني الله قبلك، والله ما ابتدأتُ ذلك الساعة، وما هو إلّا شيء كان خصّني به أمير المؤمنين، ورفَع به ذكرى؛ حتى أنْ كنتُ لأدخل وهو في فراشه مجرّداً حيناً، وَحيناً في بعض إزاره؛ وما علمتُ أن أمير المؤمنين كره ما كان يحب؛ وإذْ قد علمتُ فإنّي أكون عنده في الطبقة الثانية من أهل الإذن، أو الثالثة إن أمرني سيدي بذلك. قال: فاستحيا ـ قال: وكان من أرق الخلفاء وجهاً ـ وعيناه في الأرض، ما يرفع إليه طرفه، ثم قال: ما أردتُ ما تكره؛ ولكنّ الناس يقولون. قال: فظننت أنه لم يسنح له جواب يرتضيه فأجاب بهذا القول.(١)

٤ ـ وعن محمد بن الفضْل بن سفيان، مولى سليمان بن أبي جعفر، قال: دخل يحيى بن خالد بعد ذلك على الرّشيد، فقام الغلمان إليه، فقال الرّشيد لمسرور الخادم: مُر الغلمان ألّا يقوموا ليحيى إذا دخل الدار. قال: فدخل فلم يقم إليه أحدٌ، فاربدّ لونه. قال: وكان الغلمان والحجاب بعد إذا رأوْه أعرضوا عنه. قال: فكان ربّما استسقى الشربة من الماء أو غيره، فلا يسقونه، وبالحرَى إن سقوه أن يكون ذلك بعد أن يدعو بها مراراً.(٢)

٥ ـ وحُكي عن بعض عمومة الرشيد أنه صار إلى يحيى بن خالد عند تغيُّر الرشيد له قبل الإيقاع بهم، فقال له: إن أمير المؤمنين قد أحب جمع الأموال، وقد كثر ولده فهو يريد

---

(١) تاريخ الطبري ج ٨ ص ٢٨٧.

(٢) تاريخ الطبري ج ٨ ص ٢٨٨.

أن يعقد لهم الضياع، وقد كثر عَليك وعلى أصحابك عنده، فلو نظرت إلى ضياعهم وأموالهم فجعلتها لولد أمير المؤمنين، وتقربت إليه بها رجوتِ أن يكون لك السلامة، وأن يرجع لك أمير المؤمنين، فقال له يحيى: والله لأن تزول النعمة عني أَحَبُّ اليّ من ان أزيلها عن قوم كنت سببها إليهم. [(١)]

٦ ـ وذكر أنّ إبراهيم بن المهديّ حدّث أن جعفر بن يحيى، قال له يوماً ـ وكان جعفر بن يحيى صاحبَه عند الرشيد، وهو الذي قرّبه منه: إني قد استريت بأمر هذا الرجل ـ يعني الرشيد ـ وقد ظننتُ أن ذلك لسابق سبق في نفسي منه، فأدرتُ أن أعتبر ذلك بغيري، فكنت أنت؛ فارمق ذلك في يومك هذا، وأعلمني ما ترى منه. قال: ففعلتُ ذلك في يومي؛ فلما نهض الرّشيد من مجلسه كنتُ أوّل أصحابه نهض عنه، فجاء جعفر وسألني قائلاً: هات ما عندك!! فقلت له: رأيت الرجل يهزل إذا جددت، ويجدُّ إذا هزلت، قال: كذا هو عندي. فانصرف. [(٢)]

هذه أدلة كافية على أن الرشيد لم ينقلب فجأة على البرامكة، وأن إيقاعه بهم لم يكن عن عاطفة أو هوى، وهذا ما قاله له يزيد بن مزيد الشيباني: «فقد جعلك الله وله الحمد تتثبت تحرجاً عند الغضب، وتتطول ممتناً بالنعم، وتعفو عن المسيء تفضلاً بالعفو». [(٣)]

٧ ـ «حُكي عن قثم بن جعفر بن سليمان بن علي بن عبدالله بن عباس، وكان عاملاً على المدينة وأميراً على البصرة، قال: حدثني حسن الخادم، قال: أشهد بالله، لكنت مع الرشيد، وهو متعلق بأستار الكعبة، بحيث يمس ثوبي ثوبه، ويدي يده، وهو يقول في مناجاته ربه: «اللهم أني أستخيرك في قتل جعفر بن يحيى» ثم قتله بعد ذلك بخمس سنين، أو ست» [(٤)] وقد ورد الخبر في كتاب التاج ص٦٦ بمثله عن مسرور الخادم.

(١) مروج الذهب ج ٣ ص ٢٨٤.

(٢) تاريخ الطبري ج ٨ ص ٢٩١ ـ ٢٩٢.

(٣) تاريخ الطبري ج ٨ ص ٣٥٣.

(٤) نصيحة الملوك للماوردي ص ٢٧٦.

فهذه أدلة سابغة واضحة في تبييت النية لهلاك البرامكة، رداً على من ادّعى: بأن الرشيد انقلب عليهم فجأة.

ونريد بذلك أن نرد شبهةً وافتراءَ من قال بازدواج شخصية الرشيد، واعتلال عاطفته. ونؤكد أنه منسجم في تصرفاته مع العقل والحق والعدل. والله أعلم

مقتل جعفر البرمكي ونكبة أهله:

حج الرشيد سنة ست وثمانين ومائة، وكتب بولاية العهد لأبنائه، وأشهد الأمراء والقواد وأعيان الناس على ذلك، ثم علّق كتاب العهد لأولاده في الكعبة، وأمر القضاة أن يعلموا جميع من حضر الموسم بذلك، فانصرف الناس إلى بلدانهم وأمصارهم وقد اشتهر ذلك عندهم، وأدى الرشيد مناسك حجه ثم انصرف من مكة، وسار حتى نزل العُمْر بناحية الأنبار حيث يقيم جعفر البرمكي، فكانا معاً لا يفترقان إلا عند النوم.

فلما كانت ليلة السبت من المحرم من هذه السنة أرسل الرشيد مسروراً الخادم ومعه حماد بن سالم أبوعصمة في جماعة من الجند، فطافوا بجعفر وأخرجوه إلى دار الرشيد وقد قيدوه بالسلاسل، ثم أعلموا الرشيد بذلك فأمرهم بضرب عنقه، فجاء السياف وقتله، ولم يأذن الرشيد لجعفر أن يقابله أو يراه، حتى لا يستحيي منه فلا يقتله.

وقد كثرت الروايات حول مقتله، وإن كانت النتيجة لم تتغير، وهي أن الرشيد أمر بقتله فقُتل.

ثم كتب الرشيد من العُمْر إلى السندي بن شاهك وكان صاحب الشرطة ما يلي:

«بسم الله الرحمن الرحيم: يا سنديّ، إذا نظرت في كتابي هذا، فإن كنت قاعداً فقم، وإن كنت قائماً فلا تقعد حتى تصير إليّ».

قال السنديّ: فدعوت بدوابي، ومضيت. وكان الرشيد بالعُمر؛ فحدّثني العباس بن الفضل بن الربيع، قال: جلس الرّشيد في الزوّ[1] في الفرات ينتظرك، وارتفعت غبْرةٌ، فقال

---

(١) الزو: نوع من السفن.

لي: يا عباس، ينبغي أن يكون هذا السنديّ وأصحابه! قلت: يا أمير المؤمنين، ما أشبهه أن يكـون هو! قال: فطلعت. قال! السنديّ: فنزلت عن دابتي، ووقفت، فأرسل إليّ الرشيد فصرت إليه، ووقفت ساعة بين يديه، فقال لمن كان عنده من الخدم: قوموا، فقاموا فلم يبقَ إلّا العبـاس بن الفضل وأنا، ومكث ساعة، ثم قال للعباس: اخرج ومُرْ برفع التخـاتج المطروحة على الزّوّ، ففعل ذلك، فقال لي: أدنُ مني، فدنوت منه، فقال لي: تدري فيمَ أرسلت إليك؟ قلت: لا والله يا أمير المؤمنين، قال: قد بعثت إليك في أمر لو علم به زُرّ قميصي رميتُ به في الفرات، يا سنديّ مَنْ أوثق قوّادي عندي؟ قلت: هرثمة، قال: صدقت، فمن أوثق خدمي عندي؟ قلت: مسرور الكبير، قال: صدقت، امض من ساعتك هذه وجدّ في سيرك حتى توافي مدينة السلام، فاجمع ثقات أصحابك وأرباعك، ومُرهم أن يكونوا وأعوانهم على أهبة فاذا انقطعت الزُّجَل،[1] فصر إلى دور البرامكة، فوكل بكلّ باب من أبوابهم صاحب ربع، ومره أن يمنع مَنْ يدخل ويخرج ـ خلا باب محمد بن خالد ـ حتى يأتيَك أمري. قال: ولم يكن حرّك البرامكة في ذلك الوقت. قال السنديّ: فجئت أركض، حتى أتيت مدينة السلام، فجمعت أصحابي، وفعلت ما أمرني به. قال: فلم ألبث أن أقدم عليّ هرثمة بن أعين، ومعه جعفر بن يحيى على بغلٍ بلا أكاف، مضروب العنق، وإذا كتاب أمير المؤمنين يأمرني أن أشطره باثنين؛ وأن أصلبه على ثلاثة جسور. قال: ففعلت ما أمرني به.

قال محمـد بن إسحـاق: فلم يزل جعفـر مصلوبـاً حتى أراد الرشيد الخروج إلى خُراسان، فقال: ينبغي أن يحرق هذا ـ يعني جعفراً ـ فلما مضى، جمع السنديّ له شوكاً وحطباً وأحرقه.[2]

وقد نفذ السندي بن شاهك ما أمره به الرشيد، فلم يفلت منهم أحد، وقد حبسوا واستلبت أموالهم، وأُخذت ضياعهم، وكتب إلى السولاة بذلك، وظلت حالهم سهلة غير مضيق عليهم في البيوت التي حبسوا فيها إلى أن غضب الرشيد على عبدالملك بن صالح فعمهم سخطه وجدد لهم التهمة عند الرشيد، وضيّق عليهم من جديد، عدا محمد بن خالد

(١) الزجل: الجماعة من الناس.

(٢) تاريخ الطبري ج ٨ ص ٢٩٨.

ابن برمك وأهله فإنه لم ينل من الأذى شيئاً، وذلك لبراءته مما دخل فيه البرامكة ولنصيحته للخليفة.[1]

وبالتدقيق يتضح أن أقوى الأسباب التي هلك بموجبها البرامكة: تآمرهم على الخليفة ومحاولتهم السيطرة عليه، لأن الأذى اشتد عليهم بعد السخط على عبدالملك المتهم بالتآمر والخروج على الخليفة، ويبدو أن لمحمد بن برمك عين على بني أخيه يحيى يبلغها للرشيد وينصحه بها، ولذلك استثناه الرشيد هو وأهله وخدمه ومن يلوذ به، وفي هذا أوضح دليل على عدم أخذ الرشيد أحداً بغير ذنب وجريمة.

إصرار الرشيد على تجريم البرامكة وعدم ندمه على نكبتهم:

لقد جانب الصواب وابتعد عن الحقيقة كل من ظن أن الرشيد ندم على نكبته للبرامكة، والتاريخ يشهد بذلك، والوقائع تثبت هذا، فهو قد ضرب عنق جعفر البرمكي، وسجن أباه يحيى وأخوته الفضل وموسى ومحمد، وحبس معهم كل من يلوذ بهم، وظلوا في سجنهم حتى وافاهم الأجل المحتوم، ولا صحة لما ذكره ابن كثير حينما نسب إلى الرشيد قوله: «لعن الله من أغراني بالبرامكة، فما وجدت بعدهم لذة ولا راحة ولا رجاء، وودت والله أني شطرت نصف عمري وملكي وأني تركتهم على حالهم»[2] بل الحقيقة أنهم كانوا كما قال سهل بن هارون: «فتبرأ منهم الحميم، واستبعد عن نسبهم القريب، وجحد ولاءهم المولى، فلا لسان يخطر بذكرهم، ولا طرف ناظر يشير اليهم».[3]

فالحق الذي لا مراء فيه أن الرشيد لم يندم قط على قتل البرامكة وسجنهم لأن تصرفه محكوم بضوابط صحيحة تمنعه من الندم، ويؤكد هذه الحقائق الوقائع التالية:

١ ـ ذكر الخليل بن الهيثم الشعبي ـ وكان قد وكّله الرشيد بيحيى والفضل في الحبس ـ قال: أتاني مسرور الخادم ومعه جماعة من الخدم، ومع خادم منهم منديل ملفوف، فسبق إلى

(١) تاريخ الطبري ج ٨ ص ٢٩٦.

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ج ١٠ ص ٢٠٠

(٣) العقد الفريد ج ٥ ص ٣١٨.

نفسي أن الرشيد قد تعطف عليهم، فوجه إليهم بلطف، فقال لي مسرور: اخرج الفضل بن يحيى، فلما مَثُلَ بين يديه قال له: إن أمير المؤمنين يقول لك: إني قد أمرتك أن تصدقني عن أموالكم فزعمت أنك قد فعلت، وقد صح عندي أنك أبقيت لك أموالاً، وقد أمرت مسروراً إن لم تطلعه عليها أن يضربك مائتي سوط، فقال له الفضل: قُتِلْتُ والله يا أبا هاشم، فقال له مسرور: يا أبا العباس أرى لك أنك لا تؤثر مالك على مهجتك، فإني لا آمن أن أنفذ ما أُمرت به فيك أن آتي على نفسك، فرفع الفضل رأسه إلى السماء وقال له: يا أبا هاشم، ما كذبت بأمير المؤمنين، ولو كانت الدنيا لي وخيرت بين الخروج منها وبين أن أُقرع مقرعة لاخترت الخروج منها، وأمير المؤمنين يعلم وأنت تعلم أنا كنا نصون أعراضنا بأموالنا، وكيف صرنا اليوم نصون أموالنا منكم بأنفسنا؟ فإن كنت أُمرت بشيء فامض له، فأمر بالمنديل فنفض، فسقط منه أسواط بأثمارها، فضُرب مائتي سوط، وتولى ضربه أولئك الخدم، فضربوه أشد الضرب الذي يكون بغير معرفة، فكادوا يأتون على نفسه، فخففنا عليه الموت.[1]

٢ ـ كانت أم جعفر بن يحيى، وهي فاطمة ابنة محمد بن الحسين بن قحطبة، أرضعت الرشيد مع جعفر؛ لأنه كان رُبِّيَ في حجرها وغذي برسلها،[2] لأن أمه ماتت عن مهده،[3] فكان الرشيد يشاورها مظهراً لإكرامها والتبرُّك برأيها، وكان آلى وهو في كفالتها أن لا يحجبها، ولا استشفعته لأحد إلا شفَّعها، وآلت عليه أم جعفر أن لا دخلت عليه إلا مأذوناً لها، ولا شفعت لأحد لغرض دنيا. قال سهل: فكم أسير فكَّت، ومبهم عنده فتحت، ومستغلق منه فرَّجت. واحتجب الرشيد بعد قدومه، فطلبت الإذن عليه من دار الباقونة، ومتَّت بوسائلها إليه؛ فلم يأذن لها ولا أمر بشيء فيها؛ فلما طال دلك بها خرجت كاشفةً وجهها واضعة لثامها محتفية في مشيها، حتى صارت بباب قصر الرشيد؛ فدخل عبدالملك بن الفضل الحاجب، فقال: ظئر أمير

(١) مروج الذهب ح ٣ ص ٣٨٥.

(٢) عدى رسلها: عدى بلبنها

(٣) الضمير يعود لجعفر فهو الذي ماتت امه عنابة فأرضعته ام الفضل

المؤمنين بالباب، في حالة تقلب شماتة الحاسد إلى شفقة أم الواحد! فقال الرشيد: ويحك يا عبدالملك! أو ساعية؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين حافية! قال أدخلها يا عبدالملك، فرُبَّ كبد غذتها، وكربة فرجتها، وعورة سترتها! قال سهل: فما شككتُ يومئذ في النجاة بطلبتها، وإسعافِها بحاجتها. فدخلت، فلما نظر الرشيد إليها داخلة محتفية، قام محتفياً حتى تلقَّاها بين عمد المجلس، وأكب على تقبيل رأسها ومواضع ثدييها، ثم أجلسها معه، فقالت: يا أمير المؤمنين، أيعدو علينا الزمان ويجفونا خوفاً لك الأعوان، ويحردك[1] عنا البهتان وقد ربيتك في حجري، وأخذتُ برضاعك الأمان من عدوي ودهري؟ فقال لها: وما ذلك يا أم الرشيد؟ قال سهل: فآيسني من رأفته، بتركه كنيتها آخراً ما كان أطمعني من برِّه بها أولاً، قالت: ظئرك[2] يحيى وأبوك بعد أبيك، ولا أصفه بأكثر مما عرفه به أمير المؤمنين من نصيحته، وإشفاقه عليه، وتعرُّضه للحتف في شأن موسى أخيه. قال لها: يا أمَّ الرشيد، أمرٌ سبَق، وقضاءٌ حُمَّ، وغضبٌ من الله نفذ! قالت: يا أمير المؤمنين، يمحو الله ما يشاء ويُثبت وعنده أمُّ الكتاب، قال: صدقت. فهذا مما لم يمحُه الله! فقالت: الغيب محجوب عن النبيين فكيف عنك يا أمير المؤمنين؟ قال سهل بن هارون: فأطرق الرشيد ملياً، ثم قال:

وإذا المنيَّة أنشَبت أظفارَها ... ألفَيْتَ كلَّ تميمةٍ لا تنفع

فقالت بغير روية: ما أنا ليحيى بتميمة يا أمير المؤمنين، وقد قال الأول:

وإذا افتقَرتَ إلى الذخائر لم تجد ... ذُخراً يكونُ كصالِح الأعمال

هذا بعد قول الله عز وجل: ﴿وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.[3] فأطرق هارونُ ملياً، ثم قال: يا أُمَّ الرشيد، أقول:

إذا انصرَفت نفسِي عن الشيء لم تكد ... إليهِ بوجهٍ آخرَ الدَّهر تُقبلُ

فقالت: يا أمير المؤمنين، وأقول:

---

(١) يحردك: يمنعك.

(٢) ظئرك: زوج مرضعتك.

(٣) سورة آل عمران الآية ١٣٤.

ستقطعُ في الـدُّنيا إذا ما قطَعْتَني   يمينَـك، فانـظُر أيّ كف تبـدَّلُ

قال هارون: رضيت! قالت: فهبه لي يا أمير المؤمنين؛ فقد قال رسول الله ﷺ: من ترك شيئا لله لم يُوجده الله لِفقدِه. فأكب هارون مليا، ثم رفع رأسه يقول: لله الأمرُ من قبلُ ومن بعدُ! قالت: يا أمير المؤمنين، ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۝ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾؛[1] واذكر يا أمير المؤمنين الْيّتك.[2] ما استشفعتُ إلا شفعتني! قال: واذكري يا أم الرشيد الْيّتك لا شفعت لمقترف ذنباً. قال سهل بن هارون: فلما رأته صرَّح بمنعها ولاذ عن مطلبها، أخرجتْ حقا[3] من زبرجدة خضراء فوضعتْه بين يديه، فقال الرشيد: ما هذا؟ ففتحتْ عنه قفلا من ذهب فأخرجت منه قميصه وذوائبه[4] وثناياه، قد غَمست جميع ذلك في المسك؛ فقالت: يا أمير المؤمنين، أستشفع إليك وأستعين بالله عليك وبما صار معي من كريم جسدك وطيب جوارحك ليحيى عبدك. فأخذ هارون ذلك فلثمه، ثم استعبر وبكى بكاء شديداً، وبكى أهل المجلس، ومر البشير إلى يحيى وهو لا يظن إلا أن البكاء رحمة له ورجوعٌ عنه، فلما أفاق رمى جميع ذلك في الحُقّ، وقال لها: لحسناً ما حفظت الوديعة! قالت: وأهلٌ للمكافأة أنت يا أمير المؤمنين!

فسكت وأقفـل الحُقّ ودفعه إليها، وقال: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ﴾.[5] قالت: والله يقـول: ﴿ وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾.[6] ويقـول: ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ ﴾.[7] قال: وما ذلك يا أم الرشيد؟ قالت: ما أقسمت لي به أن لا تحجبني ولا تجبهني قال. أحب يا أم الرشيد أن نشتريه محكّمةً فيه. قالت: أنصفت يا أمير المؤمنين، وقد فعلتُ غير مستقيلةٍ لك، ولا راجعةٍ عنك. قال: بكم؟ قالت: برضاك عمن لم يُسْخِطْك! قال: يا أم الرشيد، أمالي عليك من الحق مثلُ

---

(١) سورة الروم الآية ٤.

(٢) الألية: اليمين

(٣) الحق: وعاء صغير ذو غطاء

(٤) الذوائب: جمع ذؤابة: وهي شعر مقدم الراس. وثناياه. أسنانه الأربعة التي في مقدمة الفم.

(٥) سورة النساء الاية ٥٨.

(٦) المرجع نفسه.

(٧) سورة النحل الآية ٩١

الذي لهم؟ فتحكُمي في تمنِيَةٍ بغيرهم. قالت: بلى قد وهبتُكه وجعلتُك في حل منه؟ وقامت عنه، وبقي مبهوتاً ما يُحير لفظه. قال سهل: وخرجتْ فلم تعد، ولا والله ما رأيت لها عبرة ولا سمعت لها أنّة.

٣ ـ وكان الأمين محمد بن زُبيدة رضيع يحيى بن جعفر بن يحيى، فمتَّ[1] إليه يحيى بن خالد بذلك، فوعده استيهاب أمِّه إياهم وتكلمها فيهم؛ ثم شغله اللهو عنهم، فكتب إليه يحيى، ويقال: إنها لسليمان الأعمى أخي مسلم بن الوليد، وكان منقطعاً إلى البرامكة ـ يقول:

يا ملاذِي وعِصْمَتي وعِمَادِي	ومُجيري مِنَ الخُطُوب الشِّدَادِ
بكَ قام الرَّجاء في كلِّ قلْب	زاد فيهِ البَلاءُ كلَّ مَزاد
إنما أنت نِعْمةٌ أَعْقَبْتها	نِعمٌ نَفْعُها لِكلِّ العِباد
وعْدَ مولاك أتمْمْنهُ فأبهي الدُّ	ر ما زيد حُسنُهُ بانعقادِ
ما أظَلَّتْ سَحَائِبُ اليأس إلاَّ	كان في كشفِها عليكَ اعتمادِي
إن تَراخَتْ يداكَ عني فُوَاقا	أكلَتني الأيامُ أكلَ الجراد[2]

وبعث بها إلى الأمين محمد، فبعث بها الأمين محمد إلى أمه زبيدة، فأعطتها هارون وهو في موضع لذته وعند إقبال أريحيته، وتهيأت للاستشفاع لهم، وعبأت جواريها ومغنياتها وأمرتهن بالقيام معها إذا قامت؛ فلما فرغ الرشيد من قراءتها لم ينقض حبوتَهُ حتى وقَّع في أسفلها: عِظَمُ ذنبكَ أماتَ خواطرَ العفو عنك! ورمى بها إلى زبيدة، فلما رأت توقيعه علمت أنه لا يرجع عنه.

٤ ـ وكتب يحيى البرمكي من حبسه إلى الرشيد هذه الرسالة:

«لأمير المؤمنين، وخليفة المهدّيين، وإمام المسلمين، وخليفة رب العالمين، من عبد أسلمته ذنوبه، وأوبقته[3] عيوبه، وخذله شقيقه، ورفضه صديقه، ومال به

---

(١) مت اليه: توسل اليه.

(٢) الفواق: ما بين الحلبتين من الوقت.

(٣) أوبقته: جمعته وحسته.

الزمان، ونزل به الحدثان،[1] فحلّ في الضيق بعد السعَة وعالج البؤس بعد الدَّعة[2] وافترش السخط بعد الرضا، واكتحل السهاد بعد الهجود،[3] ساعته شهر، وليلتُه دهر، وقد عاين الموت، وشارف الفَوْت،[4] جزعاً لموجدَتك يا أمير المؤمنين، وأسفاً على ما فات من قربك، لا على شيء من المواهب؛ لأن الأهل والمال إنما كانا لك، وبك وكانا في يديّ عارية، والعارية مردُودة؛ وأما ما أُصبتُ به من ولدي فبذنبه، ولا أخشى عليك الخطأ في أمره، ولا أن تكون تجاوزت به فوق حده.

تفكرْ في أمري، جعلني الله فداك، وليَمل هواك بالعفو عن ذنب إن كان فمن مثلي الزلل ومن مثلك الإقالة؛[5] وإنما أعتذر إليك بإقرار ما يجب به الإقرار حتى ترضى، فإذا رضيت رجوت إن شاء الله أن يتبين لك من أمري وبراءة ساحتي ما لا يتعاظمُك بعده ذنب أن تغفره. مد الله لي في عمرك وجعل يومي قبل يومك!

وكتب إليه بهذه الأبيات :

قل للخليفةِ ذي الصَّنيعـ	ـةِ والعطايا الفاشيَةْ
وابنِ الخلائف من قريْـ	ـش والملوكِ العاليَةْ
إنَّ البرامكةَ الذيـ	ـن رُمُوا لديْك بداهيَةْ
صُفْرُ الوُجوهِ عليهمُ	خِلَعُ المذلَّةِ باديةْ
فكأنهم مما بهمْ	أعجازُ نخلٍ خاوية[6]
عمَّتْهم لك سَخْطةٌ	لم تُبْقِ منهم باقية
بعد الإمارةِ والوزا	رة والأمورِ الساميةْ
ومنازل كانت لهمْ	فوق المنازل عالية

(١) الحدثان: نوائب الدهر.

(٢) الدعة: السعة بالعيش.

(٣) الهجود: النوم.

(٤) الفوت: المضيّ.

(٥) الإقالة: الصفح.

(٦) أعجاز النخل: أصولها.

أضحَوْا وجلُّ مُناهُمُ — منك الرِّضا والعافيةْ
يا من يَوَدُّ لِيَ الرَّدى — يكفيك مني ما بِيَهْ[1]
يكفيك ما أبصرْتَ من — ذُلِّي وذُلِّ مكانيه
وبُكاء فاطمةَ الكئيـ — ـبةِ والمدامعُ جاريةْ
ومقالها بتوَجُّع — يا سوْأتي وشَقائيه
من لي وقد غضِبَ الزما — نُ على جميعِ رجاليه
يا لهف نفسي لهفَها — ما للزمان وماليه
يا عطفةَ الملِكِ الرِّضا — عُودي علينا ثانية

فلم يكن له جواب من الرشيد[2] .

وكتب يحيى للرشيد رسالة أخرى جاء فيها: «إن كان الذنب يا أمير المؤمنين خاصاً، فلا تعم بالعقوبة فإن ني سلامة البريء، ومودة الولي.

فوقع الرشيد عليها: «قُضى الأمر الذي فيه تستفتيان»[3]

٥ ـ واعتلَّ يحيى في الحبس، فلما أشفى[4] دعا برقعة فكتب في عنوانها: ينفذ أمير المؤمنين عهد مولاه يحيى بن خالد. وفيها مكتوب:

«بسم الله الرحمن الرحيم. قد تقدّم الخصم إلى موقف الفصل، وأنت على الأثر، والله حكَمٌ عدْل، وستَقْدم فتعلم» فلما ثقل[5] قال للسجان: هذا عهدي توصله إلى أمير المؤمنين، فإنه وليٌّ نعمتي، وأحق من نفَذ وصيتي.

فلما مات يحيى أوصل السجان عهده إلى الرشيد. فكان جواب الرشيد كما ذكر

---

(١) الردى: الهلاك.

(٢) العقد الفريد ج ٥ ص ٦٨ ـ ٦٩.

(٣) كتاب الوزراء والكتاب للجهشياري ص ٢٥٣

(٤) أشفى: اقترب من الشفاء.

(٥) ثقل: اشتد مرضه.

سهل بن هارون قال: وأنا عند الرشيد ، إذ وصلت الرقعة إليه ، فلما قرأها جعل يكتب في أسفلها ولا أدري لمن الرقعة ، فقلت له : يا أمير المؤمنين ، ألا أكميك؟ قال : كلا ، إني أخاف عادة الراحة أن تُقوِّيَ سلطان العجز! فيحكم بالغفلة ويقضي بالبلادة! ووقع فيها : الحكَمُ الذي رضيت به في الآخرة لك هو أعدى الخصوم عليك ، وهو من لا ينقض حكمه ، ولا يُرَدُّ قضاؤه . قال : ثم رمى بالصك إليّ فلما رأيته علمت أنه ليحيى ، وأن الرشيد أراد أن يؤثر الجواب عنه .[1]

من هذا يتضح عدم ندم الرشيد لإيقاعه بالبرامكة ، ويتضح عظم الذنب الذي أخذهم به ، والذي لم يصرح به ، أو يفصح عنه ، بل نُقل عنه أنه قال : «لو علم به زر قميصي لرميته في النهر» .

---

(١) العقد الفريد ج ٥ ص٢٢١ وما بعدها

الفصل الرابع

رابعاً: القبض على عبدالملك بن صالح

في هذه السنة ١٨٧هـ غضب الرشيد على عبد الملك بن صالح بن عليّ بن عبدالله ابن عبّاس.

وكان سبب ذلك أنّه كان له ولد اسمه عبدالرحمن، وبه كان يكنّى، وكان من رجال النّاس، فسعى بأبيه هو وقُمامة كاتب أبيه، وقالا للرشيد: إنّه يطلب الخلافة، ويطمع فيها؛ فأخذه، وحبسه عند الفضل بن الربيع، وأحضره يوماً، حين سخط عليه، وقال له: أكفراً بالنعمـة، وجحـوداً لجليل المنّـة والتكرمة؟ فقال: يا أمير المؤمنين! لقد بؤتُ إذاً بالندم، وتعرّضت لاستحلال النقم، وما ذاك إلّا بغيُ حاسدنا، فنسي فيك مودّة القرابة وتقديم الولاية؛ إنّك، يا أمير المؤمنين، خليفة رسول الله ﷺ، على أمّته، وأمينه على عِترته، لك عليها فرض الطاعة، وأداء النصيحة، ولها عليك العدل في حكمها، والغفران لذنوبها، والتثبت في حادثها.

فقال له الرشيد: أتضعُ لي من لسانك، وترفع لي من جنَانك؟ هذا كاتبك قُمامة يخبر بغلك وفساد نيّتك، فاسمع كلامه.

فقال عبدالملك: أعطاك ما ليس في عقده، ولعلّه لا يقدر أن يَعضهني أو يبهتني بما لم يعرفه مني. فأحضر قمامة فقال له الرشيد: تكلّمْ غير هائب ولا خائف! فقال: أقول إنّه عازم على الغدر بك والخلاف عليك. فقال عبدالملك: كيف لا يكذب عليّ مِنْ خلفي مَن يبهتني في وجهي؟

فقال الرشيد: فهذا ابنك عبدالرحمن يخبرني بعتوّك، وفساد نيّتك، ولو أردت أن أحتجّ عليك لم أجد أعدل من هذين الاثنين لك، فلِمَ تدفعهما عنك؟.

فقال عبدالملك: هو مأمور، أو عاقّ مجبور، فإن كان مأموراً فمعذور، وإن كان عاقًا ففاجر كفور، أخبر الله عزّ وجلّ بعداوته، وحذّر منه بقوله: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوّاً لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾[٤]. فنهض الرشيد وهو يقول: ما أمرك إلاّ قد وضح، ولكني لا أعجل، حتى أعلم الذي رضي الله عزّ وجلّ فيك، فانه الحكَم بيني وبينك.

فقال عبدالملك: رضيتُ بالله حكَماً، وبأمير المؤمنين حاكماً، فانّي أعلم أنّه لن يُؤثر هواه على رضى ربّه.

وأحضره الرشيد يوماً آخر، فكان ممّا قال له:

أريدُ حيَاتَــهُ ويُريدُ قتْــلي عَذيرك من خَليلكَ من مُرَادِ.

ثمّ قال: أمَا والله لكأنّي أنظر إلى شُؤبوبها[١] قد همع، وعارضها[٢] قد همع، وكأنّي بالوعيد قد أورى زناداً يسطع، فأقلع عن براجم بلا معاصم، ورؤوس بلا غلاصم، فمهلاً مهلاً بني هاشم، فبي والله سهل لكم الوعر، وصفا لكم الكدر، وألقت إليكم الأمور أزمّتها، فنذار لكم نذار قبل حلول داهية خبّوط باليد لبّوط بالرِّجل.

فقال عبدالملك: اتّقِ الله، يا أمير المؤمنين، فيما ولاّك من رعيّته التي استرعاك، ولا تجعل الكفر مكان الشكر، ولا العقاب موضع الثواب، فقد نخلتُ لك النصيحة، ومحضتُ لك الطاعة، وشددت أواخي ملكك بأثقل من ركنَيْ يَلَمْلَم، وتركتُ عدوك مشتغلا، فالله الله في ذي رحمك أن تقطعه بعد أن وصلته، يظنّ أفصح الكتاب لي بِعِضَهِهِ، أو ببغي باغٍ ينهس اللحم، ويلغ الدمٰ، فقد والله سَهَّلْتُ لك الوعور، وذلّلتُ لك الأمور، وجمعتُ على طاعتك القلوب في الصدور، فكم ليل تمام فيك كابدته، ومقام ضيق لك قمتُهُ، كنتُ فيه كما قال أخو بني جعفر بن كلاب، يعني لبيداً:

---

(١) شؤبوبها: مطرها

(٢) همع: نزل بالمطر

وَمَـقـامٍ ضَيّقٍ فَرّجْـتُـهُ بِبَـيانٍ[1] وَلِـسـانٍ وَجَـدَلْ
لَوْ يَقُـومُ الـفِـيلُ أوْ فَيّالُـهُ زَلّ عَن مثـلِ مَقـامي وزَحَـلْ

فقال له الرشيد: والله لولا إبقائي على بني هاشم لضربتُ عنقك؛ ثمّ أعاده إلى محبسه.

فدخل عبدالله بن مالك على الرشيد، وكان على شرطته، فقال له: والله العظيم، يا أمير المؤمنين، ما علمتُ عبدالملك إلاّ ناصحاً، فعلامَ حبستَهُ؟ فقال: بلغني عنه ما أوحشني ولم آمنه أن يضرب بين ابنيّ هذين، يعني الأمين والمأمون، فإن كنتَ ترى أن نطلقه من الحبس أطلقناه. فقال: أمّا إذ حبسته، فلستُ أرى في قرب المدّة أن تطلقه، ولكن تحبسه محبساً كريماً. قال: فإنّي أفعل؛ فأمر الفضلَ بن الربيع أن يمضي إليه، وينظر ما يحتاج إليه فيوظّفه له، ففعل.

ولم يزل عبدالملك محبوساً، حتى مات الرشيد، فأخرجه الأمين واستعمله على الشام، فأقام بالرَّقّة، وجعل لمحمّد الأمين عهد الله لئن قُتل وهو حيّ لا يعطي المأمون طاعة أبداً، فمات قبل الأمين، وكان ما قال للأمين: إن خفتَ فالجأ إليّ فوالله لأصوننك.

وأرسل الرشيدُ يوماً إلى يحيَى بن خالد بن برمك: إنّ عبدالملك أراد الخروج عليّ ومُنازعني في المُلك. وعلمتُ ذلك، فأعلمني ما عندك فيه، فإنّك إن صدقتني أعدتُك إلى حالك، فأنكر يحيى أن يكون لعبدالملك صلة بهم، فلم يصدقه الرشيد، واشتد عليهم في محابيسهم لقناعته بتآمرهم مع عبدالملك ضده، «وقد وصل الأمر بالرشيد ان هدد يحيى بقتل ولده الفضل إن لم يفصح عما بينه وبين عبدالملك»[2].

---

(١) العارض: السحاب.

(٢) ابن الأثير ج ٦ ص ١٨٣ ـ ١٨٤.

الفصل الخامس

خامسا: ولاية العهد:

ومن أهم الأحداث التي ظهرت بعد تولي الرشيد الخلافة بمدة لا تزيد عن خمس سنوات ولاية العهد، وقد نزل الرشيد على رغبة زوجته زبيدة يساندها الفضل بن يحيى البرمكي، وبعض أمراء بني العباس، فجعل ولاية العهد لولده محمد، وكان أصغر من أخيه عبدالله، ولم يكن الرشيد يرغب بتوليته حتى لا يقع الصراع بين الأخوين.

والمحاورة التالية بين زبيدة والرشيد توضح ذلك:

دخلت زبيدة على الرشيد لما سمعت أن الرشيد يريد البيعة لابنه عبدالله وأخذت تعـاتبـه، فقال الرشيد: ويحكِ إنما هي أمة محمد، ورعاية من استرعاني الله تعالى مطوقاً بعنقي، وقـد عرفتِ ما بين ابني وابنك، ليس ابنك يا زبيدة أهلا للخلافة، ولا يصلح للرعاية، قالت: ابني والله خير من ابنك وأصلح لما تريد، ليس بكبير سفيه، ولا صغير فيه، أسخى من ابنك نفساً، وأشجع قلباً، فقال هارون: ويحكِ إن ابنك لأحب إليّ إلا أنها الخلافة لا تصلح إلا لمن كان لها أهلا، وبها مستحقا، ونحن مسؤولون عن هذا الخلق، ومأخوذون بهذا الأنام، فما أغنانا أن نلقى الله بوزرهم، وننقلب اليه بإثمهم، فاقعدي حتى أعرض عليك ما بين ابني وابنك. فقعدت معه على الفراش، ثم دعا ابنه عبدالله المأمون، فلما صار بباب المجلس سلم على أبيه بالخلافة، ووقف طويلا وقد طأطأ برأسه، وأغضى ببصره، ينتـظر الإذن حتى كادت قدمـاه ترم، ثم أذن له بالجلوس فجلس، فاستـأذن بالكلام، فأذن له فتكلم، فحمدالله على ما منّ به من رؤية أبيه، ويرغب إليه في تعجيل الفرج مما به، ثم استأذنه في الدنو من أبيه، فدنا منه، وجعل يلثم أسافل قدميه، ويقبّل باطن راحتيه، ثم انثنى ساعيا إلى زبيدة، فأقبل على تقبيل رأسها، ثم انثنى إلى قدميها،

ثم رجع الى مجلسه، فحمد الله اليها فيها منّ به عليها من رضى أبيه عنها، وحسن رأيه فيها، ويسأله تعالى العون لها على برّه، وأداء المفروض عليها من حقه، ويرغب أن يوزعها شكره وحمده. فقال الرشيد: يا بني اني أريد أن أعهد اليك عهد الإمامة، وأقعدك مقعد الخلافة، فاني قد رأيتك لها أهلا، وبها حقيقاً. فاستعبر عبدالله المأمون باكيا، وصاح منتحبا يسأل الله العافية من ذلك، ويرغب اليه أن لا يريه فَقدَ أبيه، فقال له: يا بني إني أراني لما بي، وأنت أحق، وسلِّم الأمر لله، وارض به، واسأله العون عليه، فلا بد من عهدي يكون في يومي هذا، فقال عبدالله المأمون: يا أبتاه! أخي أحق مني، وابن سيدتي، ولا إخال إلا أنه أقوى على هذا الأمر مني، وأشد استطلاعاً، عرض الله لك ما فيهُ الرشاد والخلاص، وللعباد الخير والصلاح، ثم أذن له فقام خارجاً.

ثم دعا هارون بابنه محمد الأمين، فأقبل يجر ذيله، ويتبختر في مشيته، فمشى داخلا بنعله قد أُنسي السلام، وذهل عن الكلام نخوة وتجبُّراً وتعظماً وإعجاباً، فمشى حتى صار مستويا مع أبيه على الفراش، فقال هارون: ما تقول أي بني، فاني أريد أن أعهد اليك؟ فقال: يا أمير المؤمنين، ومن أحق بذلك مني، وأنا أسنُّ ولدك، وابن قرة عينك، فقال هارون اخرج يا بني.

ثم قال لزبيدة: كيف رأيت ما بين ابني وابنك؟

فقالت: يا أمير المؤمنين، ابني أحق بما تريد، وأولى بها لديك، فقال هارون: فإذا أقررت بِالحق، وأنصفتِ ما رأيت، فأنا أعهد إلى ابني ثم إلى ابنك بعد.[1]

«وكان الرشيد يتوسم النجابة والرجاحة في عبدالله المأمون، ويقول: والله إن فيه حزم المنصور، ونسك المهدي، وعزة الهادي، ولو شئت أن أقول الرابعة مني لقلت: وإني لأقدم محمد بن زبيدة، وإني لأعلم أنه متبع هواه، ولكن لا استطيع غير ذلك ثم انشأ يقول:

لقد بان وجه الرأي لي غير أنني	غُلبتُ على الأمر الذي كان أحزما
وكيف يُردُ الدَّر في الضرع بعدما	نوزعَ حتى صار نهباً مقسما
أخاف التواء الأمر بعد استوائه	وأن ينقضُ الأمر الذي كان أبرما[2]

(١) عن الامامة والسياسة.

(٢) البداية والنهاية ج ١٠ ص ١٧١.

وكانت حجة الفريق الذي يقف إلى جانب الأمين كونه هاشمي الأبوين، ولم يجتمع ذلك لغيره من خلفاء بني العباس، ولعل في كرههم لآل برمك دافعاً لذلك، وهذا ما جعل أمراء بني العباس يقفون إلى جانب زبيدة في ذلك ويحرضون على هذا الأمر، وهذا شاعرهم محمد بن ذؤيب العماني يدخل على الرشيد يستثيره لتولية الأمين بعده فيقول:

لما أتانا خبر مُشَّهر
أغر لا يخفي على من يبصر
قلت لأصحابي ووجهي مسفر:
فاز بها محمد فأبشروا

فقال الرشيد: «أبشر يا عماني بولاية محمد العهد» قال: «أي والله يا أمير المؤمنين، بشرى الأرض المجدبة بالغيث، والمريض المدنف بالبرء» قال الرشيد: «ولِمَ ذاك؟؟» قال: «لأنه نسيج وحده، وحامي مجده، وموري زنده» قال: «فمالك في عبدالله؟؟» قال: «يا أمير المؤمنين، مرعى ولا كالسعدان» فضحك الرشيد، وقال: «قاتله الله من أعرابي، ما أعرفه بموضع الرغبة، وأسرعه إلى أهل البذل والفائدة، وأبعده عن أهل العزم والحزم»[1]

فهذا النص مناقض لما قبله، إذ يدل على رغبة الرشيد تولية الأمين، يظهر ذلك في قوله للشاعر: ما أعرفه بموضع الرغبة، وقد ذكر روح مولى الفضل بن يحيى البرمكي، أن عيسى بن جعفر قال للفضل:

«أنشدك الله لما عملت في البيعة لابن أختي زبيدة، فإنه ولدك، وخلافته لك»[2] فوعده ذلك، فلما تولى الفضل خراسان فرق في أهلها أموالاً كثيرة، وأعطى الجند أعطيات متتابعات، ثم دعا بالبيعة لمحمد الأمين بن الرشيد، فبايع الناس له،[3] فلما تناهى الخبر إلى الرشيد، عزم على البيعة لمحمد الأمين، فجمع الأمراء والقواد، ورجال الحاشية، وأحضر الفقهاء في مجلس عقده يوم ٦ شعبان ١٧٥هـ الموافق ٧٩١م، فقام أكبر بني العباس

(١) مروج الذهب للمسعودي ج ٣ ص ٢٣٥٢.
(٢) الفضل بن يحيى البرمكي هو المشرف على تربية الأمين، وقد حصل بينه وبين أخيه جعفر كلام بسبب تقديم كل منهما لواحد من أولاد الرشيد.
(٣) الطبري ج ٨ ص ٢٤٠ بتصرف.

سناً وهو: «عبدالصمد بن علي» وقال: «أيها الناس، لا يغرنكم صغر السن، فإنها الشجرة المباركة، أصلها ثابت وفرعها في السماء» وكان الأمين يومها لم يتجاوز الخامسة من العمر، فأخذت البيعة له، ولقبه أبوه «محمد الأمين» وولاه في الحال على بلاد الشام والعراق، وجعل ولايته تحت إدارة مربيه الفضل بن يحيى البرمكي.[1]

وقد عبّر الشاعر: سلم الخاسر عن ذلك فقال:

قد وفــقَ الله الخــليفــة إذ بنــى	بيت الخـليفــة للهـجــان الأزهــر
فهــو الخــليفــةُ عن أبـيه وجــده	شَهــداً عليه بمـنــظر وبمـخــبر
قد بايع الثقــلان في مهــد الهـدى	لمحـمــد بن زبيدةَ ابنــةِ جعفــر

والـذي نعتقده أن الاخبار التي جاءت تطعن في الأمين هي من وضع الشعوبيين الكارهين للعرب، الشانئين عليهم، فكيف وقد اجتمع للأمين ما لم يجتمع لغيره في عصره، فهو من أب وأم هاشميين، ولم يكن ذلك لغير علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

والمحـاورة التالية بين الكسائي والرشيد وولدي الرشيد تبين أنه لا يفضل أحدهما الآخر في عقل أو دين أو معرفة.

روى المسعودي في مروج الذهب ومعادن الجوهر ج٣ ص٣٤٩ وما بعدها: «وقال الكسائي: دخلت على الرشيد، فلما قضيت حق التسليم والدعاء وثبت للقيام، فقال: اقعد، فلم أزل عنده حتى خف عامة من كان في مجلسه، ولم يبق إلا خاصته، فقال لي: يا علي، ألا تحب ان ترى محمداً وعبدالله؟ قلت: ما أشوقني اليهما يا أمير المؤمنين، وأسرني بمعاينة نعمة الله على أمير المؤمنين فيهما، فأمر بإحضارهما، فلم ألبث أن أقبلا ككوكبي أفق يزينهما هدوء ووقار، وقد غضا أبصارهما، وقاربا خطوهما حتى وقفا على باب المجلس، فسلما على أبيهما بالخلافة، ودعوًا له، بأحسن الدعاء، فأمرهما بالدنو منه فدنوا فصير محمداً عن يمينه وعبدالله عن يساره، ثم أمرني ان استقرأهما وأسألهما؛ ففعلت، فما سألتهما عن شيء إلا أحسنا الجواب فيه والخروج منه، فسر بذلك الرشيد حتى تبينته فيه، ثم قال لي: يا علي، كيف ترى مذهبهما وجوابهما؟ فقلت: يا أمير المؤمنين هما كما قال الشاعر:

---

(١) اليعقوبي ج ٢ ص ٤٩٣.

أرى قمـري مجد وفـرعي خلافـة يزينهـما عرق كريم ومحـتـد

يا أمير المؤمنين هما فرع زكا أصله ، وطاب مغرسه ، وتمكنت في الثرى عروقه ، وعذبت مشاربه ، أبوهما أغر، نافذ الأمر، واسع العلم ، عظيم الحلم ، يحكمان بحكمه ، ويستضيئان بنوره ، وينطقان بلسانه ، ويتقلبان في سعادته ، فأمتع الله أمير المؤمنين بهما ، وآنس جميع الأمة ببقائه وبقائهما ثم قلت لهما : هل ترويان من الشعر شيئاً؟ فقالا : نعم ، ثم أنشدني محمد :

وإني لعـفُّ الفقـر مشـترك الغنى وتـارك شكـل لا يوافقـه شكـلي
واجـعـل مالي دون عرضي جُنَّـة لنفسي، ومفضال بما كان من فضل

ثم أنشد عبدالله :

بكـرت تلومُـكَ مطلع الـفـجـر ولـقـد تلوم بغـير ما تدري
ملكَ الأمـور عليّ مقـتـدر يُعـطِي إذا ما شاء من يُسر
ولـرب مغـتـبط بمـرزئـة ومـفـجـع بنـوائـب الـدهـر
وتـرى قنـاتي حين يغـمـدهـا عضُّ الـثـقـاف بطيئـة الـكسر

فما رأيت أحداً من أولاد الخلفاء وأغصان هذه الشجرة المباركة أذرَب ألسنا ولا أحسن ألفاظاً ولا أشد اقتداراً على تأدية ما حفظا منها، ودعوت لهما دعاء كثيراً ، وأمَّن الرشيد على دعائي ، ثم ضمهما اليه ، وجمع يده عليهما ، فلم يبسطها حتى رأيت الدموع تنحدر على صدره ، ثم أمرهما بالخروج ، فلما خرجا أقبل علي فقال : كأنك بهما وقد حُمّ القضاء ، ونزلت مقادير السماء ، وبلغ الكتاب أجله ، قد تشتت كلمتهما ، واختلف أمرهما ، وظهر تعاديهما ، ثم لم يبرح ذلك بهما حتى تسفك الدماء ، وتقتل القتلى ، وتهتك ستور النساء ، ويتمنى كثير من الأحياء أنهم في عداد الموتى ، قلت : أيكون ذلك يا أمير المؤمنين لأمر رؤي في أصل مولدهما أو لأثر وقع لأمير المؤمنين في مولدهما؟ فقال : لا والله إلا بأثر واجب حملته العلماء عن الأوصياء عن الأنبياء» . [1]

لقد اتضح من هذه المحاورة أنهما كفرسي رهان لا يسبق أحدهما الآخر في دين أو

(١) مروج الذهب ج ٣ ص ٣٤٩ وما بعدها.

علم أو فضل، وإن كان الحق إلى جانب عبدالله المأمون لأنه الأكبر سناً. وقد ولد قبل أخيه بستة أشهر، ولا عبرة في الفضل بالحسب والنسب، فلما تساويا في الفضل كان الأكبر أولى بالخلافة من أخيه[1].

ولم يكتف الرشيد بالبيعة لولده الأمين من بعده، فعقد البيعة لولده عبدالله على أن تكون ولاية العهد له من بعد أخيه الأمين، وذلك في سنة ثنتين وثمانين ومائة «١٨٢هـ»، وقد أمضى هذا بعد عودته من الحج، فبعث بالمأمون من الرقة إلى بغداد ومعه جعفر البرمكي، وقد ولاه خراسان وما يتصل بها، وسماه: «المأمون».

وفي سنة ست وثمانين ومائة عقد الرشيد ولاية العهد بعد ولديه الأمين والمأمون لولده القاسم وسماه «المؤتمن»، ولكن الموت عاجل القاسم فلم يكن له من الأمر شيئا.

وفي هذا العام حج الرشيد ومعه الأمين والمأمون، وجلة بني هاشم والقواد والكتّاب، ولم يتخلف عن الحج أحد له ذكر وقدر، فلما وصل المدينة أعطى أهلها أعطيات كثيرة، ثم غادرها إلى مكة.

«ولّما صار إلى مكة صعد المنبر، فخطب، ثم نزل فدخل البيت» ودعا بمحمد والمأمون، فأملى على محمد كتاب الشرط على نفسه، وكتب محمد الكتاب، وأحلفه على ما فيه، وأخذ عليه العهود والمواثيق، وفعل بالمأمون مثله، وأخذ عليه مثل ذلك.

كتاب العهد الذي كتبه الأمين:

كتب الأمين بخط يده: بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب لعبدالله هارون أمير المؤمنين، كتبه محمد بن هارون في صحّة من بدنه وعقله وجواز من أمره. إنّ أمير المؤمنين هارون ولاّني العهد من بعده، وجعل لي البيعة في رقاب المسلمين جميعاً، وولّى أخي عبدالله ابن أمير المؤمنين العهد والخلافة وجميع أمور المسلمين بعدي برضى منّي وتسليم، طائعاً غير مكره، وولاّه خراسان بثغورها وكورها، وأجنادها وخراجها وطرازها،

---

(١) يذهب كثير من المؤرخين إلى أن الشعوبية لعبت دورا كبيرا في تشويه سيرة الأمين.

وبريدها، وبيوت أموالها وصدقاتها وعُشرها وعُشورها، وجميع أعمالها في حياته وبعد موته، وشرطت لعبدالله أخي عليّ الوفاء بما جعل له هارون أمير المؤمنين من البيعة والعهد والولاية والخلافة وأمور المسلمين بعدي، وتسليم ذلك له وما جعل له من ولاية خراسان وأعمالها، وما أقطعه هارون أمير المؤمنين من قطيعة، وجعل له من عُقدة، أو ضيعة من ضياعه وعُقَده، أو ابتاع من الضياع والعُقَد، وما أعطاه في حياته من مال، أو حلى، أو جوهر، أو متاع، أو كسوة، أو رقيق، قليلا أو كثيراً، فهو لعبدالله ابن أمير المؤمنين أخي، موفَّراً عليه مسلَّماً له. وقد عرفت ذلك كلّه شيئاً شيئاً باسمه وأصنافه ومواضعه أنا وأخي عبدالله بن هارون، فإن اختلفنا في شيء منه، فالقول فيه قول عبدالله أخي لا أنتقصه صغيراً ولا كبيراً من ماله، ولا من ولايته خراسان وأعمالها، ولا أعزله عن شيء منها، ولا أستبدل به غيره، ولا أخلعه، ولا أقدّم عليه في العهد والخلافة أحداً من الناس جميعاً، ولا أدخل عليه مكروهاً في نفسه ولا دمه، ولا خاصّ ولا عامّ من أموره وولايته، ولا أمواله، ولا قطائعه، ولا عُقده، ولا أغيّر عليه شيئا بسبب من الأسباب، ولا آخذ أحداً من كتّابه وعمّاله، وولاة أموره، ممّن صحبه وأقام معه، بمحاسبة في ولاية خراسان وأعمالها وغيرها مما ولاه هارون أمير المؤمنين في حياته وصحتّه من الجباية، والأموال، والطراز، والبريد، والصدقات، والعشر والعشور، وغير ذلك من ولايتها، ولا آمر بذلك أحداً، ولا أرخّص فيه لغيري، ولا أحدّث نفسي فيه بشيء أمضيه عليه، ولا ألتمس قطيعته، ولا أنقض شيئاً مما جعل له هارون أمير المؤمنين وأعطاه في حياته، وخلافته، وسلطانه من جميع ما سمّيت في كتابي هذا، وأخذ له عليّ وعلى جميع الناس للبيعة، ولا أرخّص لأحد من الناس كلّهم في خلعه، ولا مخالفاته، ولا أسمع من أحد من البريّة في ذلك قولاً، ولا أرضى به في سرّ ولا علانية، ولا أغمض عليه، ولا أتغافل عنه، ولا أقبل من برّ من العباد، ولا فاجر، ولا صادق، ولا كاذب، ولا ناصح، ولا غاشّ، ولا قريب، ولا بعيد، ولا أحد من ولد آدم، ذكراً وأنثى، مشورة، ولا حيلة، ولا مكيدة في شيء من الأمور سرّها وعلانيتها، وحقّها وباطلها، وباطنها وظاهرها، ولا سبب من الأسباب أريد بذلك إفساد شيء ممّا أعطيت عبدالله بن هارون أمير المؤمنين من نفسي وشرطت في كتابي هذا عليّ، وأوجبت على نفسي، وشرطت وسميت، وإن أراد أحد من الناس شرّاً، أو مكروهاً، أو خلعا، أو محاربة، أو الوصول إلى نفسه ودمه، أو حرمه، أو ماله، أو سلطانه، أو ولايته جميعاً، أو فُرادَى مُسرّين ذلك أو مُظْهِرين له، أن أنصرَه

وأحوطه وأدفع عنه، كما أدفع عن نفسي، ومهجتي، ودمي، وشعري، وبشري، وحرمي وسلطاني، وأجهز الجنود إليه، وأعينه على كلّ من أعنتّه وخالفه، ويكون أمري وأمره في ذلك واحداً أبداً ما كنت حيّاً، ولا أخذله، ولا أسلمه، ولا أتخلى عنه.

وإن حدث بهارون حدث الموت، وأنا وعبدالله بحضرة أمير المؤمنين، أو أحدنا، أو كنّا غائبين عنه، مجتمعين كنّا أو مفترقيْن، وليس عبدالله بن هارون في ولايته بخراسان، فعليّ لعبدالله بن هارون، أمير المؤمنين، أن أمضيه إلى خراسان، وأسلم له ولايتها وأعمالها كلها، وجنودها، ولا أعوقه عنها، ولا أحبسه قِبَلي، ولا في شيء من البلدان دون خراسان، وأعجل إشخاصه إليها والياً عليها وعلى جميع أعماله، مفرداً بها، مفوّضاً إليه أعمالها كلّها، وأشخص معه جميع من ضمّ إليه أمير المؤمنين من قوّاده، وجنوده، وأصحابه، وكتابه، ومواليه، وخدمه، ومن تبعه من صنوف الناس بأموالهم وأهليهم، ولا أحبس عنه أحداً منهم، ولا أشرك معه في شيء منها أحداً، ولا أبعث إليه أميناً، ولا كاتباً، ولا بنداراً، ولا أضرب على يديه في قليل وكثير.

وأعطيت أمير المؤمنين هارون وعبدالله بن هارون، على ما شرطت لهما على نفسي من جميع ما سميت وكتبت في كتابي هذا، عهد الله، وميثاقه، وذمة أمير المؤمنين وذمتي، وذمم آبائي، وذمم المؤمنين، وأشد ما أخذ الله على النبيين، والمرسلين، وخلقه أجمعين، من عهوده ومواثيقه، والأيمان المؤكدة التي أمر الله بالوفاء بها ونهى عن نقضها وتبديلها، فإن أنا نقضت شيئاً مما شرطت لهارون ولعبدالله بن هارون أمير المؤمنين، أو بدلت، أو حدثت في نفسي أن أنقض شيئاً مما أنا عليه، أو قبلت من أحد من الناس، فبرئت من الله، من ولايته، ومن دينه، ومن محمد رسول الله، ولقيت الله يوم القيامة كافراً به ومشركاً، وكل امرأة هي في اليوم لي، أو تزوجتها الى ثلاثين سنة طالق ثلاثاً البتة، طلاق الحرج والسنة، وعليّ المشي إلى بيت الله الحرام ثلاثين حجة نذراً واجباً في عنقي، حافياً، راجلاً، لا يقبل الله مني إلا الوفاء بذلك، وكل مال هو لي اليوم، أو أملكه إلى ثلاثين سنة هدي بالغ الكعبة الحرام، وكل مملوك هو لي اليوم أو أملكه إلى ثلاثين سنة أحرار لوجه الله عز وجل، وكل ما جعلت لأمير المؤمنين ولعبدالله ابن أمير المؤمنين، وكتبته، وشرطته لهما، وحلفت عليه، وسميت في كتابي هذا، لازم لي الوفاء به، ولا أضمر غيره ولا أنوي إلاّ إياه، فإن أضمرت، أو نويت غيره،

فهذه العهود والأيمان كلها لازمة لي، واجبة علي، وقواد أمير المؤمنين، وجنوده، وأهل الآفاق والأمصار، وعوام المسلمين براء من بيعتي، وخلافتي، وعهدي، وهم في حل من خلعي، وإخراجي من ولايتي عليهم، حتى أكون سوقة من السوق، وكرجل من عرض الناس، ولا حق لي عليهم، ولا ولاية، ولا بيعة لي في أعناقهم، وهم في حل من الأيمان التي أعطوني، وبراء من تبعتها ووزرها في الدنيا والآخرة، وكتبه محمد بن هارون بخطه.

شهد سليمان ابن أمير المؤمنين المنصور، وعيسى بن جعفر، وجعفر بن جعفر، وعبيدالله بن المهدي، وجعفر بن موسى أمير المؤمنين، وإسحاق بن عيسى بن علي، وعيسى بن موسى ابن أمير المؤمنين، وإسحاق بن موسى أمير المؤمنين، وأحمد بن اسماعيل ابن علي، وسليمان بن جعفر بن سليمان، وعيسى بن صالح بن علي، وداود بن عيسى بن موسى، وداود بن سليمان بن جعفر، ويحيى بن عيسى بن موسى، ويحيى بن خالد، وخزيمة بن خازم، وهرثمة بن أعين، وعبدالله بن الربيع، والفضل بن الربيع، والعباس بن الفضل، والقاسم بن الربيع، ودقاقة بن عبدالعزيز، وسليمان بن عبدالله بن الأصم. . .، ومحمد بن عبدالرحمن قاضي مكة، وعبدالكريم الحجبي، وابراهيم بن عبدالرحمن الحجبي، وإبان مولى أمير المؤمنين، والحارث مولى أمير المؤمنين، وخالد مولى أمير المؤمنين، ومحمد بن منصور، واسماعيل بن صبيح». وكتب في ذي الحجة سنة ١٨٦ هـ.

نسخة الشرط الذي كتبه عبدالله ابن أمير المؤمنين بخطه في البيت:

«بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب لعبدالله هارون أمير المؤمنين، كتبه له عبدالله ابن هارون أمير المؤمنين في صحة من عقله، وجواز من أمره، وصدق نيته فيما كتب في كتابه هذا، ومعرفته بما فيه من الفضل والصلاح له، ولأهل بيته، وجماعة المسلمين: إن أمير المؤمنين ولاني العهد والخلافة، وجميع أمور المسلمين في سلطانه بعد أخي محمد بن هارون أمير المؤمنين، وولاني في حياته، وبعد موته، ثغور خراسان، وكورها، وجميع أعمالها من الصدقات. والعشر، والعشور، والبريد، والطراز، وغير ذلك، واشترط لي على محمد بن هارون أمير المؤمنين الوفاء بما عقد لي من الخلافة، والولاية للعباد والبلاد بعده، وولاية خراسان، وجميع أعمالها، لا يعرض لي في شيء مما أقطعني أمير المؤمنين، أو ابتاع لي من الضياع، والعقد، والدور، والرباع، أو ابتعت لنفسي من ذلك، وما أعطاني أمير المؤمنين

هارون من الأموال، والجوهر، والكساء، والمتاع، والدواب، في سبب محاسبة لأصحابي، ولا يتبع لأحد منهم أبداً، ولا يدخل علي، ولا على أحد كان معي ومني، ولا عمالي ولا كتابي، ومن استعنت به من جميع الناس، مكروها في نفس، ولا دم، ولا شعر، ولا بشر، ولا مال، ولا صغير، ولا كبير، فأجابه إلى ذلك، وأقر به، وكتب بذلك كتاباً، وكتبه على نفسه، ورضي به هارون أمير المؤمنين، وعرف صدق نيته، فشرطت لعبدالله هارون أمير المؤمنين، وجعلت له على نفسي أن أسمع لمحمد ابن أمير المؤمنين، وأطيعه ولا أعصيه، وأنصحه ولا اغشه، وأوفي ببيعته وولايته، ولا أغدر، ولا أنكث، وأنفذ كتبه وأموره، وأحسن مؤازرته ومكانفته، وأجاهد عدوه في ناحيتي ما وفى لي بما شرط لي ولعبدالله هارون أمير المؤمنين، ورضي لي به، وقبلته ولا انتقص شيئاً من ذلك، ولا انتقص أمراً من الأمور التي شرطها لي عليه أمير المؤمنين، فإن احتاج محمد ابن أمير المؤمنين إلى جند، وكتب إليّ يأمرني بإشخاصهم إليه، أو إلى ناحية من النواحي، أو عدو من أعدائه خالفه، وأراد نقص شيء من سلطانه الذي أسنده هارون أمير المؤمنين إلينا، وولاناه، أن أنفذ أمره، ولا أخالفه، ولا أقصر في شيء كتب به إليّ، وان أراد محمد ابن أمير المؤمنين أن يولّي رجلاً من ولده العهد من بعدي، فذلك له ما وفى بما جعل لي أمير المؤمنين هارون، واشترط لي عليه، وشرطه على نفسه في أمري، وعلي انفاذ ذلك، والوفاء به، ولا أنقض ذلك، ولا أغيره، ولا أبدله، ولا أقدم قبله أحداً من ولدي، ولا قريباً، ولا بعيداً من الناس أجمعين، إلاّ أن يولّي هارون أمير المؤمنين أحداً من ولده العهد بعدي، فيلزمني ومحمد الوفاء بذلك.

وجعلت لأمير المؤمنين هارون ولمحمد ابن أمير المؤمنين عليّ الوفاء بما شرطت وسميت في كتابي هذا، ما وفى لي محمد ابن أمير المؤمنين بجميع ما اشترط لي هارون أمير المؤمنين في نفسي، وما أعطاني أمير المؤمنين من جميع الأشياء المسماة في الكتاب الذي كتبه له، وعلي عهد الله وميثاقه، وذمة أمير المؤمنين وذمتي، وذمم آبائي، وذمم المؤمنين، وأشد ما أخذ الله على النبيين والمرسلين، وخلقه أجمعين، من عهوده ومواثيقه، والأيمان المؤكدة التي أمر الله بالوفاء بها، فإن أنا نقضت شيئاً مما شرطت وسميت في كتابي هذا، أو غيرت، أو بدلت، أو نكثت، أو غدرت، فبرئت من الله، ومن ولايته، ومن دينه ومن محمد رسول الله، ولقيت الله يوم القيامة كافراً به مشركاً، وكل امرأة هي اليوم لي، أو أتزوجها إلى ثلاثين سنة طالق ثلاثاً البتة، طلاق الحرج، وكل مملوك لي اليوم، أو أملكه إلى ثلاثين سنة، أحرار لوجه الله،

وعلي المشي إلى بيت الله الحرام الذي بمكة ثلاثين حجة نذراً واجباً عليّ، وفي عنقي، حافياً راجلاً، لا يقبل الله مني إلاّ الوفاء به، وكل مال هو لي اليوم، أو أملكه إلى ثلاثين سنة هدي بالغ الكعبة، وكل ما جعلت لعبدالله هارون أمير المؤمنين وشرطت في كتابي هذا لازم لي لا أضمر غيره ولا أنوي سواه».

ثم شهد الشهود الذين شهدوا على أخيه محمد ابن أمير المؤمنين، وأقام الرشيد الحج للناس، وأمر بتعليق هذين الكتابين، فعلقا أيام الموسم على باب الكعبة، وقرئا على الناس عدة مرار، وجعلا في الكعبة.[1]

ثم كتب الرشيد إلى عماله يخبرهم بما عزم عليه من أمر ولاية العهد، وهذا نص كتابه:

«بسم الله الرحمن الرحيم. أما بعد: فإن الله ولّى أمير المؤمنين وولّيّ ما ولاه، والحافظ لما استرعاه وأكرمه به من خلافته وسلطانه، والصانع له فيما قدم وأخر من أموره، والمنعم عليه بالنصر والتأييد في مشارق الأرض ومغاربها، والكالىء والحافظ والكافي من جميع خلقه؛ وهو المحمود على جميع آلائه، المسؤول تمام حسن ما أمضى من قضائه لأمير المؤمنين، وعادته الجميلة عنده، وإلهام ما يرضى به، ويوجب له عليه أحسن المزيد من فضله. وقد كان من نعمة الله عز وجل عند أمير المؤمنين وعندك وعند عوام المسلمين ما تولى الله من محمد وعبدالله ابني أمير المؤمنين، من تبليغه بهما أحسن ما أملت الأمة، ومدت إليه أعناقها، وقذف الله لهما في قلوب العامة من المحبة والمودة والسكون إليهما والثقة بهما، لعماد دينهم، وقوام أمورهم؛ وجمع ألفتهم، وصلاح دهمائهم، ودفع المحذور والمكروه من الشتات والفرقة عنهم؛ حتى ألقوا إليهما أزمتهم، وأعطوهما بيعتهم وصفقات أيمانهم، بالعهود والمواثيق ووكيد الأيمان المغلظة عليهم. أراد الله فلم يكن له مرد، وأمضاه فلم يقدر أحد من العباد على نقضه ولا إزالته، ولا صرف له عن محبته ومشيئته، وما سبق في علمه منه. وأمير المؤمنين يرجو تمام النعمة عليه وعليهما في ذلك وعلى الأمة كافة؛ لا عاقب لأمر الله ولا راد لقضائه، ولا معقب لحكمه.

ولم يزل أمير المؤمنين منذ اجتمعت الأمة على عقد العهد لمحمد ابن أمير المؤمنين من

---

(١) تاريخ اليعقوبي، المجلد الثاني ص ٤١٦ وما بعدها.

بعد أمير المؤمنين ولعبدالله ابن أمير المؤمنين من بعد محمد ابن أمير المؤمنين، يُعمل فكرَه ورأيه ونظرّه ورويته فيما فيه الصلاح لهما ولجميع الرعية والجمع للكلمة، واللم للشعث، والدفع للشتات والفرقة، والحسمْ لكيْد أعداء النِّعَم؛ من أهل الكفر والنفاق والغل والشقاق، والقطع لآمالهم من كل فرصة يرجون إدراكها وانتهازها منهما بانتقاص حقهما. ويستخير الله أمير المؤمنين في ذلك، ويسأله العزيمة له على ما فيه الخيرة لهما ولجميع الأمة، والقوة في أمر الله وحقه وائتلاف أهوائهما، وصلاح ذات بينهما، وتحصينهما من كيد أعداء النعم، ورد حسدهم ومكرهم وبغيهم وسعيهم بالفساد بينهما.

فعزم الله لأمير المؤمنين على الشخوص بهما إلى بيت الله، وأخذ البيعة منهما لأمير المؤمنين بالسمع والطاعة والإنفاذ لأمره، واكتتاب الشرط على كل واحد منهما لأمير المؤمنين ولهما بأشد المواثيق والعهود، وأغلظ الأيمان والتوكيد، والأخذ لكل واحد منهما على صاحبه بما التمس به أمير المؤمنين اجتماع ألفتهما ومودتهما وتواصلهما وموازرتهما ومكانفتهما على حسن النظر لأنفسهما ولرعية أمير المؤمنين التي استرعاهما، والجماعة لدين الله عز وجل وكتابه وسنن نبيه ﷺ، والجهاد لعدو المسلمين؛ من كانوا وحيث كانوا، وقطع طمع كل عدو مظهر للعداوة، ومسر لها، وكل منافق ومارق، وأهل الأهواء الضالة المضلة من تكيد بكيد توقعه بينهما، وبدحس[1] يدحس به لهما، وما يلتمس أعداء الله وأعداء النعم وأعداء دينه من الضرب بين الأمة، والسعي بالفساد في الأرض، والدعاء إلى البدع والضلالة؛ نظراً من أمير المؤمنين لدينه ورعيته وأمة نبيه محمد ﷺ ومناصحة لله ولجميع المسلمين، وذبًّا عن سلطان الله الذي قدره، وتوحد فيه للذي حمله إياه، والاجتهاد في كل ما فيه قربة إلى الله، وما ينال به رضوانه، والوسيلة عنده.

فلما قدم مكة أظهر لمحمد وعبدالله رأيه في ذلك، وما نظر فيه لهما، فقبلا كل ما دعاهما إليه من التوكيد على أنفسهما بقبوله، وكتبا لأمير المؤمنين في بطن بيت الله الحرام بخطوط أيديهما، بمحضر ممن شهد الموسم من أهل بيت أمير المؤمنين وقواده وصحابته وقضاته وحجبة الكعبة وشهاداتهم عليهما كتابين استودعهما أمير المؤمنين الحجبة، وأمر بتعليقهما في داخل الكعبة.

---

(١) الدحس: الفساد.

فلما فرغ أمير المؤمنين من ذلك كله في داخل بيت الله الحرام وبطن الكعبة، أمر قضاته الذين شهدوا عليهما، وحضروا كتابهما، أن يعلموا جميع من حضر الموسم من الحاجّ والعُمّار ووفود الأمصار ما شهدوا عليه من شرطهما وكتابهما، وقراءة ذلك عليهم ليفهموه ويعوه، ويعرفوه ويحفظوه، ويؤدوه إلى إخوانهم وأهل بلدانهم وأمصارهم، ففعلوا ذلك، وقرىء عليهم الشرطان جميعاً في المسجد الحرام، فانصرفوا وقد اشتهر ذلك عندهم، وأثبتوا الشهادة عليه، وعرفوا نظر أمير المؤمنين وعنايته بصلاحهم وحقن دمائهم، ولمّ شعثهم وإطفاء جمرة أعداء الله؛ أعداء دينه وكتابه وجماعة المسلمين عنهم، وأظهروا الدعاء لأمير المؤمنين والشكر لما كان منه في ذلك.

وقد نسخ لك أمير المؤمنين ذينك الشرطين اللذين كتبهما لأمير المؤمنين ابناه محمد وعبدالله في بطن الكعبة في أسفل كتابه؛ هذا فأحمد الله عز وجل على ما صنع لمحمد وعبدالله وليّي عهد المسلمين حمداً كثيراً، وأشكره ببلائه عند أمير المؤمنين وعند وليّيْ عهد المسلمين وعندك وعند جماعة أمة محمد ﷺ كثيراً.

واقرأ كتاب أمير المؤمنين على من قبلك من المسلمين، وأفهمهم إياه وقم به بينهم، وأثبته في الديوان قبلك وقبل قواد أمير المؤمنين ورعيته قبلك، واكتب إلى أمير المؤمنين بما يكون في ذلك، إن شاء الله وحسبنا الله ونعم الوكيل وبه الحول والقوة والطول.

وكتب اسماعيل بن صبيح يوم السبت لسبع ليال بقين من المحرم سنة ستة وثمانين ومائة. [1]

والجدير بالذكر: أن الأيمان المغلظة، والعهود الموثقة، التي أخذها الرشيد على ولديه لم تدفع عن ولديه ما كان يخافه، فقد حاول الأمين نزع ولاية العهد من أخيه المأمون لولده، ووقع الخلف بين الأخوين حيث أدى إلى قتل الأمين، واستلام المأمون الخلافة من بعده.

كذلك نلفت نظر القارىء إلى أن الرشيد بعد عودته من هذه الحجة، وبعد أن ضمن الخلافة لأولاده من بعده، ولم يعد يخشى ذهابها عنهم بموجب العهود والمواثيق التي أخذها على أولاده، وأشهد عليها الأمراء والقواد، وقرأها على المسلمين، ثم علقها في الكعبة. أمر بالبطش بالبرامكة.

---

(١) تاريخ الطبري ج ٨ ص ٢٨٦ وما قبلها

الباب الرابع

علاقات الرشيد الخارجية

الفصل الأول

علاقة الرشيد بالروم:

يشهد التاريخ بسوء علاقة الرشيد بالروم منذ أيام صباه، فقد جهز له والده المهدي جيشاً عرمرماً سنة ١٦٣هـ وأرسله لحرب الروم وجهادها، وقد ضم جيشه هذا كبار القواد والأمراء والأعيان عدا الجند والعتاد والمؤن، وسار المهدي في وداعه حتى مسافة بعيدة، وقد توغل الرشيد في حدود الروم، وفتح الله عليه بعض حصونها، ثم عقد صلحاً مع أهلها وعاد سالماً غانماً إلى بغداد.

ولم يكتف هارون بهذا النصر في تلك الغزوة العاجلة، فجهز له والده المهدي جيشاً أكثر عُدة وأقوى عتاداً، وتوجه إلى حدود الروم سنة ١٦٥هـ غازياً في سبيل الله، فتوغل كثيراً في بلاد الروم، حتى أنه شرط في أثناء صلحه مع ايريني امبراطورية الروم أن تقيم له الأدلاء خوفاً على جيشه أن يضل الطريق، وذلك لعمق دخوله في بلاد الروم.

وفي هذه الغزوة وقع مع ايريني الوصية على ابنها قسطنطين صلحاً تدفع له بموجبه تسعين ألفاً من الدنانير جزية عنها وعن شعوب مملكتها، ورجع إلى بغداد وقد أقيمت الأفراح والمهرجانات ابتهاجاً بهارون محقق هذا النصر.

هذه علاقة هارون مع الروم قبل أن تفضي إليه الخلافة، ولننتقل الآن إلى أيام خلافته.

من المشهور عن الرشيد، أنه كان يحج عاما ويغزو عاما، وقد أطلق على غزو الروم لفظ الصائفة، ويعنون بذلك البلاد التي يغزونها صيفاً، إذ إن حملاتهم ضد الروم كانت في الصيف من كل عام، ويندر أن يغزوها في الشتاء لشدة بردها، وقساوة طقسها.

لقد استفتح الرشيد عهده بغزوة سريعة إلى بلاد الروم، ثم عاد منها إلى الحج، وكان ذلك بعد مبايعته بالخلافة،[1] كما أنه قام بعزل الثغور كلها عن الجزيرة وقنسرين، وجعلها حيزاً واحداً قاعدته ومركزه منبجاً، ويشرف عليها عبدالملك بن صالح العباسي، وقد سميت بالعواصم، لأن المسلمين يعتصمون بها، ويتمنعون بها عن العدو، كما عمرت طرسوس وهي من الحصون الإسلامية المنيعة التي أمر بعمارتها هارون الرشيد، ونزلها الناس وأقاموا فيها.

في سنة ١٧٢هـ غزا الصائفة «بلاد الروم» إسحاق بن سليمان بن على. كما غزا عبدالملك بن صالح الصائفة سنة ١٧٤هـ فدخل بلاد الروم، واستمر في غزوه مدة طويلة، وفتح بلداناً كثيرة، ولم يكتف عبدالملك بالغزو بنفسه بل دفع ولده عبدالرحمن لغزو الصائفة سنة ١٧٥هـ الذي وصل في جهاده إلى إقريطية وتمكن من فتحها، وفتح بعض الحصون في سنة ١٧٦هـ على الرغم مما أصابهم من برد شديد جمدت به بعض أطرافهم.

وفي سنة ١٧٧هـ غزا الصائفة عبدالرزاق بن عبدالحميد التغلبي، كما غزاها في سنة ١٧٨هـ معاوية بن زُفر بن عاصم، وقد أغزى معاوية ابنه محمداً للصائفة سنة ١٨٠هـ.

ولقد غزا الرشيد بنفسه الروم سنة ١٨١هـ ففتح حصناً يقال له: «الصفصاف»، وقد مدحه الشاعر: مروان بن أبي حفصة قائلاً:

إن أمير المؤمنين المنصفا ... قد ترك الصفصاف قاعاً[2] صفصفا[3]

---

(١) ذكر ذلك جمع من المؤرخين منهم الطبري وابن كثير وابن الأثير.

(٢) قاعاً: الارض المستوية السهلة.

(٣) صفصفا: المستو السهل.

وفي هذه السنة كذلك غزا عبدالملك بن صالح أرض الروم، واشتبك مع جيشهم في «هراقليا» واستمر في حربه حتى وصل «أنقرة».

وافتتح مطمورة، «ولقد أشرف القاسم بن الرشيد على إجراء الفداء بين الروم والمسلمين، فنودي بكل أسير في بلاد الروم، وكان عدتهم ثلاثة آلاف وسبعمائة، وكان ذلك أول فداء في دولة بني العباس»[1] وكان ذلك في ثغر طرسوس

وفي السنة التالية «١٨٢ هـ» غزا عبدالرحمن بن عبدالملك بن صالح الروم فوصل في عمقهم إلى مدينة أفسوس، مدينة أهل الكهف الذين ورد ذكرهم في سورة «الكهف» في القرآن الكريم، وقد انهزم نقفور قائد البيزنطيين في هراقليا، واضطرت أرين الامبراطورة إلى توقيع الصلح مع الرشيد ودفع الجزية له.

في هذه السنة «١٨١ هـ» قامت الروم بسمل عيني ملكهم قسطنطين بن أليون وخلعوه، وأقروا أمه «ايرين» على عرش المملكة وذلك سنة ١٨١هـ، فلما كان عام ١٨٧ قام الروم على ملكتهم «أيرين» الملقبة «أغسطة» وسملوا عينيها، وخلعوها عن العرش، ثم ملكوا أمرهم لرجل منهم يدعى نقفور.

وقد مكن الله هذه السنة ١٨٧هـ للقاسم بن الرشيد بدخول أرض الروم، حيث حاصر قره، ووجه العباس بن جعفر بن محمد بن الأشعث إلى حصن سنان فحاصره كذلك، حتى جهد أهلها، فافتدى الروم أنفسهم منها بدفع عدد كبير من أسرى المسلمين - كانوا لديهم - إلى القاسم، فقبل القاسم بذلك ورحل عنهم.

يذكر ابن الأثير - جـ: ٦ ص: ١٨٩ - أن الرشيد «أغزى ابنه القاسم الصائفة سنة ١٨٧ هـ، فوهبه لله، وجعله قرباناً له، وولاه العواصم.

وفي هذه السنة تم تنصيب نقفور امبراطوراً على الروم باسم «نقفور الأول» وكان أول أعماله ضد المسلمين نقض العهد معهم، ومكاتبته للرشيد برد ما أخذ من جزية.

---

(١) الكامل في التاريخ لابن الاثير ج ٦ ص: ١٥٩.

يقول ابن الأثير:

«فلما استوثقت الروم لنقفور كتب إلى الرشيد: «من نقفور ملك الروم إلى هارون ملك العرب، أما بعد فإن الملكة التي كانت قبلي أقامتك مقام الرخ، وأقامت نفسها مقام البيدق، فحملت إليك من أموالها ما كنت حقيقاً بحمل أضعافها إليها، لكن ذلك ضعف النساء، وحمقهن، فإذا قرأت كتابي هذا فاردد ما حصل لك من أموالها، وافتد نفسك بما تقع به المصادرة لك، وإلاّ فالسيف بيننا وبينك.

فلما قرأ الرشيد الكتاب استفزه الغضب، حتى لم يقدر أحد أن ينظر إليه دون أن يخاطبه، وتفرق جلساؤه، فدعا بدواة، وكتب على ظهر الكتاب: «**بسم الله الرحمن الرحيم**» من هارون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم؛ لقد قرأت كتابك يا ابن الكافرة، والجواب ما تراه دون ما تسمعه، والسلام». ثم سار من يومه حتى نزل على هرقلة ففتح وغنم وأحرق وخرب، فسأله نقفور المصالحة على خراج يحمله كل سنة، فأجابه إلى ذلك.

فلما رجع من غزوته وصار بالرقة نقض نقفور العهد، وكان البرد شديداً، فأمن رجعة الرشيد إليه، فلما جاء الخبر بنقضه ما جسر أحد على إخبار الرشيد، فاحتيل له بشاعر من أهل جنده، وهو أبومحمد عبدالله بن يوسف، وقيل هو الحجاج بن يوسف التيمي، فقال أبياتاً منها:

نَقَضَ الـذي أعْـطيتـهُ نِقْـفـورُ ... وعـليهِ دائـرةُ الـبـوارِ تدورُ
أبْشرْ أمـيرَ المـؤمـنـين فإنـه ... غُنـمٌ أتـاكَ بهِ الإلـهُ كبـيرُ[1]
فلقـدْ تبـاشرتِ الـرعيَّةُ أنْ أتى ... بالـنـقضِ عنـهُ وافـدٌ وبـشـيرُ
ورجـتْ يمينَـكَ أنْ تعجـلَ غزوةً ... تشفي النفـوسَ مكـانُها مذكـورُ
أعـطاكَ جزيتـهُ وطـأطـأ خدهُ ... حذرَ الـصـوارمِ والـرَّدى محذور
فأجـرتَـه من وقـعِـهـا وكـأنَّها ... بأكـفِّـنـا شُعـلُ الضِّرامِ تطيرُ
وصرفتَ بالـطولِ العساكِرِ قافِلا ... عنـهُ وجـارُك آمـنٌ مسرورُ
نِقفـورُ إنَّـك حين تغـدرُ إن نأى ... عنـكَ الإمـامُ لجاهِـل مغـرورُ

(١) إلى هنا لابن الأثير، وما بعده في الطبري

أظننت حين غدَرْتَ أنـك مفلتٌ ... هبلتْـك أمُـك ما ظننتَ غُرورا
ألقـاكَ حَيْنُـك في زواجـر بحره ... فَطمتْ عليكَ مِنَ الإمـام بحورُ
إنَّ الإمـامَ على اقْـتسـارِكَ قادرٌ ... قرُبـتْ ديارُكَ أمْ نأتْ بكَ دورُ
ليسَ الإمـامَ وإنْ غفلنـا غافِـلا ... عمّا يسـوسُ بحـزمـهِ ويديرُ
مَلكٌ تجرَّد للجـهـادِ بنـفـسـهِ ... فعـدوُّهُ أبـداً بهِ مقـهـورُ
يا مَنْ يُريدُ رضَـا الإلـهِ بسـعـيهِ ... واللهِ لا يخفَـى عليْهِ ضمـيرُ
لا نُصْـح ينفـعُ منْ يغشُّ إمـامهُ ... والنصـحُ منْ نصحـائـهِ مشكـورُ
نصـحُ الإمـامِ على الأنـامِ فريضةٌ ... ولأهـلِهـا كفَّـارةٌ وطـهـورُ

وقال التيمي:

لجَّتْ بنقفـورَ أسبـابُ الـردى عبثَـا ... لمَّا رأتـهُ بغـيلِ الـليثِ قد عَبثـا
ومـنْ يزر غِيلهُ لا يخلُ من فزعٍ ... إنْ فاتَ أنيابَـهُ والمخلبَ الشبثـا
خانَ العهـودَ ومنْ ينكُثْ بها فعَـلَى ... حَوْبـائـهِ، لا على أعدائِـهِ نكَثَـا
كانَ الإمـامُ الـذي تُرْجَى فواضِلهُ ... أذاقـهُ ثمـرَ الحلمِ الـذي وَرِثـا
فردَّ ألـفـتـهُ من بعـدِ أنْ عطفتْ ... أزواجُـهُ مَرِهـاً يَبكينـهُ شعِثَـا

فلما فرغ من إنشاده، قال: أو قد فعل نقفور ذلك! وعلم أن الوزراء قد احتالوا له في ذلك. فكر راجعاً في أشد محنة وأغلظ كلفة. حتى بلغ بلادهم، فأقام فيها حتى شفى نفسه منهم، ولم يبرح حتى رضي وبلغ ما أراد.

وفي ذلك يقول أبو العتاهية:

ألا نادتْ هِرَقْـلَةُ بالخـرابِ ... مِنَ المَـلِكِ المـوفَّـقِ بالـصـوَابِ
غدا هارونُ يرعُـدُ بالمـنـايَا ... ويبرُقُ بالمُـذكَّـرةِ الـقِـضـابِ
وراياتٍ يحـلُّ الـنصرُ فيهـا ... تمُرُّ كأنها قطعُ الـسـحـابِ
أمـيرَ المؤمـنـينَ ظفِـرتَ فاسلَمْ ... وأبشِرْ بالـغـنـيمـةِ والإيابِ

وفيها أصاب الروم وملكهم نقفور من ذل وهوان يقول أبوالعتاهية:

إمـام الهدي أصبحت بالدين معنيًّا	وأصبحت تسقى كلَّ مستمـطرٍ ريًّا
لك اسمانِ شقَّا منْ رشادٍ ومنْ هُدىً	فأنتَ الـذي تدعى رشيداً ومهـديًّا
إذا ما سخِطتَ الشيء كان مسخطاً	وإن ترض شيئـاً كان في الناس مَرْضيا
بَسطت لـنا شرقـاً وغـرباً يد العُلا	فأوْسـعـت شرقـياً وأوسـعـتَ غربياً
ووشَّيتَ وجْه الأرض بالجودِ والندَى	فأصبح وجهُ الأرض بالجودِ موشيًّا
قضى الله أن يصفُـو لهارونَ مُلكُـهُ	وكـانَ قضـاءُ الله في الخلق مقضِيًّا
تحلبتِ الـدنـيا لهارونَ بالـرِّضـا	فأصـبـحَ نقـفـورٌ لهارونَ ذِميًّا

في السنة التالية وهي سنة ١٨٨هـ غزا إبراهيم بن جبرائيل الصائفة، فدخل أرض الروم من درب الصفصاف، فخرج النقفور للقائه، فجرح النقفور ثلاث جراحات، ثم ولى منهزماً، فانكب جند الإسلام على عسكر الروم تقتيلاً حتى صرعوا منهم ما يزيد عن أربعين ألفاً وسبعمائة، وغنموا كثيراً من الدواب والسلاح، وقد كان القاسم بن الرشيد يرابط في مرج دابق.

فلما رأت الروم رباطة جأش المسلمين وما حل بهم من هزائم، طلبت أن تكون الهدنة، ويكون الفداء بينهم وبين المسلمين، فلم يبق في أرض الروم مسلم إلاّ فودي به، وفي ذلك يقول الشاعر مروان بن أبي حفصة:

وفُكت بك الأسرى التي شُيدت لها	محابسُ ما فيهـا حميمٌ يزورهـا
على حين أعيا المسلمـين فِكاكُها	وقـالـوا : سُجونُ المشركين قبورها

أراد الرشيد أن يؤدب نقفور على نقضه العهد، فجهز جيشاً كبيراً وتوغل في بلاد الروم وذلك سنة ١٩٠هـ، ففتح هرقلة وبقي فيها مدة، أرسل خلالها قواده في بلاد الروم يفتحون حصونها، ويقتلون جيوشها، ووجه داود بن عيسى بن موسى في أرض الروم سائحا يؤدب أهلها، وافتتح شراحيل بن معن بن زائدة حصن الصقالبة ودسة، وأرسل يزيد بن مخلد فافتتح الصفصاف وملقوبية.

انتقل هارون الرشيد بعسكره من هرقلة إلى الطوانه، فعسكر بها، ثم رحل عنها، وخلف عليها عقبة بن عامر.

وتحت وطأة هذه الضربات المؤلمة للإمبراطورية الرومانية، خضع نقفور لإرادة الرشيد، وبعث إليه بالجزية عن نفسه وولده وسائر أهل بيته، ومن في مملكته من البطارقة خمسين ألف دينار، وخضع لشرط هارون: بأن لا يعمر هرقلة، ولا يخرب ذا الكلاع ولا صملة ولا حصن سنان، وأن يدفع جزية كل عام ثلاثمائة ألف دينار.

وقد وصل غزوه هذا العام إلى قبرص حين نقض أهلها العهد، وكان الذي غزاهم من قبله حميد بن معيوف، فسبى من أهلها خلقاً كثيراً بيع أكثرهم في الرافقة وكان من جملة الأسرى أسقف قبرص.

وفي عام ١٩١هـ غزا يزيد بن مخلد الهبيري أرض الروم في عشرة آلاف، فأخذت الروم عليه المضيق فقتلوه في مكان يبعد مرحلتين من طرسوس، وقُتل معه خمسون رجلاً وسلم الباقي، فولى الرشيد غزو الصائفة لهرثمة بن أعين، وضم إليه ثلاثين ألفا من جند خراسان، ومضى الرشيد إلى ثغر «الحدث» ليكون قريباً من أرض المعركة مع الروم، وقد أغار الروم على حصن مرعش، وأصابوا من المسلمين، فأمر هارون بهدم الأديرة والكنائس من الثغور التي يقيم بها المجاهدون من المسلمين، وأمر كذلك بتغيير هيئة النصارى ومخالفتها لهيئة المسلمين في لباسهم وركوبهم، نكالاً بما تقترفه أيدي نصارى الروم، واتفق مع الروم على تبادل الأسرى عند بلدة «البدندون».

وفي سنة ١٩٢هـ ولى الرشيد على الثغور ثابت بن نصر بن مالك، فدخل بلاد الروم، وفتح بلدة مطمورة، ثم أجرى صلحاً مع الروم، وفادى ما بأيديهم من المسلمين، ويقدر عددهم بألفين وخمسمائة أسير.

وبهذا طوى الرشيد سجل الجهاد الطويل مع الروم، إذ وافاه الأجل في سنة ١٩٣هـ، وكان يلبس رحمه الله قلنسوة كتب عليها: «غاز حاج».

وكان مما قيل فيه، قول أبي المعالي الكلابي:

فمن يطلب لقاءك أو يُرده ... فبالحرمين أو أقصى الثغورِ
ففي أرض العدوّ على طِمِرٍّ ... وفي أرض الترفه فوق كُورِ
وما حاز الثغورَ سواك خلق ... من المتخلفينَ على الأمور

الفصل الثاني

علاقة الرشيد بالفرنجة

سكتت المصادر القديمة العربية والإسلامية عن علاقة الرشيد بالفرنجة، غير أن الكتب اللاتينية أوضحت هذه العلاقة، التي بدأت منذ أن أصبح شارلمان امبراطوراً على الدولة الرومانية الغربية «المقدسة» وانقطاع الصلة بينها وبين بيزنطة «الدولة الرومانية الشرقية» وذلك سنة ١٨٣هـ ٧٩٩م.

ويبدو من المصادر الغربية أن زمام المبادرة بالصلات بين الغرب والشرق كانت من قبل شارلمان، وقد أرسل وفدين إلى الرشيد، أحدهما في سنة ٧٩٧م، والثاني في سنة ٨٠٢م، ويبدو أن الرشيد قد رد على ذلك بوفدين كذلك، أولها سنة ٨٠١م والثاني سنة ٨٠٧م.

وقد أراد شارلمان أن يوثق صلاته بالرشيد ليكسب وده، ويحول بينه وبين أبناء عمومته الأمويين من التآلف والتكاتف ضده، وليتفوق بشهرته وسطوته على ما لنقفور ملك القسطنطينية من شهرة وسطوة عند الغربيين، فقد استولى شارلمان على لمبارديا، وقاد طوائف السكسون التي كانت تقطن جرمانيا إلى الدين المسيحي، واستولى على ألمانيا وإيتاليا، لذات السبب، وأراد أن تكون له اليد البيضاء عند النصارى بمصافاة الرشيد ومصادقته، ليضمن وصول الحجاج النصارى إلى بيت المقدس بأمان، وأن يظهر بالحامي والمدافع عن حقوق النصارى في العالم، كما أراد أن يستفيد من التألق العلمي والحضاري عند العرب في ذلك الوقت.

وقد رد الرشيد على هذه الصلات برغبته بها، ليضمن إضعاف نقفور الخصم اللدود لدولته، وليقطع الطريق للتحالف بين المملكتين الأوروبيتين آنذاك، فيكون قد حقق ما

يريده من هذه الصلة، وقد أبعد بعض المؤرخين حين خمن: أن الرشيد أراد التحالف مع شارلمان للقضاء على دولة الأمويين في الأندلس، فإن هذا الظن بعيداً عن الواقع، لأن العلاقة بين الرشيد وبين الأندلس لم تكن سيئة جداً كما صورها بعضهم، وإنما كانت القطيعة هي السائدة بينهما فقط، ولم يصدر من أي طرف إرادة إلحاق السوء بالآخر.

وسكوت المصادر العربية الإسلامية عن هذه العلاقة تجعلها في حيز التاريخ غير الموثق، وقد مال كثير من المؤرخين إلى أن هذه العلاقة لم تتجاوز العلاقات التجارية، وأن ما حصل من مقابلة الوفود للرشيد أو شارلمان لم تزد عن حدود المجاملات التجارية، وأن إرسال الهدايا والتحف يؤكد ذلك، حرصاً من التجار تأمين سوق لتجارتهم في كلا الدولتين، وهذا سر سكوت المصادر القديمة عن هذه السفارات، لأن المؤرخين وجدوها لا تستحق الذكر والتأريخ.

الفصل الثالث

علاقة الرشيد بالهند والصين

كانت الصلة التجـارية والفكرية موجودة بين المسلمين والشرق الأقصى منذ عهد الدولة الأموية، فقد افتتحت (بلاد الهند) سنة ٩٣ للهجرة، في خلافة الوليد، وأخذت الصلات تقوى بينها وبين العالم الإسلامي شيئاً فشيئا، كما كان التجار المسلمون يزورون (بلاد الصين).

وقد حفظ لنا بعض كتاب العرب شيئاً عن تلك الصلات، فقال ابن عبد ربه في العقد الفريد: «بعث ملك الهند إلى هارون الرشيد بسيوف قلعية، وكلاب سيورية، وثياب من ثياب الهند، فلما أتته الرسل بالهدية أمر الأتراك فصفوا صفين، ولبسوا الحديد حتى لا يرى منهم إلا الحدق، وأذن للرسل فدخلوا عليه فقال لهم: ما جئتم به، فقالوا: هذه أشرف كسوة بلدنا، فلم يعجبه من الهدية إلا الكلاب السيورية، التي فتكت بالأسد، وقد أمر الرشيد لهؤلاء الرسل بهدايا وتحف كثيرة وأحسن جائزتهم». [1]

وتـذكـر التـواريخ الصينية القديمة أن سفارات عديدة جرت بين البلاط العباسي والبلاط الصيني في القرنين السابع والثامن كما يقول المسعودي، ويظهر أن تلك الصلات لم تكن أكثر من صلات تجارية وثقـافية تعمد إلى نقل بعض الكتب العلمية أو التجارات الاقتصادية، ويذكر المسعودي (٨/ ٢٩٠ المروج طبع أوروبا) وصاعد الأندلسي (في طبقات الأمم ص٤٩) أن في حوالي سنة ١٥٤هـ قدم عالم هندي إلى بغداد ومعه رسالة في الفلك اسمها (السند هند، سد ذانتا) وأن هذه الرسالة قد ترجمت إلى العربية بأمر المنصور على يد محمد بن إبراهيم الفزاري، كما أن ذلك الرحالة العالم الهندي قد أتحف العالم الإسلامي

(١) العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي ج ٢ ص ٧٣.

برسالة في علوم الرياضيات انتشرت بوساطتها (الأعداد) التي يسميها الأوروبيون الأرقام العـربية، ويسميها العرب الأرقام الهندية، وفي القرن التاسع للميلاد أيضا أتحف الهنود العالم العربي بنظام الكسور العشرية[1].

(١) تاريخ العرب المجلد الثاني ص ١٠٨.

الباب الخامس

الفصل الأول

صفات الرشيد

للحكم على فرد ما، نستعرض صفاته، وما فيها من حسن أو قبح، ثم نحكم عليه، ولذلك فإن خير سبيل للاستدلال على شخصية الرشيد، ومعرفة حقيقته التي شوهها جمع غفير من المؤرخين والكتاب، نأتي على ذكر صفاته ومن ثمَّ نترك الحكم على الرشيد لنباهة القارىء وعدالته، وإليك هذه الصفات:

عنايته بالقضاء وأهله:

كانت عناية الرشيد بالقضاء متميزة، فقد كان يختار له خيرة الناس، من ذوي الشرف والحلم، ذكر ابن قتيبة[1] أن الرشيد: «أحضر رجلاً ليوليه القضاء فقال له: إني لا أحسن القضاء ولا أنا فقيه، قال الرشيد: فيك ثلاث خلال: لك شرف، والشرف يمنع صاحبه من الدناءة، ولك حلم يمنعك من العجلة، ومن لم يعجل قل خطؤه، وأنت رجل تشاور في أمرك، ومن شاور كثر صوابه،. وأما الفقه فسينضم إليك من تتفقه به، فولّي فما وجدوا فيه مطعنا» وكان يحرص أن يولي القضاء أفضل العلماء،.. وأماجد الفقهاء، فقد عرض القضاء على كثير من العلماء فرفض بعضهم كما فعل عبدالله بن ادريس، وقبل بعضهم كيعقوب بن ابراهيم، ومحمد بن الحسن الشيباني.

وقد سبق الرشيد الخلفاء إلى تنظيم أمور القضاء، وتعيين قاضي القضاة، وقد عهد بهذا المنصب إلى أبي يوسف يعقوب بن إبراهيم، ثم ولاه محمد بن الحسن الشيباني من بعده.

(١) عيون الأخبار لابن قتيبة ج ١ ص ١٧

وعلى الرغم من الـذي كان بين الـرشيد ومحمـد بن الحسن الشيباني بسبب رفض الشيباني نقض عهد يحيى بن عبدالله الطالبي، فإن الرشيد عينه قاضياً للقضاة بعد أبي يوسف، وذلك تقديراً لمكانة الشيباني العلمية، وتحقيقاً للعدل، وكان قاضي القضاة مثل وزير للعدل. لا يفارق الخليفه، ويظل إلى جانبه يفتيه في المسائل الطارئة في الدولة وأمور الخلافة.

وقد أقام الرشيد القضاة في جميع أمصار الخلافة، للفصل في قضايا المسلمين، وقضايا الوصاية والأوقاف، والمظالم، والحسبة، وغير ذلك

عنايته بالأمن:

اهتم الرشيد كثيراً بحفظ الأمن، وتأمين سبل الطمأنينة بين الناس، في العاصمة وفي الأقاليم، وقد اختار الرشيد رجلاً لمنصب صاحب الشرطة عُرف بالنبل والنزاهة هو: «عبدالله بن مالك» وكان عبدالله يقيم العيون ويدسها في العاصمة، وفي الأمصار، وقد أوصى الرشيد أصحاب الأخبار بنقل أحوال الرعية بصدق وأمانة، وبسرعة فائقة، ولذلك فقد اعتنى بالطرق وتنظيم البريد، لتصله الأخبار بأسرع ما يمكن، وقد أقام العسس «الحرس» في الليل للمحافظة على أمن الناس، وحفظ البلاد من الفساد.

وقد تشدد الرشيد في القضاء على الحركات الخارجة عليه في العاصمة أو في الأقاليم، فكان يُسير جنده لهم، ويحرص على القضاء عليهم، فقد سيّر قواده إلى خراسان وبلاد الشام وأفريقية أكثر من مرة للقضاء على المناوئين، والمعكرين للأمن، وقد سار بنفسه لقتال رافع ابن سيار لما طال خروجه، واستعصى على الجند أمره.

وقد اعتنى بمظالم الناس وعمل على أخذ الحق لهم، فلما وصلته أخبار ابن ماهان، وفساده في بلاد خراسان، وظلمه للناس، أمر الرشيد هرثمة بن أعين أن يذهب إليه ويتولى مكانه، وقد فتك الرشيد بآل ماهان بعد أن تمكن هرثمة منهم، على الرغم من قربهم منه ودالتهم عليه، فلم يمنعه ذلك من الفتك والتنكيل بهم، لأن أمن الناس وهدوء روعهم أولى عنده من الولاة والحكام.

عنايته بالعمران والأرض:

يتضح من تصفح سيرة الرشيد عنايته بالعمران، فقد وصلت بغداد في عصره إلى قمة المجـد، وذرا الحضارة، حتى قالوا: إن أيامها كانت أعراساً، فقد تأنق المهندسون في قصورها، وتفنن المعماريون في رونقها، ولا يفوتنا أن قصراً من قصورها لجعفر البرمكي كلّف عشرين مليونا من الدراهم، ومثله أو أقل منه قليلاً تكلفت قصور الأمراء والكبراء، ولم يقتصر العمـران على القصور بل كان الاهتمام منصباً كذلك على بناء المساجد، وارتفاع منائرها، يقول البغدادي[1]: «لم يكن لبغداد في الدنيا نظير في جلالة قدرها، وفخامة أمرها، وكثـرة دورهـا، ومنـازعهـا ودروبهـا، وشعوبها، وأسواقها، وسككها وأزقتها، ومساجدها وحماماتها، وطرزها وخاناتها»، «وكانت فيها القصور التي تُفنن بصحونها وأبهائها، وزخارفها ونقـوشهـا، وشرفـاتهـا وقبابها، وفيها البساتين التي جلبت إليها غرائب الأشجار، ونوادر الأزهار، من كل مكان، وفيها ستة آلاف حمّام، وفيها عشرون ألف مسجد، وفي نهرها ثلاثون ألف زورق»[2].

ولم يقتصر ذلك الاهتمام على بغداد العاصمة، بل تعداها إلى العواصم والأقاليم، وحفلت به الثغور والأمصار، حتى كان الرشيد يريد فتح قناة السويس كما هي اليوم، ففي مروج الذهب للمسعودي قال: رام الرشيد أن يوصل ما بين بحر الروم وبحر القلزم مما يلي الفرما، فقال له يحيى بن خالد البرمكي: كان يختطف الروم الناس من المسجد الحرام، وتدخل مراكبهم الحجاز فتركه»[3].

وقد اهتم بنظام الري للأرض فأمر بحفر الركايا، وإقامة نظام للري دقيق، في بغداد وفي الأقاليم، ونظراً لأهمية الأرض وخراجها، فقد أمر القاضي يعقوب بن إبراهيم بوضع كتاب في تنظيم مواردها، وبيان خراجها، فكان أن وضع كتاب «الخراج» الذي يعـدّ درة في جبين التنظيم المالي للدولة.

---

(١) تاريخ بغداد ج ٣ ص ١١٩

(٢) رجال من التاريخ للشيخ علي الطنطاوي

(٣) تاريخ الخلفاء ص ٢٨٦

اهتمامه بالخيل:

لقد كان للرشيد اهتمام خاص بالخيول العربية، لأنها الأساس في المعارك الحربية، ولأنها آلة العرب في السلم والحرب، وهي مفخرة وعزة، جعل الله في أعنتها النصر إلى يوم القيامة.

وقد كان الرشيد يعقد حلبات السباق بين خيله وخيول الأمراء والقواد، حرصاً على تشجيع دور الخيول والاعتناء بها، وكان يظهر الضيق عليه إن سُبقت خيله، ويظهر البشر على وجهه إذا سبقت خيوله، وكان يحضر الشعراء والرواة لوصف حلبات الخيول، ويستنطق الرواة عن أشعار العرب في الخيل، «وقد أجرى الرشيد الخيل يوما بالرقة، فلما أُرسلت، سار إلى مجلسه في صدر الميدان حيث توافى إليه الخيل، فوقف على فرسه، وكان في أوائلها سوابق من خيله يقدمها فرسان في عنان واحد لا يتقدم أحدهما صاحبه، فتأملها فقال: فرسي والله، ثم تأمل الآخر فقال: فرس ابني المأمون، قال: فجاءا يحنكان أمام الخيل، وكان فرسه السابق وفرس المأمون الثانية، فسُرَّ بذلك، ثم جاء الخيل بعد ذلك، فلما انقضى المجلس وهمّ بالانصراف قال الأصمعي - وكان حاضراً وقد تبيّن سرور الرشيد - للفضل ابن الربيع: يا أبا العباس، هذا يوم من الأيام فأحب أن توصلني إلى أمير المؤمنين، وقام الفضل فقال: يا أمير المؤمنين، هذا الأصمعي يذكر شيئاً من أمر الفرسين يزيد الله به أمير المؤمنين سروراً، قال: هاته، فلما دنا قال: ما عندك يا أصمعي؟ قال: يا أمير المؤمنين، كنت وابنك اليوم في فرسيكما كما قالت الخنساء:

جارَى أباه فأقبلا وهما ... يتنازعان مُلاءَة الحُضْر
وهما كأنهما وقد برزا ... صَقران قد حَطا على وكر
برزت صفيحة وجهه والده ... ومضى على غُلَوائه يجري
أولى فأولى أن يقاربه ... لولا جلال السن والكبر[1]

الشعور بالمسئولية نحو المسلمين:

كان الرشيد ورعاً تقياً، يخاف الله ويخشاه، يتحرج كثيراً من الوقوع في المحرمات، ويبكي طويلاً إن ظنّ أنه قد قارف سيئة، أو وقع في إثم.

(١) مروج الذهب للمسعودي ج ٣ ص ٣٦٣

وقد شغله أمر ولاية العهد كثيراً، خوفاً على نفسه وولْده من أوزار الخلافة وأثقال الإمامة، فكان يظهر عليه القلق والهم والتكدر كثيراً، تحرجاً أن لا يوفق إلى الصواب في أمر ولاية العهد.

حدّث الأصمعي فقال: بينما أنا أسامر الرشيد ذات ليلة إذ رأيته قد قلق قلقاً شديداً فكان يقعد مرة ويضطجع مرة ويبكي أخرى ثم أنشد يقول:

قلده أمور عباد الله ذا ثقة ... مُوَحَّد الرأي لا نكس ولا برم
واترك مقالة أقوام ذوي خطل ... لا يفهمون إذا ما معشر فهموا

فلما سمعتُ منه ذلك علمت أنه يريد أمراً عظيماً، ثم قال لمسرور الخادم: علي بيحيى، فما لبث أن أتاه، فقال: يا أباالفضل، إن رسول الله ﷺ مات في غير وصية والإسلام جذع، والإيمان جديد، وكلمة العرب مجتمعة، قد آمنها الله تعالى بعد الخوف؛ وأعزها بعد الذل، فما لبث أن ارتدّ عامة العرب على أبي بكر، وكان من خبره ما قد علمت، وإن أبابكر صَيَّر الأمر إلى عمر، فسلّمت الأمة له، ورضيت بخلافته، ثم صيرها عمر شُورى، فكان بعده ما قد بلغك من الفتن حتى صارت إلى غير أهلها، وقد عنيت بتصحيح هذا العهد وتصييره إلى مَنْ أرضى سيرته، وأحمد طريقته، وأثق بحسن سياسته، وآمن ضعفه ووهنه، وهو عبدالله، وبنوهاشم مائلون إلى محمد بأهوائهم، وفيه ما فيه من الانقياد لهواه، والتصرف مع طويته، والتبذير لما حوته يده، ومشاركة النساء والإماء في رأيه[1]؛ وعبدالله المرضي الطريقة، الأصيل الرأي، الموثوق به في الأمر العظيم؛ فإن مِلْتُ إلى عبدالله أسخطت بني هاشم، وإن أفردت محمداً بالأمر لم آمن تخليطه على الرعية، فأشِرْ عليَّ في هذا الأمر برأيك مشورة يعم فضلها ونفعها، فإنك بحمدالله مبارك الرأي لطيف النظر، فقال: يا أمير المؤمنين إن كل زلة مستقالة وكل رأي يتلافى خلا هذا العهد، فإن الخطأ فيه غير مأمون، والزلة فيه لا تُستدرك، وللنظر فيه مجلس غير هذا؛ فعلم الرشيد أنه يريد الخلوة

(١) أثبت الأمين ان لامكان عنده لرأي النساء

فأمرني بالتنحي، فقمت وقعدت ناحية بحيث أسمع كلامهما، فمازالا في مناجاة ومناظرة طويلة حتى مضى الليل، وافترقا على أن عقد الأمر لعبدالله بعد محمد[1].

ولما عاتبته زبيده في أمر ولاية العهد، وأظهرت حرصها على أن يكون الأمر من بعد الرشيد لولدها محمد، رد عليها الرشيد بحزم وقوة: «ويحكِ! إنما هي أمة محمد، ورعاية من استرعاني الله تعالى مطوقاً بعنقي» ثم قال لها بعد كلام: «ونحن مسئولون عن هذا الخلق، ومأخوذون بهذا الأنام، فما أغنانا أن نلقي الله بوزرهم، وننقلب إليه بإثمهم»[2].

فهذا التحرج والتلجلج في جعل الخلافة لولده محمد الهاشمي أماً وأباً، يدل ويبدون لبس على ورع الرشيد، وحسن دينه، وعلى تقواه.

الإقلال من الحلال:

ومن العجب أن يُنسب إلى الرشيد الإسراف، والرفاهية الزائدة عن المألوف والمعقول، وهو الذي يبكي ألماً وحزناً إذا أحس أنه أسرف في طعام، أو أكثر من الحلال، أو قصّر في طاعة.

حدّث إبراهيم بن المهدي قال: استزرت الرشيد بالرقة، فزارني، وكان يأكل الطعام الحار قبل البارد، فلما وضعت البوارد رأى فيها قرب إليه منها جام قريص مثل قريص السمك، فاستصغر القطع، وقال: لم صَغّر طباخك تقطيع السمك؟ فقلت: يا أمير المؤمنين، هذه ألسنة السمك، قال: فيشبه أن يكون في هذا الجام مائة لسان، فقال مراقب خادمه: يا أمير المؤمنين، فيها أكثر من مائة وخمسين، فاستحلفه عن مبلغ ثمن السمك، فأخبره أنه قام بأكثر من ألف درهم، فرفع الرشيد يده وحلف أن لا يطعم شيئاً دون أن يُحْضِرُ ألف درهم، فلما حضر المال أمر أن يتصدق به. وقال: أرجو أن يكون كفارة لسرفك في إنفاقك على جام سمك ألف درهم، ثم ناول الجام بعض خدمه وقال: اخرج من دار أخي، ثم انظر أول سائل تراه فادفعه إليه، قال إبراهيم: وكان شراء الجام على الرشيد بمائتين وسبعين ديناراً، فغمزت بعض خدمي للخروج مع الخادم ليبتاع الجام ممن يصير

(١) مروج الذهب للمسعودي جـ ٣ ص ٣٥٢
(٢) أعلام النساء جـ ٢ ص ١٧

إليه، ففطن الرشيد فقال له: يا غلام إذا دفعته إلى سائل فقل له: يقول لك أمير المؤمنين احـذر أن تبيعه بأقل من مائتي دينار فإنه خير منها، ففعل الخادم ذلك، فوالله ما أمكن خادمي أن يخلصه من السائل إلا بمائتي دينار[1].

أرأيت مثل هذا الورع والتقى، يرفض أن يأكل طيب الطعام، ولذيذ المآكل لأنه شعر أن فيه كلفة زائدة، وأنه ما كان ينبغي مثل هذا التكلف والإسراف في المآكل والمشرب، فدفع بالسمك وثمنه والجام إلى أول محتاج.

وروى ابن عساكر عن إبراهيم المهدي قال: كنت يوماً عند الرشيد فدعا طباخه فقال: أعندك في الطعام لحم جزور؟ قال: نعم، ألوان منه. فقال: أحضره مع الطعام فلما وضع بين يديه أخذ لقمة منه فوضعها في فيه، فضحك جعفر البرمكي، فترك الرشيد مضغ اللقمة وأقبل عليه فقال: مم تضحك؟ قال: لا شيء يا أمير المؤمنين، ذكرت كلاماً بيني وبين جاريتي البارحة. فقال له: بحقي عليك لما أخبرتني به. قال: حتى تأكل هذه اللقمة، فألقاها من فيه وقال: والله لتخبرني. فقال: يا أمير المؤمنين بكم تقول إن هذا الطعام من لحم الجزور يقوم عليك؟ قال: بأربعة دراهم. قال: لا والله، يا أمير المؤمنين بل بأربعمائة ألف درهم. قال: وكيف ذلك؟ قال: إنك طلبت من طباخك لحم جزور قبل هذا اليوم بمدة طويلة فلم يوجد عنده، فقلت: لا يخلون المطبخ من لحم جزور، فنحن ننحر كل يوم جزوراً لأجل مطبخ أمير المؤمنين، لأنّا لا نشتري من السوق لحم جزور. فصرف في لحم الجزور من ذلك اليوم إلى هذا اليوم أربعمائة ألف درهم، ولم يطلب أمير المؤمنين لحم جزور إلا هذا اليوم. قال جعفر: فضحكت لأن أمير المؤمنين إنما ناله من ذلك هذه اللقمة. فهي على أمير المؤمنين بأربعمائة ألف.

قال: فبكى الرشيد بكاء شديداً وأمر برفع السماط[2] من بين يديه، وأقبل على نفسه يوبخها ويقول: هلكت والله يا هارون. ولم يزل يبكي حتى آذنه المؤذنون بصلاة الظهر، فخرج فصلى بالناس ثم رجع يبكي حتى آذنه المؤذنون بصلاة العصر، وقد أمر بألفي ألف

---

(١) مروج الذهب جـ ٣ ص ٣٦٣

(٢) السماط: ما يفرش ليوضع عليه الطعام

تصرف إلى فقراء الحرمين في كل حرم ألف ألف صدقة، وأمر بألفي ألف يتصدق بها في جانبي بغداد الغربي والشرقي، وبألف ألف يتصدق بها على فقراء الكوفة والبصرة. ثم خرج إلى صلاة العصر ثم رجع ثم رجع يبكي حتى صلى المغرب، ثم رجع، فدخل عليه أبويوسف القاضي فقال: ما شأنك يا أمير المؤمنين باكياً في هذا اليوم؟ فذكر أمره وما صرف من المال الجزيل لأجل شهوته، وإنما ناله منها لقمة. قال أبويوسف لجعفر: هل كان ما تذبحونه من الجزور يفسد، أو يأكله الناس؟ قال: بل يأكله الناس. فقال: أبشر يا أمير المؤمنين بثواب الله فيما صرفته من المال الذي أكله المسلمون في الأيام الماضية، وبما يسره الله عليك من الصدقة، وبما رزقك الله من خشيته وخوفه في هذا اليوم، وقد قال تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾[1] فأمر له الرشيد بأربعمائة ألف. ثم استدعى بطعام فأكل منه فكان غداؤه في هذا اليوم عشاء[2]

هذا هو الرشيد المكذوب عليه في ترفه وإسرافه، لقد عاش حياة لينة ناعمة، لكنها ليست عيشة سرف وتبذير، بل كانت في مستوى الاعتدال، وما يناسب مقامه وسلطانه وغناه.

لقد كانت الدنيا تأتيه طائعة صاغرة، وكان الخراج يأتي إليه من أقاصي الهند إلى أعالي أرمينية ومن جميع أصقاع الدنيا، ومع هذا فقد كان يخشى الفقر، ويخاف منه على نفسه، لأنه يدرك أن الدنيا لا تدوم على حال، ولذلك كان يخشى الفقر ويخافه.

قال ابن قتيبة: ثنا الرياشي سمعت الأصمعي يقول: دخلت على الرشيد وهو يقلم أظفاره يوم الجمعة فقلت له في ذلك فقال: أخذ الأظفار يوم الخميس من السنة، وبلغني أن أخذها يوم الجمعة ينفي الفقر. فقلت: يا أمير المؤمنين أوتخشى الفقر؟ فقال: يا أصمعي وهل أحد أخشى للفقر مني.

الغيرة على الدين:

بلغت الغيرة على الدين عند الرشيد مبلغاً عظيماً حتى كاد مرة أن يبطش بعمه، حدّثه

---

(١) سورة الرحمن آية ٤٦

(٢) البداية والنهاية لابن كثير جـ ١٠ ص ٢٢٤ ـ ٢٢٥

أبومعاوية يوماً عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريره بحديث احتجاج آدم وموسى، فقال عم الرشيد: أين التقيا يا أبامعاوية؟ فغضب الرشيد من ذلك غضباً شديداً، وقال: أتعترض على الحديث؟ علي بالنطع[1] والسيف، فأحضر ذلك فقام الناس إليه يشفعون فيه فقال الرشيد: هذه زندقة. ثم أمر بسجنه وأقسم أن لا يخرج حتى يخبرني من ألقى إليه هذا، فأقسم عمه بالأيمان المغلظة ماقال هذا له أحد، وإنما كانت هذه الكلمة بادرة مني وأنا أستغفر الله وأتوب إليه منها. فأطلقه.

وكان يكره من يتوغل في أمور الكلام توغلاً يخرجه عن الحق، ويقتل من يقول بخلق القرآن، ذكر ابن كثير: أن الرشيد قتل رجلاً لأنه قال؛ إن القرآن مخلوق، وقال: قتلته قربة إلى الله عز وجل.

وسلط الرشيد سيفه على الزنادقة، سيراً على سنة أبيه وجده فقد قتل منهم خلقاً كثيراً.

فقد أخرج ابن عساكر، عن ابن علية قال: أخذ هارون الرشيد زنديقاً فأمر بضرب عنقه، فقال له الزنديق: لِمَ تضرب عنقي؟ قال له: «أريح العباد منك» قال: فأين أنت من ألف حديث وضعتها على رسول الله ﷺ كلها ما فيها حرف نطقَ به، ؟ قال: «فأين أنت يا عدو الله من أبي إسحاق الفزاري وعبدالله بن المبارك ينخلانها فيخرجانها حرفا حرفا»[2]؟

«كان ابن أبي مريم هو الذي يضحكه، وكان عنده فضيلة بأخبار الحجاز وغيرها، وكان الرشيد قد أنزله في قصره وخلطه بأهله، فنبهه الرشيد يوماً إلى صلاة الصبح، فقام متوضئاً ثم أدرك الرشيد وهو يقرأ: ﴿وَمَالِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾[3] فقال ابن أبي مريم: لا أدري والله؟! فضحك الرشيد وقطع الصلاة، ثم أقبل عليه وقال: ويحك اجتنب الصلاة والقرآن وقل فيما عدا ذلك»[4].

---

(١) النطع: بساط من جلد يفرش تحت المحكوم عليه بالعذاب أو قطع الرأس.

(٢) تاريخ الخلفاء ص ٢٩٢.

(٣) سورة يس آية ٢٢

(٤) البداية والنهاية جـ ١٠ ص ٢٢٣

عدم الأخذ بالذنب إلا بعد التثبت منه:

وكان من حسن ورعه وتقواه، أنه لا يأخذ أحداً من أصحابه أو أعدائه دون التثبت من صدق ما قيل عنه، روى الطبري فقال:

وذكر عبدالله بن محمد بن عبدالله بن عبدالعزيز بن عبدالله بن عبدالله بن عمر بن الخطاب، أنّ أبابكر بن عبدالرحمن بن عبيدالله بن عبدالله بن عمر بن عبدالعزيز حدّثه، عن الضّحاك بن عبدالله، وأثنى عليه خيراً؛ قال: أخبرني بعض ولد عبدالله بن عبدالعزيز، قال: قال الرّشيد، والله ما أدري ما آمُر في هذا العُمَريّ! أكره أن أقدم عليه وله خلَف أكرههم؛ وإني لأحبّ أن أعرف طريقه ومذهبه، وما أثق بأحد أبعثه إليه، فقال عمر بن بزيع والفضل بن الربيع: فنحن يا أمير المؤمنين، قال: فأنتما، فخرجا من العَرْج إلى موضع من البادية يقال له خلْص، وأخذا معهما أدلّاء من أهل العرْج؛ حتى إذا وردا عليه في منزله أتَياه مع الضحى؛ فإذا هو في المسجد، فأناخا راحلتيهما ومَنْ كان معهما من أصحابهما، ثم أتياه على زِيّ الملوك من الرّيح والثياب والطِّيب؛ فجلسا إليه وهو في مسجد له، فقالا له: يا أباعبدالرحمن، نحن رسل مَنْ خلْفنا من أهل المشرق، يقولون لك: اتّق الله ربك؛ فإذا شئت فقم. فأقبل عليهما، وقال: ويحكما! فيمن ولمن! قالا: أنت، فقال: والله ما أحبّ أني لقيت الله بمحجمة دمِ امرىء مسلم، وأنّ لي ما طلعت عليه الشمس؛ فلما أيسا منه قالا: فإنّ معنا شيئاً تستعين به على دهرك، قال: لا حاجة لي فيه، قالا: فأعطها مَنْ شئت، قال: أنتما، فأعطياها مَنْ رأيتما، ما أنا لكما بخادم ولا عَوْن. قال: فلما يئسا منه ركبا راحلتَيْهما، حتى أصبحا مع الخليفة بالسُّقيا في المنزل الثاني، فوجدا الخليفة ينتظرهما؛ فلما دخلا عليه حدّثاه بما كان بينهما وبينه، فقال: ما أبالي ما أصنع بعد هذا. فحجّ عبدُالله في تلك السنة، فبينما هو واقف على بعض أولئك البّاعة يشتري لصبيانه؛ إذا هارون يسعَى بين الصفّا والمروة على دابّة، إذ عرض له عبدالله وترك ما يريد، فأتاه حتى أخذ بلجام دابته، فأهوتْ إليه الأجناد والأحراس، فكفّهم عنه هارون فكلمه. قال: فرأيتُ دموعَ هارون؛ وإنها لتسيل على مَعْرَفة دابّته، ثم انصرف[1].

---

(١) تاريخ الطبري جـ ٨ ص ٣٥٤

فهو لم يأخذ العمري بما أغراه به أعداء العمري، بل أرسل إليه من يتثبت له خبره، فلما ثبتت له براءة الرجل أكرمه وعظمه، وبكى حين وعظه.

وهذه قصة أخرى كانت مع واحد من أعدى أعدائه، إنها مع رجل من الأمويين الخصوم الألداء للعباسيين، ومع ذلك لم يأخذه بما بلغه عنه، لأنه لم يتثبت من صحة الخبر. وهاك القصة:

رُفع إلى هارون الرشيد أن رجلا بدمشق من بقايا بني أمية كثير المال، عظيم الجاه، مطاع في البلد، له جماعة وأولاد، ومماليك يركبون الخيل ويحملون السلاح ويغزون الروم، وأنه سمح جواد، وأنه لا يُؤمن منه فتق بعد رتقه..

فعظم ذلك على الرشيد، فقال لخادمه منارة: اخرج الساعة إلى الرجل، فقيده وجيء به، واجعله في محمل تقعد أنت في شقه وهو في الآخر، وتفقد داره، واحفظ ما يقوله الرجل حرفاً حرفاً.

قال منارة: فأتيت بيت الرجل، ودخلت بغير إذنه، فلما رأى القوم ذلك سألوا بعض من معي عني، فلما صرت في صحن الدار نزلت ودخلت مجلساً رأيت فيه قوماً جلوساً، فظننت أن الرجل فيهم، فقاموا ورحبوا بي، فقلت: أفيكم فلان؟ قالوا: نحن أولاده، وهو في الحمام. فقلت: استعجلوه فمضى بعضهم يستعجله، وأنا أتفقد الدار والأحوال والحاشية، فوجدتها قد ماجت بأهلها موجاً، فلم أزل كذلك حتى خرج الرجل بعد أن طال مكثه، واستربت به، واشتد خوفي وقلقي من أن يتوارى، إلى أن رأيت شخصاً بزيّ الحمام يمشي في صحن الدار، وحواليه جماعة كهول وأحداث وصبيان هم أولاده وغلمانه، فقلت: إنه الرجل. فجاء وسلم وسألني عن أمير المؤمنين، واستقامة أمر حضرته، فأجبته عما سأل.

ثم قال لي: ما أقدمك يا منارة؟ فأخرجت كتاب أمير المؤمنين فدفعته إليه ففضه وقرأه، ثم أمر أولاده بالانصراف، وقال: هذا كتاب أمير المؤمنين ولست أقيم بعد نظري فيه لحظة واحدة، هات قيودك يا منارة، فدعوت بها وقيدته، وحملته في شق وركبت في الشق الآخر. وسرت بالرجل وليس معه أحد، حتى صرنا بظاهر دمشق، فابتدأ يحدثني بانبساط، فاشتد غيظي منه. وقلت: ألست تعلم أن أمير المؤمنين أهمه أمرك حتى أرسل إليك مَنْ

انتزعك من بين أهلك ومالك وولدك، وأخرجك فريدا مقيدا لا تدري ما يصير إليه أمرك، ولا كيف يكون، وأنت فارغ القلب من هذا حتى تصف ضياعك وبساتينك؟!

فقال لي مجيباً: إنّا لله وإنا إليه راجعون! أخطأت فراستي فيك. لقد ظننتك رجلاً كامل العقل، وأنك ما حللت من الخلفاء هذا المحل إلا بعد أن عرفوك بذلك، فإذا كلامك يشبه كلام العوام، والله المستعان!

أما قولك في أمير المؤمنين وإزعاجه وإخراجه إياي إلى بابه على صورتي هذه فإني على ثقة من الله عز وجل، هو الذي بيده ناصيتي، ولا يملك أمير المؤمنين لنفسه ولا لغيره نفعاً ولا ضراً إلا بإذن الله عز وجل، ولا ذنب لي عند أمير المؤمنين أخافه.

وبعد، فإذا عرف أمري، وعلم سلامتي، وصلاح ناحيتي، وأن الحَسَدَة والأعداء رموني عنده بما ليس فيّ، وتقولوا عليّ الأباطيل لم يستحل دمي، وردني مكرماً.

قال منارة: فلما وصلنا ودخلت على الرشيد، ووقفت، فقال: هات ما عندك يا منارة. فسقت الحديث من أوله إلى آخره. فلما جئت على آخره قال: صدق والله!! ما هذا إلا رجل محمود على النعمة، مكذوب عليه، ولعمري لقد أزعجناه وآذيناه، وروعنا أهله. فبادر بنزع قيوده، وائتني به. ففعلت وأدخلته على الرشيد.

فما هو إلا أن رآه حتى رأيت ماء الحياء يجول في وجه الرشيد، فدنا الأموي، وسلم بالخلافة، ووقف، فرد عليه الرشيد ردًا جميلاً، وأمره بالجلوس فجلس، فأقبل عليه الرشيد وسأله عن حاله، ثم قال له: بلغنا عنك فضل هيئة وأمور أحببنا معها أن نراك، ونسمع كلامك، ونحسن إليك، فاذكر حاجتك.

فأجـاب الأمـوي جواباً جميلاً، وشكر ودعا، ثم قال: يا أمير المؤمنين، لي حاجة واحدة: أن تردني إلى بلدي وأهلي وولدي. قال: نفعل ذلك، ولكن سل ما تحتاج إليه في مصالح جاهك ومعاشك، فإن مثلك لا يخلو أن يحتاج إلى شيء من هذا. فقال: يا أمير المؤمـنين، عمالك منصفون، وقد استغنيت بعدلهم عن مسألتي... فأموري مستقيمة ـ وكذلك أهل بلدي ـ بالعدل الشامل في ظل أمير المؤمنين.

فقال الرشيد: انصرف محفوظاً إلى بلدك، واكتب إلينا بأمر إن عُرض لك، فودعه الأموي.

قال منارة: فلما ولّى خارجاً قال الرشيد: يا منارة، احمله من وقتك، وسر به راجعاً كما جئت به، حتى إذا وصلت إلى مجلسه الذي أخذته منه فدعه وانصرف، ففعلت...

ولذلك فإني أستهجن رافضاً قول من زعم أن الرشيد حبس موسى الكاظم «العلوي» لأنه سمعه يسلم على النبي ﷺ بقوله: «السلام عليك يا أبتِ» بل إن الرشيد قد تأكد لديه قيام الكاظم في وجه الخلافة وبايعه الناس على النهوض لشق عصا الطاعة، والخروج على الخليفة، فأخذه بهذا الذنب لا بغيره، والله أعلم.

وذكر عن الرشيد أنه غضب على يزيد بن مزيد الشيبانيّ، ثم رضي عنه، وأذن له، فدخل عليه، فقال: يا أمير المؤمنين؛ الحمدلله الذي سهّل لنا سبيل الكرامة، وحل لنا النّعمة بوجه لقائك، وكشف عنا صُبابة الكرب بإفضالك، فجزاك الله في حالِ سخطك رضا المنيبين، وفي حال رضاك جزاء المنعمين الممتنّين المتطولين؛ فقد جعلك الله وله الحمد، تَتثبّتُ تحرّجاً عند الغضب، وتتطوّل ممتنًا بالنعم، وتعفو عن المسيء تفضّلاً بالعفو[1].

حبه للخلفاء الراشدين:

وقد كان رحمه الله محباً لأبي بكر وعمر ولعثمان ولعلي ولسائر الصحابة رضوان الله عليهم، ذكر مصعب بن عبدالله الزبيري أن أباه عبدالله بن مصعب أخبره أنّ الرشيد قال له: ما تقول في الذين طعنوا على عثمان؟ قال: قلت: يا أمير المؤمنين، طعن عليه ناس؛ وكان معه ناس؛ فأما الذين طعنوا عليه فتفرقّوا عنه؛ فهم أنواع الشّيَع، وأهل البِدَع، وأنواع الخوارج؛ وأما الذين كانوا معه فهم أهلُ الجماعة إلى اليوم. فقال لي: ما أحتاج أن أسأل بعد هذا اليوم عن هذا.

قال مصعب: وقال أبي ـ وسألني عن منزلة أبي بكر وعمر كيف كانت من رسول الله

---

(١) تاريخ الطبري جـ ٨ ص ٣٥٣

ﷺ؛ فقلت له: كانت منزلتهما في حياته منه منزلتهما في مماته، فقال: كفيتني ما أحتاج إليه[1]

وقال بعض أهل العلم: «يا أمير المؤمنين انظر هؤلاء الذين يحبون أبابكر وعمر ويقدمونهما فأكرمهم بعز سلطانك، فقال الرشيد: «أولست كذلك؟ أنا والله كذلك أحبهما وأحب من يحبهما، وأعاقب من يبغضهما»[2]

وأخرج الصولي عن إسحاق الهاشمي قال: كنا عند الرشيد، فقال: بلغني أن العامة يظنون فيَّ بُغْضَ علي بن أبي طالب، ووالله ما أحب أحدا حبي له، ولكن هؤلاء أشد الناس بغضا لنا وطعنا علينا وسعيا في فساد ملكنا بعد أخذنا بثأرهم ومساهمتنا إياهم ما حويناه، حتى إنهم لأميل إلى بني أمية منهم إلينا، فأما ولده لصلبه فهم سادة الأهل والسابقون إلى الفضل، ولقد حدثني أبي المهدي عن أبيه المنصور عن محمد بن علي عن أبيه عن ابن عباس أنه سمع النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول في الحسن والحسين: «من أحبهما فقد أحبني، ومن أبغضهما فقد أبغضني» وسمعه يقول: «فاطمة سيدة نساء العالمين، غير مريم ابنة عمران وآسية بنت مزاحم»[3]

ووُلِّيَ سلّام، أو رشيد الخادم - بعض خدّام الخاصة - ضياعَ الرّشيد بالثغور والشأمات، فتواترت الكتب بحسن سيرته وتوفيره، وحمد الناس له، فأمر الرّشيد بتقديمه والإحسان إليه، وضمّ ما أحبَّ أن يضمّ إليه من ضياع الجزيرة ومصر. قال: فقدم فدخل عليه وهو يأكل سَفَرْجلًا قد أُتيَ به من بلْخ؛ وهو يقشره ويأكل منه، فقال له: يا فلان، ما أحسن ما انتهى إلى مولاك عنك، ولك عنده ما تحبّ، وقد أمرت لك بكذا وكذا، ووليتك كذا وكذا، فسل حاجتك، قال: فتكلّم وذكر حسنَ سيرته، وقال: أنسيتُهم والله يا أمير المؤمنين سيرةَ العُمرين. قال: فغضب واستشاط، وأخذ سفرجلة فرماه بها، وقال: يا ابن اللخناء، العمريْن، العمريْن! هبنا احتملناها لعمر بن عبدالعزيز، أنحتملها لعمر بن الخطاب!.[4]

(١) تاريخ الطبري جـ ٨ ص ٣٥٣
(٢) البداية والنهاية لابن كثير جـ ١٠ ص ٢٢٤
(٣) تاريخ الخلفاء للسيوطي ٢٩٣
(٤) تاريخ الطبري جـ ٨ ص ٣٥٤

خوفه من أمر الخلافة:

وقد روى الخطيب البغدادي أن الرشيد كان يقول: «إنّا من قوم عظمت رزيتهم، وحسنت بعثتهم، ورثنا رسول الله ﷺ، وبقيت فينا خلافة الله»[1].

أرأيت إنه يعدّ الخلافة رزية ومصيبة، لما فيها من مسئولية عن خلق الله وعن عباده.

تأثره بالموعظة:

لقد كان الرشيد سخي العين، رقيق العاطفة، فما ذكّره أحد، أو حدّثه بموعظة إلا فاضت عيناه بالدموع، حتى عده بعضهم من البكائين، ومما لاشك فيه أن البكاء دليل الخشوع والخوف من الله، والخائف من الله يخشى منه ويتقيه، ولذلك لا يصدر منه ما يغضب الله سبحانه وتعالى، ولهذا نرى أن المنصفين يقرون له بضبط نفسه، وإحكام تصرفاته بموجب الشرع الإسلامي الكريم، لأنه لا يصدر في أوامره ونواهيه عن هوى أو ضلال.

حدّث سفيان بن عيينة قال: دعانا الرشيد، فدخلنا عليه ودخل الفضيل آخرنا مقنعاً رأسه بردائه، فقال لي: يا سفيان: أيهم أمير المؤمنين؟ فقلت: هذا، وأومأت إلى الرشيد، فقال له أنت يا حسن الوجه، الذي أمْرُ هذه الأمة في يدك وعنقك؟ لقد تقلدت أمراً عظيماً، فبكى الرشيد، ثم قال له الفضيل: «إنك مسئول عن هؤلاء كلهم، وقد قال الله تعالى: ﴿وتقطعت بهم الأسباب﴾ فبكى الرشيد حتى جعل يشهق، ثم أتى كل رجل منا ببدرة، فكلٌّ قبلها إلا الفضيل، فقال له الرشيد: يا أباعلي، إن لم تستحلها فأعطها ذا دين، وأشبع بها جائعاً، واكس بها عرياناً، فاستعفاه منها، فلما خرجنا قلت له: يا أباعلي أخطأت، ألا أخذتها وصرفتها في أبواب البر؛ فأخذ بلحيتي ثم قال: يا أبامحمد؛ أنت فقيه البلد والمنظور إليه وتغلط مثل هذا الغلط؟ لو طابت لأولئك لطابت لي[2].

---

(١) البداية والنهاية جـ ١٠ ص ٢٢٥

(٢) مروج الذهب جـ ٣ ص ٣٥٤ ـ ٣٥٥

وكان الرشيد يستمع إلى الوعّاظ والناصحين مهما كانت مراتبهم، ويبكي من خشية الله. فقد مرّ وهو في طريقه إلى الحج بأحد البهاليل فقال له: قل يا بهلول، فقال:

هب أن قد ملكت الأرض طراً ودان لك العباد فكان ماذا
أليس غداً مصيرك جوف قبرٍ ويحنو عليك التراب هذا ثم هذا

قال: أجدت يا بهلول أفغيره؟ قال نعم يا أمير المؤمنين! من رزقه الله مالاً وجمالاً فعفّ في جماله، وواسى في ماله، كُتب في ديوان الله من الأبرار. فظنّ أنّه يريد شيئاً، فقال: إنّا أمرنا بقضاء دينك. فقال: لا تفعل يا أمير المؤمنين، لا يُقضى دين بدين، أردد الحق إلى أهله، واقض دين نفسك من نفسك. قال: إنّا أمرنا أن يُجرى عليك رزق تقتات به. قال: لا تفعل يا أمير المؤمنين فإنه سبحانه لا يعطيك وينساني، وها أنا قد عشت عمراً لم تُجر عليّ رزقاً، انصرف لا حاجة لي في جرايتك. قال: هذه ألف دينار خُذها فقال: أرددها على أصحابها فهو خير لك، وما أصنع أنا بها؟ انصرف عني فقد آذيتني. قال: فانصرف عنه الرشيد وقد تصاغرت عنده الدنيا .

وقال له ابن السماك يوماً: إنك تموت وحدك، وتدخل القبر وحدك، وتُبعث منه وحدك، فاحذر المقام بين يدي الله عزّ وجلّ، والوقوف بين الجنة والنار، حين يُؤخذ بالكظم، وتزلُّ القدم، ويقع الندم، فلا توبة تُقبل، ولا عثرة تُقال، ولا يُقبل فداء بمال. فجعل الرشيد يبكي حتى علا صوته، فقال يحيى بن خالد له: يا ابن السماك! لقد شققت على أمير المؤمنين الليلة. فقام فخرج من عنده وهو يبكي

وقال الفضيل: استدعاني الرشيد يوماً وقد زخرف منازله وأكثر الطعام والشراب واللذات فيها، ثم استدعى أباالعتاهية فقال له: صف لنا ما نحن فيه من العيش والنعيم فقال:

عش ما بدا لك سالماً في ظل شاهقة القصور
يسعى إليك بما اشتهيت لدى الرواح إلى البكور
فإذا النفوس تقعقعت عن ضيق حشرجة الصّدور
فهناك تعلم موقناً ما كنت إلاّ في غرور

فبكى الرشيد بكاءً كثيراً شديداً. فقال له الفضل بن يحيى: دعاك أمير المؤمنين تسرّه فأحزنته؟

فقال له الرشيد: دعه فإنه رآنا في عمى فكره أن يزيدنا عمى.

وقد روي من وجه آخر: أن الرشيد قال لأبي العتاهية: عظني بأبيات من الشعر وأوجز فقال:

لا تأمن الموت في طرفٍ ولا نفس	ولو تمنّعت بالحجّاب والحرس
واعلم بأنّ سهام الموت صائبة	لكلِ مُدّرع منها ومُتّرس
ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها	إن السفينة لا تجري على اليبس

فخرّ الرشيد مغشياً عليه.

روى الأصبهاني في الحلية قال: حدثنا إبراهيم بن عبدالله ثنامحمد بن إسحاق قال حدثني إسماعيل بن عبدالله أبوالنضر ثنا يحيى بن يوسف الزمي عن الفضيل بن عياض قال: لما دخل على هارون أمير المؤمنين قال: أيكم هو؟ قال: فأشاروا إلى أمير المؤمنين، فقال: أنت هو يا حسن الوجه؟ لقد وليت أمراً عظيما إني ما رأيت أحداً هو أحسن وجها منك، فإن قدرت أن لا تسود هذا الوجه بلفحة من النار فافعل، فقال لي: عظني، فقلت: ماذا أعظك، هذا كتاب الله تعالى بين الدفتين، انظر ماذا عمل بمن أطاعه، وماذا عمل بمن عصاه. وقال: إني رأيت الناس يغوصون على النار غوصا شديدا، ويطلبونها طلبا حثيثا، أما والله لو طلبوا الجنة بمثلها أو أيسر لنالوها، فقال: عد إليّ، فقال: لو لم تبعث إليّ لم آتك، وإن انتفعت بما سمعت مني عدت إليك.

وحدّثنا سليمان بن أحمد ثنا محمد بن زكريا الغلابي ثنا أبوعمر الحرمي النحوي ثنا . الفضل بن الربيع قال: حج أمير المؤمنين فأتاني فخرجت مسرعا فقلت: ياأمير المؤمنين لو أرسلت إليّ أتيتك، فقال: ويحك قد حاك في نفسي شيء فانظر لي رجلا أسأله، فقلت: ههنا سفيان بن عيينة، فقال امضِ بنا إليه، فأتيناه فقرعنا الباب فقال: من ذا؟ قلت: أجب أمير المؤمنين، فخرج مسرعا فقال: يا أمير المؤمنين لو أرسلت إليّ أتيتك، فقال: خذ لما جئناك له رحمك الله، فحدثه ساعة ثم قال له: عليك دَيْن، فقال: نعم! قال: أباعباس

اقض دينه، فلما خرجنا قال: ما أغنى عني صاحبك شيئا؛ انظر لي رجلا أسأله، قلت: ههنا عبدالرزاق بن همام، قال: أمضِ بنا إليه، فأتيناه فقرعنا الباب فخرج مسرعا فقال: من هذا؟ قلت: أجب أميرَ المؤمنين، فقال: يا أمير المؤمنين لو أرسلت إليّ أتيتك، فقال: خذ لما جئناك له، فحادثه ساعة ثم قال له: عليك دين؟ قال: نعم! قال: أباعباس اقضِ دينه. فلما خرجنا قال: ما أغنى عني صاحبك شيئا، انظر لي رجلا أسأله، قلت: ههنا الفضيل بن عياض، قال: امضِ بنا إليه، فأتيناه فإذا هو قائم يصلي يلتو آية من القرآن يرددها، فقال: اقرع الباب، فقرعت الباب فقال: من هذا؟ قلت: أجب أمير المؤمنين، فقال: مالي ولأمير المؤمنين؟ فقلت: سبحان الله، أما عليك طاعة؟ أليس قد روي عن النبي ﷺ أنه قال «ليس للمؤمن بذل نفسه» فنزل ففتح الباب ثم ارتقى إلى الغرفة فأطفأ السراج ثم التجأ إلى زاوية من زوايا البيت، فدخلنا فجعلنا نجول بأيدينا، فسبقت كف هارون قبلي إليه، فقال: يا لها من كف، ما ألينها إن نجت غداً من عذاب الله عز وجل. فقلت في نفسي: ليكلمنه الليلة بكلام من تُقى قلب تقي، فقال له: خذ لما جئناك له رحمك الله، فقال: إن عمر بن عبدالعزيز لما وُلِّي الخلافة دعا سالم بن عبدالله ومحمد بن كعب القرظي ورجاء بن حيوة فقال لهم: إني قد ابتليت بهذا البلاء فأشيروا علي، فعد الخلافة بلاء وعددتها أنت وأصحابك نعمة، فقال له سالم بن عبدالله: «إن أردت النجاة من عذاب الله فصم الدنيا وليكن إفطارك منها الموت» وقال له محمد بن كعب: «إن أردت النجاة من عذاب الله فليكن كبير المؤمنين عندك أبا، وأوسطهم عندك أخا، وأصغرهم عندك ولدا، فوقر أباك وأكرم أخاك وتحنن على ولدك» وقال له رجاء بن حيوة: «إن أردت النجاة غداً من عذاب الله فأحب للمسلمين ما تحب لنفسك، واكره لهم ما تكره لنفسك، ثم مت اذا شئت، وإني أقول لك فإني أخاف عليك أشد الخوف يوماً تزل فيه الأقدام»، فهل معك رحمك الله مثل هذا؟ أو من يشير عليك بمثل هذا؟ فبكى هارون بكاءً شديداً حتى غشي عليه، فقلت له: أرفق بأمير المؤمنين، فقال: يا ابن الربيع تقتله أنت وأصحابك وأرفق به أنا: ثم أفاق فقال له: زدني رحمك الله، فقال: يا أمير المؤمنين بلغني أن عاملا لعمر بن عبدالعزيز شكى إليه فكتب إليه عمر: «يا أخي أذكرك طول سهر أهل النار مع خلود الأبد، وإياك أن ينصرف بك من عند الله فيكون آخر العهد وانقطاع الرجاء». قال فلما قرأ الكتاب طوى البلاد حتى قدم على عمر بن عبدالعزيز فقال له: ما أقدمك؟ قال: «خلعت قلبي بكتابك، لا أعود

إلى ولاية حتى ألقى الله عز وجل». قال: فبكى هارون بكاءً شديداً، ثم قال زدني رحمك الله، فقال: ؛ يا أمير المؤمنين: إن العباس عم المصطفى ﷺ جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله أمِّرني على إمارة، قال له النبي ﷺ: «إن الامارة حسرة وندامة يوم القيامة، فإن استطعت أن لا تكون أميراً فافعل». فبكى هارون بكاءً شديدا فقال له: زدني رحمك الله، قال: يا حسن الوجه، أنت الذي يسألك الله عز وجل عن هذا الخلق يوم القيامة، فإن استطعت أن تقي هذا الوجه من النار، فإياك أن تصبح وتمسي وفي قلبك غش لأحد من رعيتك، فإن النبي ﷺ قال: «من أصبح لهم غاشا لم يرح رائحة الجنة». فبكى هارون وقال له: عليك دَيْن؟ قال: نعم! دين لربي لم يحاسبني عليه، فالويل لي إن سألني والويل لي إن ناقشني، والويل لي إن لم ألهم حجتي. قال: إنما أعني من دين العباد، قال: إن ربي لم يأمرني بهذا، إنما أمرني أن أصدق وعده وأطيع أمره، فقال جل وعز: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون، ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون، إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين﴾ فقال له: هذه ألف دينار خذها فأنفقها على عيالك وتقوَّ بها على عبادتك، فقال: سبحان الله! أنا أدلك على طريق النجاة، وأنت تكافئني بمثل هذا؟ سلمك الله ووفقك. ثم صمت فلم يكلمنا، فخرجنا من عنده، فلما صرنا على الباب قال هارون: إذا دللتني على رجل فدلني على مثل هذا، هذا سيد المسلمين.

فدخلت على الفضيل امرأة من نسائه فقالت: يا هذا قد ترى ما نحن فيه من ضيق الحال، فلو قبلت هذا المال فتفرجنا به؟ فقال لها: مثلي ومثلكم كمثل قوم كان لهم بعير يأكلون من كسبه، فلما كبر نحروه فأكلوا لحمه. فلما سمع هارون هذا الكلام قال: ندخل فعسى أن يقبل المال، فلما علم الفضيل خرج فجلس في السطح على باب الغرفة، فجاء هارون فجلس إلى جنبه فجعل يكلمه فلا يجيبه، فبينما نحن كذلك اذ خرجت جارية سوداء فقالت: يا هذا قد آذيت الشيخ منذ الليلة، فانصرف[1].

وحدّث الطبري: إن الرشيد سمع مرة بالزاهد المعروف: «ابن السماك» فطلب من حاجبه الفضل بن الربيع أن يأتيه به، فجاء، فقال له الرشيد: عظني. قال: «يا أمير

---

(١) حلية الأولياء جـ ٨ ص ١٠٥ ـ ١٠٧

المؤمنين، اتق الله وحده لا شريك له، واعلم بأنك واقف غداً بين يدي الله ربك، ثم مصروف إلى إحدى منزلتين لا ثالثة لهما: جنة أو نار» فبكى الرشيد، فأقبل الفضل بن الربيع على ابن السماك وقال له: سبحان الله، وهل يخالج أحداً شك في أن أمير المؤمنين مصروف إلى الجنة، إن شاء الله، لقيامه بحق الله وعدله في عباده؟؟ فالتفت ابن السماك إلى الرشيد وقال: يا أمير المؤمنين، إن هذا - يعني الفضل - ليس والله معك ولا عندك في ذلك اليوم، فاتق الله وانظر لنفسك[1].

رُويَّ أن ابن السماك دخل على الرشيد يوما، فاستسقى، فأتى بكوز، فلما أخذه قال: على رِسْلِكَ يا أمير المؤمنين، لو مُنِعْتَ هذه الشربة بكم كنت تشتريها؟ قال؛ بنصف ملكي، قال: اشرب هنَّأك الله تعالى، فلما شربها قال: أسألك لو منعت خروجها من بدنك بماذا كنت تشتري خروجها؟ قال: جميع ملكي، قال: «إن مُلْكاً قيمتهُ شربةُ ماءٍ وبَوْلَةٍ لجديرٌ أن لا ينافس فيه» فبكى هارون بكاءً شديداً[2].

وذكر ابن عبدربه: أن ابن السماك دخل عليه، فلما وقف بين يديه قال له: عظني يا ابن السماك وأوجز. قال: كفى بالقرآن واعظاً يا أمير المؤمنين، قال الله تعالى: بسم الله الرحمٰن الرحيم ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ ﴾[3]. هذا يا أمير المؤمنين وعيد لمن طفف في الكيل، فما ظنك بمن أخذه كله!

قال: يا ابن السماك، ما أحسن ما بلغني عنك؟ قال: يا أمير المؤمنين، إن لي عيوباً لو اطلع الناس منها على عيب واحد ما ثبتت لي في قلب أحد مودة؛ وإني لخائف في الكلام الفتنة وفي السر الغرة، وإني لخائف على نفسي من قلة خوفي عليها[4].

وحدّث الأصمعي قال: دخلت عليه ذات يوم فوجدته يقرأ ورقة ويبكي. فلما رآني قال: اجلس، فجلست، قال: أرأيتني أبكي؟؟ قلت: : نعم يا أمير المؤمنين، قال: أما

---

(١) العقد الفريد جـ ٢ ص ١٢

(٢) تاريخ الخلفاء ص ٢٩٣

(٣) سورة المطففين.

(٤) العقد الفريد جـ ٢ ص ١٢

والله لو كان لأمر الدنيا ما رأيتَ هذا، ثم رمى إليّ بالقرطاس، فإذا فيه شعر لأبي العتاهية في الزهد:

هل أنت معتبر بمن خليت ... منه غداة مضى دساكره؟؟
وبمن أذل الموت مصرعه ... فتبرأت منه عشائره؟؟
أين الملوك وأين غيرهم؟ ... صاروا مصيراً أنت صائره؟
نل ما بدا لك أن تنال من ... الدنيا فإن الموت آخره

وذكر السيوطي في تاريخه قال:

وقال ابن الجوزي: قال الرشيد لشيبان: عظني، قال: لأن تصحب مَنْ يُخوِّفك حتى يدركك الأمن خيرٌ لك من أن تَصْحَبَ من يؤمنك حتى يدركك الخوف، فقال الرشيد: فَسِّرْ لي هذا، قال: من يقول لك: أنت مسئول عن الرعية فاتق الله أنصح لك ممن يقول: أنتم أهل بيت مغفور لكم، وأنتم قرابة نبيكم صلى الله عليه وآله وسلم، فبكى الرشيد حتى رحمه مَنْ حوله[1].

وكما كان الرشيد محباً لسماع الموعظة، كان حريصاً على حفظها، روى داود بن علي الكاتب قال: لما افتتح هارون الرشيد هِرقلة وأباحها ثلاثة أيام، وكان بطريقها الخارج عليه «فسيل» الرومي؛ فنظر إليه الرشيد مقبلاً على جدار فيه كتاب باليونانية وهو يطيل النظر فيه. فدعا به وقال له: لِمَ تركت النظر إلى الانتهاب والغنيمة وأقبلت على هذا الجدار تنظر فيه؟ فقال: يا أمير المؤمنين، قرأت في هذا الجدار كتاباً هو أحب إليّ من هرقلة وما فيها. قال له الرشيد: ما هو؟ قال: «بسم الله الملك الحق المبين. ابن آدم ، . غافِص الفرصة عند إمكانها، ووكل الأمور إلى وليها. ولا تحمل على قلبك همَّ يوم ولم يأتِ بعدُ؛ إن يكن من أجلك يأتك الله برزقك فيه؛ ولا تجعل سعيك في طلب المال أسوة المغرورين، فربّ جامع لبَعْل حليلته، واعلم أن تقتير المرء على نفسه هو توفير منه على غيره، فالسعيد من

---

١) تاريخ الخلفاء ص: ٢٩٤

اتعظ بهذه الكلمات ولم يضيعها» قال له الرشيد: أعدها عليّ يا فسيل. فأعادها عليه حتى حفظها[1]

التأســي بالصــالحين.

حدّث الأصمعي عن شبيب بن شيبة قال: كنا في طريق مكة، فجاء أعرابي في يوم صائف شديد الحر ومعه جارية سوداء وصحيفة، فقال: أفيكم كاتب؟ قلنا: نعم؛ وحضر غداؤنا، فقلنا: لو دخلت وأصبت من الطعام؟ قال: إني صائم؛ قلنا: في الحر وشدته، وجفاء البادية!؟ فقال: إن الدنيا كانت ولم أكن فيها، وستكون ولا أكون فيها، ولا أُحب أن أغبَنَ أيامي، ثم نبذ إلينا الصحيفة، وقال: اكتب ولا تزيدني على ما أقول حرفا: هذا ما أعتق عبدالله بن عقيل الكلابي، أعتق جارية له سوداء يقال لها لؤلؤة، ابتغاء وجه الله تعالى وجواز العقبة، وإنه لا سبيل له عليها إلا سبيل الولاء، المنة لله عليها وعليه واحدة. **قال الأصمعي: فحدثتُ بها الرشيد، فأمر أن يُعتَق عنه ألفُ نسمة أو مائة نسمة، ويكتب لهم هذا الكتاب.**

لقد وجد الرشيد سبيلاً للخير والفوز برضوان الله، فلم يتأخر عن ذلك، رغبة بثواب الله سبحانه وتعالى، وتفريجا عن بعض المسلمين.

الحج مشياً على الأقدام:

وبلغ من ورعه أنه حج ماشياً لمنام رأى فيه رسول الله ﷺ وطلب منه أن يحج ماشياً، وأن يغزو، وقد غزا كثيراً، وحج ماشياً لذلك، فقد روى في النجوم الزاهرة قال: حج الرشيد ماشياً، كان يمشي على اللُّبُود، كانت تبسط له من منزلة إلى منزلة، وسبب حجه ماشياً أنه رأى رسول الله ﷺ في المنام، فقال له: «يا هارون! إن هذا الأمر صائر إليك، فحج ماشياً واغز، ووسع على أهل الحرمين» فأنفق فيهم الرشيد أموالاً عظيمة، ولم يحج خليفة قبله ولا بعده ماشيا. رحمه الله[2].

(١) العقد الفريد جـ٣ص ١٦٣
(٢) النجوم الزاهرة جـ ٢ ص ٦٠

التفريج عن المحتاجين:

قال الأصمعي: كنت مع الرشيد في الحج فمررنا بواد فإذا على شفيره امرأة حسناء بين يديها قصعة وهي تسأل منها وهي تقول:

طحطحتنا[٢] طحاطح الأعوام ورمتنا حَوادثُ الأيام
فأتيناكم نمدُ أكفًا نائلاتٍ لزادكمْ والطعام
فاطلبوا الأجرَ والمثوبةَ فينا أيها الزائرونَ بيتَ الحرامِ
منْ رآني فقدْ رآني ورحلي فارحموا غربتي وذلَّ مقامي

قال الأصمعي: فذهبت إلى الرشيد فأخبرته بأمرها فجاء بنفسه حتى وقف عليها فسمعها فرحمها، وبكى، وأمر مسروراً الخادم أن يملأ قصعتها ذهباً، فملأها حتى جعلت تفيض يميناً وشمالا[١].

وسمع مرة الرشيد أعرابياً يحدو إبله في طريق الحج:

أيها المجمعُ همًّا لا تهمْ أنتَ تقضي ولكَ الحمّى تحمْ
كيفَ ترقيكَ وقد جفَّ القَلمْ حطّت الصحّة مِنْكَ والسّقمْ

فقال الرشيد لبعض خدمه: ما معك؟ قال: أربعمائة دينار، فقال: ادفعها إلى هذا الأعرابي. فلما قبضها ضرب رفيقه بيده على كتفه وقال متمثلاً:

وكنتُ جليسَ قعقاعِ بنِ عمرو ولا يشقَى بِقَعْقاعٍ جليسُ

فأمر الرشيد بعض الخدم أن يعطي المتمثل ما معه من الذهب، فإذا معه مائتا دينار[٢].

عبوديته لله:

ومما يدل على حسن دينه، ومتانة إيمانه، وكمال ورعه هذا الدعاء الرقيق له:

«يا مَنْ يملك حوائج السائلين، ويعلم ضمير الصامتين، فإنّ لكل مسألة منك رداً حاضراً، وجوابا عتيداً، ولكلّ صامت منك علم مُحيط ناطق بمواعيدك الصادقة، وأياديك

(١-٢) البداية والنهاية جـ ١٠ ص ٢٢٧

الفـاضلة؛ ورحمتك الواسعة. صلّ على محمد وعلى آل محمد، واغفر لنا ذنوبَنا وكفِّر عنا سيئاتنا. يا مَنْ لا تضرّه الذنوب، ولا تخفَى عليه العيوب، ولا تنقصه مغفرة الخطايا، يا من كبس الأرض على الماء، وسدّ الهواء بالسّماء، واختار لنفسه الأسماء، صلّ على محمد، وخِرْ لي في جميع أمري. يا من خشعت له الأصوات بألوان اللغات يسألونك الحاجات؛ إنّ من حاجتي إليك أن تغفر لي إذا توفيتَني، وصرتُ في لحدي، وتفرّق عني أهلي وولدي. اللهمّ لك الحمد حمداً يفضلُ على كلّ حمد كفضلك على جميع الخلق. اللهم صلّ على محمد صلاة تكون له رضاً، وصلّ على محمد صلاةً تكون له حرزاً، واجْزه عنّا خيرَ الجزاء في الآخرة والأولى. اللهمّ أحيِنَا سُعداء وتوفّنا شُهداء، واجعلنا سعداء مرزوقين، ولا تجعلنا أشقياء محرومين!»[1].

(١) تاريخ الطبري جـ ٨ ص ٣٥٥، وكان هذا الدعاء وقت حجه عند الكعبة

الفصــل الثــاني

حرصه على العلم والتعلم

حرص الرشيد منذ نعومة أظفاره على تعلم العلم، والتأدب مع العلماء، وكان مولعاً بالأدب والشعر، يعطي عليه العطاء الكثير، ولذلك قرّب إليه العلماء والرواة والمحدثين. وقد استمر في طلب العلم بعد أن صارت إليه الخلافة، قال القاضي الفاضل: «ما أعلم أن لملك رحلة قط في طلب العلم إلا للرشيد، فإنه رحل بولديه الأمين والمأمون لسماع الموطأ على مالك رحمه الله، قال: وكان أصل الموطأ بسماع الرشيد في خزانة المصريين، قال: ثم رحل لسماعه السلطان صلاح الدين بن أيوب إلى الإسكندرية، فسمعه على بن طاهر بن عوف، ولا أعلم لهما ثالثاً»[1]

روى الصولي عن الحصين بن سليمان الضبي قال: سمعت الرشيد يخطب فقال في خطبته: حدثني مبارك بن فضالة، عن الحسن، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «اتقوا النار ولو بشق تمرة». حدثني محمد بن علي، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، عن علي ابن أبي طالب رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «نظفوا أفواهكم فإنها طريق القرآن»[2] وبذلك يعدّ الرشيد راوياً لبعض حديث النبي ﷺ.

وكان الرشيد حريصاً على العلم، يطلبه من أهله، ولم تمنعه هيبة الخلافة، أو جلال المكانة من السؤال عما لا يعرف، فقد ذكر الأصمعي فقال: قال لي الرشيد: يا أصمعي ما أغفلك عنا وأجفاك لنا؟ قلت: والله يا أمير المؤمنين ما لاقتني بلاد بعدك حتى أتيتك، فسكت، فلما تفرق ا لناس قال: ما لاقتني؟ قلت:

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٢٩٤

(٢) تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٢٩٧

كفـاك كـف مـا تليـق درهمـا   جـوداً وأخـرى تعـطـي السيـف الـدمـا

فقال: «أحسنت، وهكذا فكن، وقُرْنا في الملا، وعلمنا في الخلا، وأمر لي بخمسة آلاف دينار»[1].

ولحرص الرشيد على العلم وتعلمه كتب إلى الولاة بفرض عطاء لكل طالب علم: «أما بعد؛ فانظروا من التزم الأذان عندكم فاكتبوه في ألف من العطاء، ومن جمع القرآن وأقبل على طلب العلم، وعمر مجالس العلم، ومقاعد الأدب فاكتبوه في ألفي دينار من العطاء، ومن جمع القرآن وروى الحديث وتفقه في العلم، واستبحر، فاكتبوه في أربعة آلاف دينار من العطاء، وليكن ذلك بامتحان الرجال السابقين لهذا الأمر، من المعروفين به من علماء عصركم وفضلاء دهركم، فاسمعوا قولهم، وأطيعوا أمرهم، فإن الله تعالى يقول: ﴿ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾[2] وهم أهل العلم»[3].

فقد أوجب الرشيد للعلماء العطاء المادي، والمكانة المعنوية، فقد أعلى مراتبهم فوق الولاة، وجعلهم أولي الأمر، وأوجب طاعتهم، والاستماع لهم.

وقد كان رحمه الله جم التواضع للعلماء، كثير الحب لهم، استدعى إليه أبامعاوية الضرير محمد بن حازم ليسمع منه الحديث، قال أبومعاوية: ما ذكرت عنده حديثاً إلا قال: صلى الله على سيدي، وإذا سمع فيه موعظة بكى حتى يبلَّ الثرى، وأكلت عنده يوماً ثم قمت لأغسل يديّ، فصب الماء عليّ وأنا لا أراه، ثم قال: يا أبامعاوية، أتدري من يصب عليك الماء؟ قلت: لا. قال: يصب عليك أمير المؤمنين!!! قال أبومعاوية: فدعوت له، فقال: إنما أردت تعظيم العلم.[4]

وكتب الأدب حافلة بأخبار الرشيد وأدبه وأشعاره، ومجالسه مع أهل العلم والفضل،

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٢٨٦

(٢) سورة النساء الآية ٥٩

(٣) الإمامة والسياسة لابن قتيبة جـ ٢ ص ١٥٧

(٤) البداية والنهاية جـ ١٠ ص ٢٢٤

حتى كان لا يفارقهم ساعة من ليل أو نهار، يستشيرهم في أموره، وينزل عند أقوالهم في مهماته، ويوقرهم ويسعى لرضاهم، ويصحبهم في حضره وسفره، «فكان إذا حج أحج معه مائة من الفقهاء وأبنائهم، وإذا لم يحج أحج ثلاثمائة بالنفقة السابغة والكسوة التامة»[1].

(١) البداية والنهاية جـ ١٠ ص ٢٢٢

الفصـــل الثالـث

أدب الرشيد ونماذج منه

حبــه لــلأدب:

نشأ الرشيد في أحضان جده المنصور المشهود له بالعلم والمعرفة، كما هيأ له أبوه فحول الأدب وأساطين العلم لتعليمه وتأديبه، وجعل مجلسه في خلافته ندوة فقه وأدب وشعر، جمع فيها أعلم أهل زمانه، وأقضاهم، وأشعرهم، وأحسنهم في النحو وغيره.

كل ذلك أثّر في شخصية الرشيد، وجعل منها شخصية علمية أدبية، يظهر ذلك جلياً في خطبه وتواقيعه، ومذاكراته مع رجال عصره من العلماء والشعراء.

ونحن وإن كنا نلمح في خطبه وتواقيعه وأشعاره شخصية صقلتها الآداب، وغذاها العلماء، وساندتها عاطفة صادقة، وشعور رقيق، فإننا نعترف أن الرشيد لم يكن من فحول الأدب، وأساطين العلم، ذلك أن أعباء الخلافة، وتدابير السلطان تنوء بحملها الجبال، فكيف بالرجال، فبقدر ما سنحت له الفرصة عبَّ من العلم والأدب، وتفقه في الحلال والحرام، فكان نسيج وحده، واري الزند، عالي الجبين، رفيع الهام.

وسنقف فيما يلي على أهم الفنون العلمية والأدبية التي برع فيها الخليفة هارون الرشيد:

فــن الخطبــة:

أول ما يطالعنا في الرشيد ثقافته الدينية الواسعة، التي نلمحها خلال خطبه، حيث الاستهلال البديع، والعرض الشائق، والإقناع بالدليل والبرهان، في أسلوب سلس جميل،

يزدان بالاقتباس من كتاب الله : «القرآن الكريم» ومن صحيح السنة النبوية الشريفة، وقد حفظ لنا ابن عبدربه الأندلسي هذه الخطبة للرشيد:

الحمدلله ؛ نحمدُه على نِعمه، ونستعينهُ على طاعته، ونستنصره على أعدائه، ونؤمن به حقاً، ونتوكل عليه مفوّضين إليه؛ وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له؛ وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. بعثه الله على فَترةٍ من الرسل، ودروسٍ من العلم، وإدبارٍ من الدنيا، وإقبال من الآخرة؛ بشيراً بالنعيم المقيم؛ ونذيراً بين يَديْ عذابٍ أليم، فبلّغ الرسالة، ونَصح الأمة، وجاهد في الله، فأدّى عن الله وعدَه ووعيدَه حتى أتاه اليقين، فعلى النبيِّ من الله صلاةٌ ورحمةٌ وسلام.

أوصيكم عباد الله بتقوى الله؛ فإن في التقوى تكفير السيئات، وتضعيف الحسنات، وفوزاً بالجنة، ونجاة من النار؛ وأحذركم يوماً تَشخص فيه الأبصار، وتُبلى فيه الأسرار، يومَ البعث ويومَ التغابن، ويوم التلاقي ويوم التنادي، يوم لا يُستعتب من سيئة ولا يُزداد من حسنة؛ ﴿يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي ٱلصُّدُورُ﴾[1].

عباد الله؛ إنكم لم تُخلقوا عبثاً، ولن تُتركوا سُدىً؛ حصِّنوا إيمانكم بالأمانة، ودينكم بالورع، وصلاتكم بالزكاة؛ فقد جاء في الخبر أن النبي ﷺ قال: **«لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له؛ ولا صلاة لمن لا زكاة له»** إنكم سَفْرٌ مجتازون وأنتم عن قريب تنتقلون من دار فناء إلى دار بقاء؛ فسارعوا إلى المغفرة بالتوبة، وإلى الرحمة بالتقوى، وإلى الهدى بالأمانة، فإن الله تعالى ذِكره أوجب رحمته للمتقين، ومغفرتَه للتائبين، وهُداه للمنيبين، قال الله عز وجل وقوله الحق: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾[2]. وقال: ﴿وإني لغفّار لمن تاب وآمن وعمِل صالحاً ثم آهتدى﴾[3].

---

(١) سورة غافر آية ١٨

(٢) سورة الأعراف آية ١٥٦

(٣) سورة طه آية ٢.

وإياكم والأماني، فقد غرّت وأوردت وأبقت كثيراً حتى أكذبتْهم مناياهم، فتناوَشوا[1] التوبة من مكان بعيد، وحِيلَ بينهم وبين ما يشتهون؛ فأخبَركم ربُّكم عن المَثلات فيهم، وصرّف الآيات، وضرب الأمثال، فرغّب بالوعد وقدّم إليكم الوعيد، وقد رأيتم وقائعه بالقرون الخوالي جيلاً فجيلاً، وعهدتم الآباء والأبناء والأحبة والعشائر باختطاف الموت إياهم من بيوتكم، ومن بين أظهركم، لا تدفعون عنهم، ولا تُحولون دونهم، فزالت عنهم الدنيا، وانقطعت بهم الأسباب، فأسلمتْهم إلى أعمالهم عند الموقف والحساب والعقاب ﴿ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى ﴾[2].

إنَّ أحسن الحديث وأبلغ الموعظة كتابُ الله؛ يقول الله عز و جل: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾[3]. أعوذ بالله العظيم من الشيطان الرجيم إنه هو السميع العليم، بسم الله الرحمن الرحيم ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝ ﴾[4]. آمركم بما أمركم الله به، وأنهاكم عما نهاكم الله عنه، واستغفر الله لي ولكم»[5]

وللرشيد نموذج للنثر الجميل، تدل على رصانة أسلوبه وعلو باعه في الأدب والتعليم، جاء في مروج الذهب عن الأحمر النحوي مؤدب الأمين قال:

بعث إليَّ الرشيد لتأديب ولده محمد الأمين، فلما دخلت قال: يا أحمر، إن أمير المؤمنين قد دفع إليك مهجة نفسه، وثمرة قلبه، فصير يدك عليه مبسوطة، وطاعتك عليه واجبة، فكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين، أقرئه القرآن، وعرفه الآثار، ورَوه الأشعار، وعلمه السنن، وبصره مواقع الكلام وبدأه، وامنعه الضحك إلا في أوقاته، وخذه بتعظيم مشايخ بني هاشم إذا دخلوا إليه، ورفع مجالس القواد إذا حضروا مجلسه، ولا تمرنَّ بك ساعة إلا وأنت مغتنم فيها فائدة تفيده إياها، من غير أن تخرق به فتميت ذهنه، ولا تمعن في مسامحته

---

(١) تناوشوا التوبة. تناولوا التوبة

(٢) سورة النجم آية ٣١

(٣) سورة الأعراف آية ٢٠٤

(٤) سورة الإخلاص آية ١ - ٦

(٥) العقد الفريد ج ٤ ص ١٩٠ - ١٩١.

فيستحلي الفراغ ويألفه، وقوِّمه ما استطعت بالقرب والملاينة، فإن أباهما فعليك بالشدة والغلظة[1].

وللرشيد كذلك قوله يخاطب عبدالملك بن صالح :

«يا عبدالملك، كأني أنظر إلى شؤبوبها (الدفعة من المطر) قد همع، وإلى عارضها قد لمع، وكأني بالوعيد قد أورى (أخرج ناراً)، بل أدمى، فأبرز عن براجم بلا معاصم (البراجم: الأصابع، والمعصم: موضع السوار من الساعد) ورءوس بلا غلاصم، مهلاً مهلاً بني هاشم، فبي والله سُهِّل لكم الوعر، وصفا لكم الكدر، وألقت إليكم الأمور أثناء أزمَّتها، فنذار لكم نذار قبل حلول داهية خبوط باليد والرجل»[2]

فـــن التـوقيـع :

وُجد هذا اللون من الكتابة في العصر الأموي، واهتم الكُتَّاب به، وحرص كثيرون منهم على جمعه وحفظه.

وقد دعا إلى ذيوع هذا اللون من الكتابة تنوع شئون الدولة، وكثرة حاجات الناس، واتساع رقعة الخلافة، وكثرة الولاة والحكام، يضاف إلى ذلك براعة بعض الخلفاء وطول باعهم في الأدب، وحوزهم قصب السبق في ميدان الإيجاز، وقوة العبارة، ولطف الإشارة، وفيما يلي ضرب من هذه التوقيعات التي وقعها الرشيد:

* وقَّع إلى صاحب خراسان: داوِ جُرْحَك لا يتسع.
* ووقَّع إلى عامله على مصر: احذر أن تُخرب خزانتي وخزانة أخي يوسف فيأتيك مني ما لا قِبَلَ لك به، ومنَ الله أكثر منه.
* كما وقَّع إلى عامله على فارس: كن مني على مثل ليلة البيات.
* وإلى عامل خراسان: إن الملوك يؤثر عنهم الحزْم.

---

(١) مروج الذهب ومعادن الجوهر جـ: ٣ ص ٣٦٢

(٢) مروج الذهب جـ٣ ص : ٣٥٥

* ووقّع إلى خُزيمة بن خازم إذ كتب إليه أنه وضع السيف حين دخل أرض أرمينية: لا أمَّ لك! تَقتل بالذنب من لا ذنب له؟
* وفي قصة محبوس: من لجأ إلى الله نجا.
* ووقّع في قصة متظلم: لا يجاوَز بك العدل، ولا يقصر بك دون الإنصاف.
* ووقّع إلى عامله على خراسان: كل من رفع رأسه فأزله عن بدنه.
* وفي رقعة متظلم من عامله على الأهواز، وكان بالمتظلم عارفاً: قد ولّيْناك موضعه، فتنكبْ سيرته.
* ووقّع في كتاب بكار الزّبيري إليه؛ يخبره بسرٍّ من أسرار الطالبِّيين: جزى الله الفضل خيْرَ الجزاء في اختياره إياك وقد أثابك أمير المؤمنين مائة ألف بحسن نيتك.
* وكتب إلى محفوظ صاحب خراج مصر: يا محفوظ، اجعل خراج مصر خَرجاً واحداً، وأنت أنت.
* ووقّع إلى صاحب المدينة: ضع رجليك على رقاب أهل هذا البطن فإنهم قد أطالوا ليلي بالسهاد، ونفَوْا عن عيني لذيذ الرقاد.
* ووقّع إلى السندي بن شاهك: خَفِ الله وإمامك، فهما نجاتُك.
* وإلى سليمان بن أبي جعفر في كتاب ورد عليه منه يذكر فيه وثوب أهل دمشق: استحَيْت بشيخ ولده المنصور، أن يهرب عمن ولَدَهُ كندة وطيء؛ فهلا قابلتَهم بوجهك، وأبديت لهم صفحتك، وبذلت لهم نصيحتك، وكنت كمروان ابن عمك إذ خرج مصلتاً سيفه متمثلاً ببيت الجحاف بن حكيم:

مُتقلِّدين صَفائحاً هنديَّةً ... يَترُكْنَ من ضربوا كمن لم يولَدِ

فجالد به حتى قُتل؛ لله أمٌّ ولدتْه؛ وأبٌ أنهضه.
* وكتب ملك الروم إلى هارون الرشيد: إني متوجه نحوك بكل صليب في مملكتي، وكلِّ بطلٍ في جندي. فوقّع في كتابه: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّـٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾[1].
* وكتب إليه يحيى بن خالد من الحبس حين أحس بالموت: قد تقدم الخصم إلى موقف

(١) سورة الرعد آية: ٤٢

الفصل، وأنت بالأثر، والله الحكم العدْل، وستَقْدُمُ فتعلم. فوقَّع فيه الرشيد: الحكم الـذي رضيته في الآخرة لك، هو أعدى الخصم في الدنيا عليك، وهو من لا يرد حكمه، ولا يُصرف قضاؤه[1].

* ووقَّع في حادث البرامكة بقوله: أنبتتهم الطاعة وحصدتهم المعصية.
* ومن عظيم توقيعاته رسالته إلى نقفور أمبراطور الروم: بسم الله الرحمن الرحيم. من هارون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم، وقد قرأت كتابك يا ابن الكافرة، والجواب ما تراه لا ما تسمعه[2].

فـــن الشـــعر :

يذهب كثير من النقاد والأدباء إلى أن الرشيد يمتاز بعاطفة فياضة، وإحساس مرهف، وشعـور حساس، ولسان فصيح، وذكاء حاد، وكل ذلك مؤهلات لشاعرية فذة، ولكن أعباء الملك، وحياة الخلافة شغلته عن قول الشعر والإجادة فيه.

والمصادر التي بين أيدينا حفظت لنا نتفاً من الشعر تنسبه لهارون، لكنها أكثرت من محاوراته مع جلسائه في لطائف الشعر وعلومه، فدل ذلك على طول باعه في هذا الميدان، وإنه كان شغوفاً بهذا الفن.

أسند الصولي عن معاوية بن صالح عن أبيه، قال: أول شعر قاله الرشيد، أنه حج سنة وليَ الخلافة، فدخل داراً، فإذا في صدر بيت منها بيت شعر قد كُتب على حائط:

ألا يـا أمـير المـؤمـنـين أمـا تـرى فديتُـكَ هجـران الحـبـيـب كـبـيراً

فدعا بدواة، وكتب تحته بخطه:

بلـى والهـدايا المُشـعَـراتِ ومـا مشـى بمـكـة مرفـوع الأظـل حسـيرا

(١) العقد العريد جـ ٤ ص ٢٩٧ ـ ٢٩٨

(٢) تاريخ ابن الوردي وغيره جـ ١ ـ ٣١٢

ونسبوا إليه قوله في قينة من جواريه:

تُبدي صدوداً وتُخفي تحته مقةً ... فالنفس راضية والطرف غضبانُ
يا من وضعتُ له خدي فذلله ... وليس فوقي سوى الرحمن سلطانُ

وأخرج عن عبدالله بن العباس بن الفضل بن الربيع قال: حلف الرشيد أن لا يدخل إلى جارية له أياما، وكان يحبها، فمضت الأيام ولم تسترضه فقال:

صَد عَنيِّ إذ رآني مفتتن ... وأطال الصبر لما أن فطن
كان مملوكي فأضحى مالكي ... إن هذا من أعاجيب الزمن

أحضر أباالعتاهية فقال: أجزهما فقال:

عِـزَّةُ الحِب أرَتْـهُ ذِلَّتي ... في هواه. وله، وجه حسن
فلهذا صرت مملوكا له ... ولهذا شاع ما بي وعلن

هذه الأبيات حفظها لنا ابن عبدربه الأندلسي في كتابه العقد الفريد، وينسبها إلى الخليفة الرشيد.

أما عن فهمه للشعر وطول باعه فيه، فالروايات كثيرة، وفي مصادر متعددة، ففي العقد الفريد نفسه:

وقد وصفه ابن دقماق بالعلم وإجادة الشعر، فيقول: «وكان الرشيد من أهل العلم، متضلعاً من الأدب، يجيد الشعر.

فمن شعره قوله:

ملك الثلاث الآنسات عناني ... وحللن من قلبي بكل مكان
مالي تطاوعني البرية كلها ... وأطيعهن وهن في عصياني
ماذاك إلا أن سلطان الهوى ... وبه قوين أعز من سلطاني

وأخرج عن سعيد بن مسلم قال: كان فَهْمُ الرشيد فَهْمَ العلماء، أنشده العُمَاني في صفة فرس:

كأن أذنيه إذا تشوفا ... قادِمَةً أو قلماً محرفا

فقال الرشيد: دع كأن وقل: تخال أذنيه، حتى يستوي الشعر[1].

فقد أرشد هارون شاعراً فحلا كالعتابي إلى إصلاح ما لحن فيه في هذا البيت.

وحج الرشيد وزميله أبويوسف القاضي؛ قال شرحبيل بن زائدة: وكان كثيراً ما أسايره إذ عرض له أعرابي من بني أسد فأنشده شعرا مدحه فيه وعرضه، فقال له الرشيد: ألم أنهك عن مثل هذا في شعرك يا أخا بني أسد؟ إذ أنت قلت فقل، كما قال مروان بن أبي حفصة في أبي هذا، وأشار إليّ يقول:

بنو مطرٍ يوم اللقاء كأنهم ... أسودٌ لها في غِيل خَفانَ أشبُلُ[2]

هُمُ يمنعون الجارَ حتى كأنما ... لجارهم بين السِّماكين منزل[3]

بهاليلُ الإسلام سادوا ولم يكن ... كأولهم في الجاهليّة أوّلُ[4]

هُمُ القومُ إن قالوا أصابوا، وإن دُعُوا ... أجابوا، وإن أعطَوْا أطابوا وأجزلوا

وما يستطيعُ الفاعلونْ فَعالهم ... وإنْ أحسَنوا في النائبات وأجمَلوا[5]

ودخل سهل بن هارون على الرشيد، فوجده يُضاحك ابنه المأمون، فقال: اللهم زده من الخيرات، وابْسُطْ له في البركات، حتى يكون كلُّ يوم من أيامه مُوفياً على أمسه، مُقصِّراً عن غدِه. فقال له الرشيد: يا سهل، مَن روى من الشعر أحسَنه وأجوده، ومن الحديث أصحَّه وأبلغَه، ومن البيان أفصحَه وأوضحَه، إذا رام أن يقول لم يُعجزه؟ قال سهل: يا أمير المؤمنين، ما ظننتُ أحداً تقدّمني سبقني إلى هذا المعنى. فقال: بل أعشى همدان حيث يقول:

وجدتُكَ أمسِ خيرَ بني لُؤيٍّ ... وأنت اليومَ خيرٌ منكَ أمس

وأنت غداً تَزيدُ الخيرَ ضِعفاً ... كذاكَ تزيدُ سادة عبدِ شمسِ[6]

---

(١) العقد الفريد جـ ٦ ص ٢١٣

(٢) الغيل: موضع الأسد

(٣) السماكان: نجمان نيران أحدهما في الشمال وهو السماك الرامح، والآخر في الجنوب وهو السماك الأعزل.

(٤) البهاليل: السيد المطاع.

(٥) العقد الفريد جـ ٦ ص ١٤١

(٦) العقد الفريد جـ ٦ ص ١٨٨

وبما يدل على حفظه الشعر واعتنائه به تلك المحاورة بينه وبين المفضل الضبي :

قال هارون الرشيد للمفضل الضبي : أنشِدنا بيتاً أوله أعرابي في شمْلته هبَّ من نومته، وآخره مدني رقيق، غُذي بماء العقيق. قال المفضل: هوّلت عليَّ يا أمير المؤمنين، فليت شعري بأي مهر نفتضّ عروس هذا الخدر؟ . قال هارون: هو بيت جميل حيث يقول:

ألا أيها النُّوَّامُ ويْحكم هُبوا أسائلكم: هل يَقتُلُ الرجلَ الحبُّ

فقال له المفضل: فأخبرني يا أمير المؤمنين عن بيت أوله أكثم بن صيفي في إصابة الرأي، وآخِره بقراطُ الطبيب في معرفته بالداء والدواء. قال له هارون: ما هو؟ قال: هو بيت الحسن بن هانىء حيث يقول:

دعْ عنكَ لوْمي فإنَّ اللَّوْمَ إغراءُ وداوِني بالتي كانت هي الداءُ

قال: صدقت.[1]

روى يعقوب بن صالح بن علي بن عبدالله بن عباس، قال: دخلت يوماً على الرشيد أمير المؤمنين وهو متغيّظ مُتربِّد، فندمت على دخولي عليه، وقد كنت أفهم غضَبَه في وجهه، فسلّمت فلم يردّ؛ فقلت: داهيةٌ نآد. ثم أومأ إليّ فجلست. فالتفت إليّ وقال: لله عبدالله ابن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، فلقد نطق بالحكم حيث يقول:

يا أيُّها الزّاجري عن شيمَتي سَفَهاً عمْداً عصيْتُ مقامَ الزاجِر النّاهي
اقْصِرْ فإنك من قومٍ أرُومتُهم في اللوْم فافخرْ بهم ما شئت أو باهي
يُزينُ الشُّعْرُ أفواهاً إذا نَطَقَتْ بالشِّعْر يوماً وقد يُزْري بأفواهِ
قد يُرْزَقُ المرءُ لا مِن فضْلِ حيلتِه ويُصرَفُ الرِّزقُ عن ذي الحيلة الدّاهِي.
لقد عَجِبتُ لقومٍ لا أصول لهمْ أثْروْا وليسوا وإن أثْروْا بأشباه
ما نالني من غنىً يوماً ولا عدمٍ إلّا وقولي عليه «الحمد لله»

(١) العقد الفريد جـ ٦ ص ٢٢٧

ـفقلت يا أمير المؤمنين، ومن ذا الذي بلغت عليه المقدرةُ أن يُسامي مثلك أو يدانيه؟
قال: لعله من بني أبيك وأمك[1].

لقد كان الرشيد يحفظ الشعر، ولكنه لا يحفظ منه إلا أجوده وأحسنه وأفيده له: قال هارون الرشيد: لو قيل للدنيا صِفي لنا نفسَك، وكانت ممن ينطق، ما وصفت نفسها بأكثر من قول أبي نواس:

إذا امتحن الدنيا لبيبٌ تكشّفت ... له عن عدوّ في ثياب صديق
وما الناسُ إلاّ هالكٌ وابن هالكٍ ... وذو نَسَبٍ في الهالكين عريقِ[2]

لقد اشتهر الرشيد بحسن صلته للشعراء، وحرصه على مجالستهم، والاستماع إليهم، ولكنه يأبى أن يسمع منهم فاحش القول، ورديء الشعر، ويرفض أن يكون في مجلسه من لا يرضى سيرته منهم، فقد أكثر الرشيد من تعزير أبي نواس الشاعر، وحبسه مرات متعددة، فقد ذكر ابن كثير في البداية والنهاية :.(جـ: ١٠ ص: ٢٥٤) عند ترجمة حياة الأمين: «إن الأمين وجد الشاعر أبي نواس مسجوناً في سجن الرشيد مع الزنادقة، فأحضره الأمين وأطلقه، على أن يتوب من آثامه».

ولذلك فإنه من المستنكر ما تذكره بعض كتب الأدب غير الموثوقة كالأغاني عن صلة الرشيد بأبي نواس، فإن هذا من الافتراء والأكاذيب على الرشيد، فلم يذكر ابن كثير وابن جرير في ترجمتهما لحياة الرشيد، أو حياة أبي نواس أية صلة بين أبي نواس والرشيد، وجلُّ ما ذُكر في الأغاني من الأخبار فهو من قبيل الكذب والافتراء.

وقد كان الرشيد يكرم الشعراء، ويعطي على قول الشعرالعطاء الكثير، وكانت أسارير وجهه تنبىء على سروره ورضاه به.

حدّث يوسف بن عمر المدني قال: حدثني الحارث بن عبيدالله قال: سمعت إسحاق الموصلي يقول: حضر مسامرةَ الرشيد ليلة عبثر المغني، وكان فصيحاً متأدباً، وكان مع ذلك يغني الشعر بصوت حسن، فتذاكروا رقة شعرِ المدنيين، فانشد بعض جلسائه أبياتا لابن الدمينة حيث يقول:

---

(١) العقد الفريد جـ ٢ ص ٥٥
(٢) العقد الفريد جـ ٣ ص ١٢٣

واذكُر أيامَ الحِمى ثم انثَني على كبدي من خشيةٍ أن تَصدّعا
وليست عشِيات الحمى برواجع عليكَ ولكن خلِّ عينيكَ تدْمعا
بَكت عيني اليُمْنى فلما زجرتُها عنِ الجهلِ بعد الحِلمِ أسبلتَا معا

فأُعجب الرشيد برقة الأبيات، فقال له عبثر: يا أمير المؤمنين، إن هذا الشعر مدني رقيق، قد غُذي بماء العقيق، حتى رق وصفا، فصار أصفى من الهواء، ولكن إن شاء أمير المؤمنين أنشدته ما هو أرق من هذا وأحلى، وأصلب وأقوى، لرجل من أهل البادية. قال: فإني أشاء. قال: وأترنم[1] به يا أمير المؤمنين قال: وذلك لك. فغنى لجرير:

إنَّ الذين غَدوا بلُبّكَ غادروا وشلا بعينِك لا يزال مَعينا
غيَّضْنَ من عَبراتِهنَّ وقُلن لِي ماذا لقيتَ من الهوى ولَقينا
راحوا العشيَّة روحةً مذكورة إن حرن حرنا أو هُدين هُدينا
فرموا بهنّ سَواهِمـا عرض الفَلا إن متنَ مِتنا أو حَيين حَيينا

قال: صدقت يا عبثرة! وخلع عليه وأجازه.[2].

وقال إسحاق الموصلي: دخلت على الرشيد، فأنشدته:

وآمرةٍ بالبخل قلت لها: اقصري فذلك شيء ما إليه سبيل
أرى الناس خِلَّانَ الجوادِ، ولا أرى بخيلا له في العالمين خليل
وإني رأيت البخل يُزْري بأهله فأكرمت نفسي أن يقال: بخيل
ومن خير حالات الفتى لو علمتِهِ إذا نال شيئا أن يكون ينيل
عطائي عطاء المكثرين تكرما ومالي كما قد تعلمين قليل
وكيف أخاف الفقر أو أحرم الغنى ورأي أمير المؤمنين جميل

فقال: لا كيف إن شاء الله، يا فضل أعْطِه مائة ألف درهم، لله در أبيات يأتينا بها! ما أجود أصولها، وأحسن فصولها! فقلت: يا أمير المؤمنين كلامك أحسن من شعري، فقال: يا فضل أعطه مائة ألف أخرى.

---

(١) الترنم بالشعر العفيف بدون موسيقا لا شيء فيه وهو حلال.
(٢) العقد الفريد جـ ٧ ص: ٣٧

وفي العقد الفريد من أخبار منحه وعطاياه للشعراء أخبار كثيرة من أراد الاستزادة فليرجع إلى هناك، وقد صدق فيه قول داود بن رزين:

وإنَّ أمـيـن الـلـهِ هـارون ذا الـنَّـدَى ... يُنيلُ الذي يرجوه أضعاف ما يرجو[1].

(1) الطبري جـ ٨ ص ٢٣٤

الباب السادس
ثناء العلماء وأهل التأريخ عليه

لقد أجمع المؤرخون على صفتين لهارون الرشيد:

الأولى: أنه كان يصلي في كل ليلة مئة ركعة إلى أن فارق الدنيا، إلا أن تعرض له علة.

الثانية: أنه كان يحج عاماً ويغزو عاماً، وكان إذا حجَّ أحج معه مائة رجل من العلماء يتكفل بنفقتهم وكسوتهم، فإذا لم يحج أحج عنه ثلاثمائة من العلماء بالنفقة السابغة، والكسوة التامة.

الثالثة: فقالها بعضهم: إنه كان يتصدق من صلب ماله في كل يوم بألف درهم بعد زكاته[1].

وفيما يلي ندرج في الفصل الأول: «شهادة المؤرخين القدامى له»

كما ندرج في الفصل الثاني: «شهادة المؤرخين في العصر الحديث»

---

(١) الطبري جـ: ٨ ص: ٣٤٧

الفصل الأول
شهادة المؤرخين القدامى له

وقد شهد له جملة من علماء عصره ومن بعدهم من المؤرخين، نثبت فيما يلي بعضاً من أقوالهم:

قال فيه جده المنصور: إن ابني هذا الأدعج سيلي الأمر إن شاء الله، ويسير سيرة صالحة، فسأله المهدي: «أتقول ذلك يا أبت عن أمر بان لك؟»
قال: «لا ولكني أتوسم ذلك»[1]

يقول الطبري: «وكان يقتفي آثار المنصور، ويطلب العمل بها إلا في بذل المال؛ فإنه لم يُرَ خليفة قبله كان أعطى منه للمال، ثم المأمون من بعده. وكان لا يضيع عنده إحسان محسن، ولا يؤخر ذلك في أوّل ما يجب ثوابه. وكان يحب الشعراء والشعر، ويميل إلى أهل الأدب والفقه، ويكره المراء[2] في الدين، ويقول: هو شيء لا نتيجة له، وبالحري ألا يكون فيه ثواب، وكان يحب المديح؛ ولا سيما من شاعر فصيح، ويشتريه بالثمن الغالي»[3].

ويقول ابن كثير عند ترجمته: «روى الحديث عن أبيه وجده، وحدّث عن المبارك بن فضالة عن الحسن عن أنس بن مالك، وقد حدّث عنه ابنه وسليمان الهاشمي والد إسحاق، ونباته بن عمرو.

وكان الرشيد أبيض طويلاً سميناً جميلاً، وقد غزا الصائفة في حياة أبيه مراراً، وعقد الهدنة بين المسلمين والروم بعد محاصرته القسطنطينية.

وكان يتصدق من صلب ماله في كل يوم بألف درهم، وإذا حج أحج معه مائة من الفقهاء وأبنائهم، وإذا لم يحج أحج ثلاثمائة بالنفقة السابغة والكسوة التامة، وكان يحب

---

(١) الإمامة والسياسة ج٣ ص ٣٧٩

(٢) المراء: الجدال

(٣) الطبري جـ: ٨ ص ٣٤٧ وقد ذكره السيوطي عن نفطويه.

التشبه بجده أبي جعفر المنصور إلا في العطاء، فإنه كان سريع العطاء جزيله، وكان يحب الفقهاء والشعراء ويعطيهم، ولا يضيع لديه بر ومعروف، وكان نقش خاتمه لا إله إلا الله، وكان يصلي في كل يوم مائة ركعة تطوعا إلى أن فارق الدنيا، إلا أن تعرض له علة»[1].

ويقول عنه الذهبي في سير أعلام النبلاء: «وكان من أنبل الخلفاء، وأحشم الملوك، ذا حج وجهاد، وغزو وشجاعة، ورأي، وكان أبيض طويلاً، جميلاً، وسميناً، إلى السمن، ذا فصاحة وعلم، وصبر بأعباء الخلافة، وله نظر جيد في الأدب والفقه، قد خطه الشيب، وكان يحب العلماء، ويعظم حُرُمات الدين، ويبغض الجدال والكلام، ويبكي على نفسه ولهوه وذنوبه، لاسيما إذا وعظ»[2].

وأما ابن خلدون فقد شنَّع على المتهمين للرشيد، وقال مشيداً به: «فحاشا الله ما علمنا عليه من سوء، وأين هذا من حال الرشيد وقيامه بما يجب لمنصب الخلافة، من الدين والعدالة، وما كان عليه من صحابة العلماء والأولياء، ومحاوراته للفضيل بن عياض، وابن السماك، والعُمري، ومكاتبته سفيان، وبكائه من مواعظهم، ودعائه بمكة في طوافه، وما كان عليه من العبادة، والمحافظة على أوقات الصلاة، وشهود الصبح لأول وقتها»[3].

قال السيوطي رحمه الله في تاريخ الخلفاء: وكان يكنى أبا موسى، فتكنى بأبي جعفر، حدّث عن أبيه وجده، ومبارك بن فضالة، وروى عنه ابنه المأمون وغيره.

وكان من أميز الخلفاء، وأجل ملوك الدنيا، وكان كثير الغزو والحج كما قال فيه أبو المعالي الكلابي:

فمن يطلب لقاءك أو يُرِدهُ فبالحرمين أو أقصى الثغور
ففي أرض العدو على طِمِر وفي أرض الترفُّهِ فوق كور[4]

يقول الماوردي[5]: «وكان هارون الرشيد متديناً، شديد التعصب للإسلام والديانة،

(١) البداية والنهاية جـ ١ ص ٢٢٢
(٢) سير أعلام النبلاء للذهبي ح ٩ ص ٢٨٧
(٣) مقدمة ابن خلدون ص: ١٧
(٤) تاريخ الخلفاء ص. ٢٨٤
(٥) نصيحة الملوك للماوردي ص ١٣٧

ظاهر الشهامة، جلداً في السياسة والحماية، ذاباً عن أركان الملة، منكمشاً في الدعوة، غزا الروم غير مرة بنفسه، وكتب إلى عظماء الكفرة بتهديده ووعيده، وحج إلى بيت الله ماشياً وراكباً، وقلّ ما كان يخلو من غزوة، أو حجة في كل عام، ولذلك قال فيه مادحه:

في كل عام غزوة ووفادة تَنْبَتُّ بين نواهما الأقران
غزو وحج مات بينهما الكرى باليعملان شعارها الوخدان
يصل الهجير بغرة مهدية لو شاء صان أديمها الأكنان
لكنه في الله مبتذل لها إنّ التقي مسرد ومعان

وكان مولعاً بالفقهاء، مقرباً للعلماء، مهتماً بأمر دينه، حتى كان يوصف بالتقوى والخشية، فقال فيه أبو نؤاس:

إمام يخاف الله حتى كأنه يراه من التقوى صباح مساء

وفي كثرة غزوه، وإخافته أهل الكفر والشرك يقول:

وأخفتَ أهل الشرك حتى إنه لتخافك النطف التي لم تخلق

كان الفضيل بن عياض يقول: « ما من نفس أشد عليّ موتاً من هارون الرشيد، ولوددتُ أن الله زاد من عمري في عمره».

فعظم ذلك على أصحابه فلما مات، وظهرت الفتن، وكان من المأمون ما حمل الناس عليه من القول بخلق القرآن، قالوا: الشيخ أعلم بما تكلم به[1].

وقال الذهبي رحمه الله: «ومحاسنه جمة»[2].

وقال غيره: «كانت أيام الرشيد كلها خير، كأنها من حُسنها أعراس»[3].

وقال القاضي الفاضل في بعض رسائله: «ما أعلم أن لملك رحلة قط في طلب العلم إلا للرشيد، فإنه رحل بولديه الأمين والمأمون لسماع الموطأ على مالك رحمه الله، قال: وكان

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي ص. ٢٢٠

(٢-٣) تاريخ الخلفاء ص. ٢٨٦.

أصل الموطأ بسماع الرشيد في خزانة المصريين، قال: ثم رحل لسماعه السلطان صلاح الدين ابن أيوب إلى الإسكندرية، فسمعه علي بن طاهر بن عوف، ولا أعلم لهما ثالثاً»[1].

قال عنه منصور بن عمار: «ما رأيت أغزر دمعاً عند الذكر من ثلاثة: الفضيل بن عياض. والرشيد، وأبي عبدالرحمن الزاهد»[2].

يقولُ ابن دُقماق: «وفي أيامه كملت الخلافة، بكماله وعدله، وتواضعه، ودينه، وزيارة الصالحين في ديارهم، كالإمام مالك بن أنس، وعبد الرزاق بن همام، وسفيان بن عيينة، والفضيل بن عياض وغيرهم.

وكان يحج سنة ويغزو أخرى، فحج تسع حجج، وغزا ثمان غزوات، وكان يركب الجمل إلى مكة ومعادله القاضي أبو يوسف صاحب الإمام أبي حنيفة، رضي الله عنهم.

وكان الرشيد من أهل العلم، متضلعاً من الأدب يجيد الشعر، وكان جواداً، ممدحاً، غازياً، مجاهداً، شجاعاً، مهيباً، مليحاً، أبيض طويلاً، عبل الجسم[3]، وقد خطه الشيب.

وكان يصلي كل يوم وليلة مائة ركعة، ويتصدق من خالص ماله في كل يوم بألف درهم، وكانت له معرفة جيدة بالعلوم»[4].

وصفه ابن الطقطقا في الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية فقال: «كان الرشيد من أفاضل الخلفاء وفصحائهم وعلمائهم وكرمائهم».

ويقول: «وكانت دولة الرشيد من أحسن الدول وأكثرها وقاراً ورونقاً وخيراً، وأوسعها رقعة مملكة، جبى الرشيد معظم الدنيا، وكان أحد عماله صاحب مصر، ولم يجتمع على باب خليفة من العلماء والشعراء والفقهاء والقرّاء والقضاة والكتاب والندماء والمغنين ما اجتمع على باب الرشيد».

---

(١) ماريح الخلفاء للسيوطي ٢٩٤

(٢) تاريخ بغداد حـ ١٤ ص ٨

(٣) عبل الجسم: ضخم الجسم وغليظه

(٤) الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين لابن دقماق

«وكان فاضلاً شاعراً راوية للأخبار والآثار والأشعار، صحيح الذوق والتمييز مهيباً عند الخاصة والعامة»[1].

وقد نال الرشيد هذا الثناء من المؤرخين أمثال ابن الأثير، والخطيب البغدادي، وغيرهما، وقد رأينا أن في ذكر ما قالوه تكريراً لثناء الطبري وابن كثير عليه، ولذلك نكتفي بما أوردناه من ذلك، وننتقل إلى مدائح الشعراء وقصائدهم فيه:

وقد مُدِحَ بغر القصائد من الشعراء المجيدين، فقد وصفه أشجع السلمي فقال:

وصلت يداك السيف يومَ تقطعت ... أيدي الرجال وزلتِ الأقدامُ
وعلى عدوِّك يا ابنَ عم محمدٍ ... رَصَدانِ ضوءُ الصبح والإظلامُ
فإذا تنبَّه رعته وإذا هدا ... سلَّتْ عليه سيوفك الأحلامُ

وله قوله فيه:

لا زلت تنشر أعياداً وتطويها ... تمضي بها لك أيام وتثنيها
مستقبلاً جِدَّة الدنيا وبهجتها ... أيامُها لك نظم في لياليها
العيدُ والعيدُ والأيام بينهما ... موصولة لك لا تغنى وتفنيها
وليهنك النصر والأيام مقبلة ... إليك بالفتح معقودا نواصيها

مدحه الشاعر: محمد بن مناذر «أبو ذريح» فقال:

لما رأينا هارون صار لنا ... الليل نهاراً بضوء هارون
فلو سألنا لحسن وجهك يا ... هارونُ صوب الغمام أُسقينا

ولكلثوم العتابي في مدح الرشيد من أبيات:

إمامٌ لهُ كفٌّ بنانُها ... عَصاً الدِّين ممنوع من البر عودها
وعينٌ محيطٌ بالبريَّة طرْفُها ... سواءٌ عليها قريبُها وبعيدها

(١) الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية ص ١٩٣ وما بعدها.

واسمعَ يقظاناً يبيتُ مُناجياً ... له في الحشا مستودعاتٍ يكيدها
سميْعٌ إذا ناداه من قعر كربةٍ ... منادٍ كفتْهُ دعوة لا يُعيدها[1]

ومنه قوله فيه:

لماذا عسى قائل يثني عليك وقد ... ناداك في الوحي تقديس وتطهير
فُتَّ المدائح إلا أن ألسننا ... مستنطقاتٌ بما تخفي الضمائر[2]

أما منصور بن سَلَمَة بن الزِّبْرِقان الشاعر المشهور بالنَّمَري، وكان الرشيد يُعطيه ويُجزل له، وكان يُظهر له أنَّه عبَّاسيُّ الرأيِ منافر لآل عليّ ولغيرهم، ومما قال في ذلك للرشيد:

يا ابنَ الأيمَّةِ من بَعْدِ النَّبيِّ ويا ... آبْنَ الأوصياءِ أَقَرَّ الناسُ أو دفَعُوا
إنَّ الخِلاَفَةَ كانَتْ إرْثَ والِدِكُمْ ... من دُونِ تَيْمٍ وعَفْوُ الله مُتَّسِعُ
لَوْلا عَدِيٌّ وتَيْمٌ لم تَكُنْ وَصَلَتْ ... إلى أُمَيَّةَ تَمْرِيها وتَرْتَضِعُ
وما لآلِ عَلِيٍّ في إمارَتِكُمْ ... وما لهم أَبَداً في إرْثِكُمْ طَمَعُ
يا أَيُّها الناسُ لا تَعْزُبْ حُلُومُكُمُ ... ولا تُضِفْكُمْ إلى أَكْنافها البِدَعُ
العَمُّ أَوْلَى من آبْنِ العَمِّ فاسْتَمِعُوا ... قَوْلَ النَّصِيحَةِ إنَّ الحَقَّ مُسْتَمَعُ

ودخل محمد بن ذؤيب الفقيمي المشهور بالعُماني على الرشيد لينشده وعليه قلنسوة طويلة، وخف ساذج، فقال له: إياك أن تنشدني إلا وعليك عمامة عظيمة الكور وخفان دلقمان، فبكَّر عليه من الغد وقد تزيا بزي الأعراب ثم أنشده وقبل يده، وقال: «يا أمير المؤمنين! قد والله أنشدتُ مروان ورأيتُ وجهه وقبَّلتُ يده وأخذتُ جائزته، ثم يزيد بن الوليد وإبراهيم بن الوليد، ثم السفَّاح، ثم المنصور، ثم المهديَّ، كلُّ هؤلاء رأيتُ وجوههم وقبَّلتُ أيديهم وأخذتُ جوائزهم، إلى كثير من أشباه الخلفاءِ وكبار الأمراءِ والسادة الرؤساءِ،

---

(١) مروج الذهب ج ٣ ص ٣٥٥
(٢) ذكره ابن قتيبة في الشعر والشعراء

والله ما رأيتُ فيهم أبهى منظراً، ولا أحسن وجهاً، ولا أنعم كفًّا، ولا أندى راحةً منك يا أمير المؤمنين»[1] ا .

أما محمد بن عبدالله بن رزين، وهو ابن عم دعبل بن علي، والمشهور بأبي الشِّيص وكان في زمن الرشيد، ولما مات الرشيد رثاه ومدح محمدا فقال:

جَرَتْ جَوَارٍ بالسَّعْدِ والنَّحْسِ ... فنَحْنُ في وَحْشَةٍ وفي أُنْسِ
العَينُ تَبْكِي والسِّنُّ ضاحِكَةٌ ... فنَحْنُ في مَأتَمٍ وفي عُرْسِ
يُضْحِكُنا القائِمُ الأَمِينُ ... وتُبْكِينا وَفَاةُ الإمامِ بالأَمْسِ
بَدْرانِ بَدْرٌ أَضْحَى ببغداد في ... الخُلْدِ وبَدْرٌ بطُوْسَ في الرَّمْسِ[2]

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة.
(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة.
(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة

الفصل الثاني

شهادة المؤرخين في العصر الحديث

إذا انتقلنا إلى المؤرخين في العصر الحديث نجدهم يثنون على الرشيد، ويفندون الروايات التي تنال منه، وينسبون ما أُثير حوله من شبهات إلى الفرس أو الشعوبية التي حاولت الحط من قيمة العرب، وعلى رأسهم الرشيد، لأنه يمثل قمة الشموخ العربي والإسلامي في الدولة العباسية، ولذلك أرادوا النيل منه للحط من العرب جميعاً، وللنيل من القيم الإسلامية التي كانت تتمثل في الرشيد، فأرادوا أن يلوثوا سمعته الطيبة، وسيرته الحميدة، وأن يظهروه بمظهر العاجز عن الحكم بدون البرامكة «الفرس»، والمنجرف وراء الشهوات والملذات، والمهزوز النفس، المزدوج الشخصية، وذلك رداً على من أثنى عليه بجميل صفاته، واستقامة أحواله، بأن ذلك موجود في الرشيد، ولكن لفترة، لأن شخصيته المزدوجة، تقبل الخير والشر، وتقدم على الجيد وضده، وتقوم بالعمل الصالح وعكسه.

لقد خاب ظن هؤلاء، فإن علماء التاريخ في العصر الحديث أثبتوا تحلي الرشيد بصفات الصلاح والعظمة، وأثبتوا ازدهار الحضارة، وتقدم العلم، واشتهار بغداد، وبعد صيتها، وذلك بفضل الرشيد وفي أيامه.

يقول الدكتور يوسف العش:

«يمثل عهد الرشيد في التاريخ العربي الإسلامي أزهى عصر وأجمل زمن، وصلت فيه الدولة إلى أوسع رقعة، انصبت فيه التيارات الثقافية المختلفة الناشئة قبل ذلك العصر. فاجتمعت متحدة متوائمة، وبدت في أجود مراحل حسنها وبهائها، فكان عصره حقا أبهى العصور، مثّل لنا الكمال والبهاء في التاريخ العربي الإسلامي، ومثّله أيضاً على

هذا المستوى في التاريخ العالمي، فالغربيون حين ينظرون إلى تاريخنا، يرون هذه الفترة أجمل مراحل تاريخنا»[1].

ويعنون الدكتور شاكر مصطفى بحثه عن فترة الرشيد، بأنها فترة الاستقرار، ويقول: وصورته من خلال ألف ليلة وليلة تشوهه، وتعطيه صورة اللاهي الماجن، مع أنه كان رجل دولة يغزو سنة ويحج أخرى»[2] ثم يقول بعد ذلك: «كان المؤرخون يسمون عصر الرشيد: «بأيام العروس» لحسنها، فقد تجمعت كل الظروف لتجعل من هذه الفترة عصراً ضخماً أشبه بعصر أغسطس في الرومان، أو بركليس في اليونان، أو لويس الرابع عشر في فرنسا، أو فكتوريا في انجلترا»[3].

ويصفه الدكتور السيد عبدالعزيز سالم، أستاذ التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية في جامعة الإسكندرية، بقوله: «ومن أعظم خلفاء بني العباس، وأكثرهم ذكراً في التاريخ العباسي، لما اتصف به من كرم وجود، ولما وصلت إليه الدولة الإسلامية في عهده من نهضة حضارية بلغت الأوج، فقد أصبحت بغداد في أيامه كعبة العلم والأدب، ومركز التجارة والصناعة»[4].

يقول الأستاذ محمود شاكر: «بلغت الدولة العباسية أوجها أيام الرشيد، فآباؤه قد وطدوا له الأمر فعم الاستقرار، ووصلت الدولة إلى غاية قوتها فساد الأمن، ولم يحدث الصراع على الحكم إذ كانت الدولة في مرحلة الشباب حيث لا يزال الشعور بالمعاناة قائماً للوصول إلى السلطة وانتزاعها من أيدي الأمويين.

وكان الرشيد شجاعاً قوياً فقد قاد الحملات والصوائف في عهد أبيه ولم يتجاوز العشرين من العمر، وسار على رأس الجيوش إلى بلاد الروم، وهو أمير المؤمنين، فطأطأ الروم رؤوسهم وأحنوا هاماتهم له، ورهبوه، وأخافوا رعاياهم به.

---

(١) تاريخ عصر الخلافة العباسية ص. ٥٧

(٢) (٣) أزمنة التاريخ الإسلامي ـ الجزء الأول ص. ٤٣٠ و ٤٣١.

(٤) العصر العباسي الأول ص. ٦٩

وكان تقياً ورعاً يخشى الله في أموره كلها، فقد كان يصلي في اليوم مائة ركعة نفلاً، ويكثر من الحج، فقد ولي أمر المسلمين ثلاثاً وعشرين سنة حج في خلالها تسع مرات وهي مواسم: ١٧٠-١٧٣-١٧٤-١٧٥-١٧٧-١٧٩-١٨١-١٨٦-١٨٨، حتى شاع بين الناس أنه يغزو عاماً، ويحج عاما، ويتصدق من صلب ماله، وقد تتبع الزنادقة وقتل منهم أعداداً»[١].

ويقول الدكتور حسن إبراهيم حسن، أستاذ التاريخ الإسلامي بجامعة بغداد:

«يعتبر هارون الرشيد أشهر خلفاء بني العباس، بلغت بغداد في عهده درجة لم تصل إليها من قبل، فأصبحت مركز التجارة، وكعبة رجال العلم والأدب، واشتهر اسم الرشيد في بلاد الغرب، لما كان بينه وبين شرلمان ملك الفرنجة من العلاقات السياسية وأواصر الود والصفاء.

ومما زاد في ذيوع شهرته بين أمم الغرب كتاب: «ألف ليلة وليلة» الذي تُرجم إلى معظم اللغات الأوروبية، حتى إنه لا تكاد تخلو منه مكتبة من مكتبات الأفراد في أوروبا وأمريكا»[٢].

ويقول الأستاذ محمد فريد وجدي، صاحب دائرة معارف القرن العشرين:

كان هارون الرشيد وديع الأخلاق، محباً للرعية حتى إنه كان يطوف ببغداد ليلاً، ليرى ما عليه العامة بنفسه، فإن رأى منكراً غيره، وكان محباً للعلم والعلماء، بلغت العلوم والآداب في أيامه أوجها الأعلى، وكان كثير العطاء، حتى قيل: «إنه لم يُرَ خليفة قبله أعطى منه للمال.

وقد كانت أيامه أحسن أيام دولة العباسيين، وأكثرها يمناً وبركة وصفاء، وقد بلغ من الشهرة في حياته وبعد مماته ما لم يبلغه غيره من الخلفاء»[٣]

ويذكر الدكتور محمد ماهر حمادة عن الرشيد قوله: «يعتبر عهد الرشيد مع عهد

---

(١) التاريخ الإسلامي جـ: ٥ ص: ١٥٧.

(٢): تاريخ الإسلام جـ: ٢ ص٠ ٥٠

(٣) دائرة معارف القرن العشرين، حـ ٦ ص. ١٠٩

المأمون، العصر الذهبي في التاريخ العباسي، فبدت الدولة العباسية أقوى دول الأرض، وحاربت الدولة البيزنطية وألزمت أمبراطورها أن يدفع الجزية عن نفسه وولده، وكان لشخصية الرشيد وولده المأمون أثر في هذا التطور والازدهار»[1].

ويصفه الدكتور منير البعلبكي فيقول: «خامس الخلفاء العباسيين، وأبعدهم شهرة، ابن الخليفة العباسي الثالث المهدي، ووالد الخلفاء الأمين والمأمون والمعتصم، يعتبر عهده في رأي جمهرة كبيرة من المؤرخين أزهى عصور التاريخ الإسلامي على الإطلاق.

حكم امبراطورية واسعة امتدت من سواحل البحر الأبيض المتوسط الغربية إلى الهند، باستثناء بيزنطة التي كانت تدفع إليه الجزية»[2].

«لقد كان الرشيد خليفة ديّناً، محافظاً على التكاليف الشرعية أتم محافظة، فأما صلاته فكان يصلي في كل يوم مائة ركعة إلى أن فارق الدنيا، إلا أن تعرض له علة، وأما صدقته فقد كان كل يوم يتصدق من صلب ماله بألف درهم سوى العطايا، وأما حجه فإنه كان لا يتخلف عنه إلا إذا كان مشغولاً بالغزو، وأما جهاده فإنه كان لا يترك الخروج مع جنده، بل كان غالباً في مقدمتهم، حتى لا يعتاد الراحة.

لذلك كانت الخلافة لعهده في أعلى درجات مهابتها في الداخل والخارج»[3].

وقد أنصفه الدكتور محمد أسعد طلس، وأثنى عليه خيراً، وكذّب ما قيل عنه من روايات مدسوسة، يقول في كتاب تاريخ العرب:

«كان الرشيد واسطة عقد بني العباس رجولةً ومروءةً وديناً وعفةً وتصدقاً، وما كان متزمتاً جافاً؛ بل كان يبيح لنفسه أن تلهو لهواً بريئاً شريفاً، كما كان ذا جهاد في سبيل الله ودمعة سريعة خوفاً من الله، ولولا بعض الهنات أُخذت عليه من تسيبه الأمر في أول عهده للبرامكة، ومن سوء عملته في قصة ولاية العهد، فقد عهد إلى الأمين، مع أن المأمون كان أحزم وأكبر، نزولاً عند إرادة زبيدة وبني هاشم، ومن استماعه للوشاة، ومن سماحه للنساء

(١) الوثائق السياسية والإدارية للعصر العباسي الأول ص٤٦

(٢) موسوعة المورد حـ٠ ٥ ص٠ ٧٥

(٣) محاضرات الأمم الإسلامية «الدولة العباسية» ص ١٣٥ وما بعدها.

بالمداخلة في شؤون الدولة، ومن إقراره لبعض طلبات عماله الظالمة. . أقول لولا هذه الهنات لكان عصر الرشيد، عصر الكمال في تاريخ الدولة الإسلامية؛ فإنه يندر وجود شخص يجمع ما حباه الله به من عقل، وعلم، وسياسة، وتشجيع لأهل الفضل والمروءة، وعناية بشؤون الدولة، والسهر عليها والحفاظ على مصالحها، وجهاد في سبيلها، ورفع شأن الخلافة في نظر العالم، هذه هي صورة هارون الرشيد الحقيقية كما نراها. أما ما يصوره به بعض القصاص والأسطوريين فحديث خرافة سببه (كتاب ألف ليلة وليلة) وبعض أصحاب الروايات والأقاصيص التي كتبت عن عهده بأقلام بعض الأوروبيين أو بعض المشارقة، فلا ينبغي أن نلتفت إلى ذلك بعدما عرفنا حقيقة الرجل، فقد كانت حياته وسيرته من أجل سير الرجال وأحفلها بالخير والعمل، منذ أن تولى إمارة المؤمنين إلى أن توفي شابا في ميعة العمر، ولم يكن له من العمر إلا أربع وأربعون سنة إذ مات في جمادى الأولى سنة ١٩٣هـ(٨٠٩م) وقد دامت خلافته ثلاثاً وعشرين سنة وشهرين ونصفاً.

وكان إذ ذاك خارجاً من بغداد قاصداً خراسان عندما بلغه خبر ثورة رافع بن الليث، وكان معه ابناه المأمون وصالح، وكان الأمين خليفته في بغداد. فلما وصل إلى طوس اشتدت به علته فمات رحمه الله، وصلى عليه ابنه صالح لأن المأمون كان سبقه إلى مرو. ودفن حيث لفظ أنفاسه بطوس، ولا يزال قبره معروفاً هناك إلى جانب الإمام علي بن موسى الرضا في مدينة مشهد»[1].

(١) كتاب تاريخ العرب ج٢ ص ١٣١ - ١٣٢

الباب السابع
بطانة الرشيد

يُعرف المرء بمن يصاحب، ويُعرف الخلفاء بمن يجالسونهم، فهذه كوكبة من العلماء كانت حول الرشيد، تشكل سياجاً مانعاً قوياً ضد الظلم والجهل والتهور، وسداً حائلاً ضد الشهوات والنزوات.

فقد حباه الله بهؤلاء الأعلام ينصحونه ويعظونه، وينبهونه، ويعلمونه، ويشيرون عليه، ويحجون معه، ويجالسونه في خلواته، ويسامرونه في سهراته، ويكونون معه على طعامه، يلقمهم الطعام بيديه، ويقف على رجليه يصب على أيديهم الماء تواضعاً وحباً للعلم والعلماء، بل يسبق الخلفاء حين حمل ولديه إلى المدينة يقرأ على عالمها الموطأ. فالرشيد وهؤلاء بطانته، فكيف يجرؤ رجل عنده العلم والمروءة على اتهامه بالانفصام النفسي، والترف، والجري وراء الملذات الشهوانية، والسرف والتبذير، ومحاكاة القياصرة والجبابرة في حياتهم ونظامهم وظلمهم، وغير ذلك من أبشع الألقاب، وأسوأ الاتهامات.

وبربك! من كان مع هؤلاء العلماء، هل يكون كما وصفوه؟ إنهم يفترون الكذب، ولكن لا يعلمون، إنها الشعوبية الحاقدة التي تغذي هؤلاء، وإنها البلادة الفكرية، وقصر الطرف، وقلة الحنكة، ووراء من اتهمه من المسلمين العدول، الذين انساقوا وراء الروايات الكاذبة، وأخبار الأدب والمجون.

فمن هؤلاء الجهابذة من العلماء والزهاد والدعاة، الذين كانوا للرشيد بطانة صالحة، وله عوناً على نوائب الدهر:

(١) علي بن حمزة الكسائي:

منهم مؤدبه ومؤدب ولده الأمين، علي بن حمزة بن عبدالله الأسدي بالولاء، الكوفي، أبو الحسن الكسائي.

شيخ القراءة والعربية، الملقب بالكسائي، لكساء أحرم فيه، حدّث عن جعفر الصادق، والأعمش، وسليمان بن أرقم، وجماعة، واختار قراءة اشتهرت وصارت إحدى السبع»[1].

قال ابن الأنباري: اجتمع فيه أنه كان أعلم الناس بالنحو، وواحدهم في الغريب، وأوحد في علم القرآن، كانوا يكثرون عليه حتى لا يضبط عليهم، فكان يجمعهم ويجلس على كرسي، ويتلو وهم يضبطون عنه حتى الوقوف»[2].

كان الكسائي ذا منزلة رفيعة عند الرشيد، وأدّب ولده الأمين، ونال جاها وأموالاً، «وقد أخرجه من طبقة المؤدبين إلى طبقة الجلساء والمؤانسين»[3].

للكسائي تصانيف كثيرة منها: «معاني القرآن» و «المصادر» و «الحروف» و «القرآن» و «النوادر» و «مختصر في النحو» و «المتشابه في القرآن».. إلخ.

سار مع الرشيد، فمات بالري بقرية أرنبوية سنة تسعٍ وثمانين ومئة، عن سبعين سنة، رحمه الله.

(٢) عبدالملك بن قريب الأصمعي:

ومنهم مؤدبه ومؤدب ولديه: الإمام العلامة الحافظ، حجة الأدب، لسانُ العرب، أبو سعيد عبدالملك بن قريب بن عبدالملك بن علي بن أصمع، الملقب بالأصمعي.

قال عنه الشافعي: «ما عبَّر أحد عن العرب بأحسن من عبارة الأصمعي»[4].

قال نصر الجهضمي: «كان الأصمعي يتقي أن يُفسر الحديث، كما يتقي أن يفسر القرآن»[5] وهذا إنما يدل على ورعه وصدقه، فهو إنما يمتنع عن التفسير مخافة أن يقع في الخطأ أو الكذب.

---

(١) سير أعلام النبلاء ٩ ص ١٣١

(٢) المصدر السابق.

(٣) الأعلام للزركلي جـ ٤ ص ٢٨٣

(٤) سير أعلام النبلاء جـ ١٠ ص: ١٧٧

(٥) المرجع السابق

وقد كان معروفاً بكثرة الحفظ، ورواية الشعر، فقربه الخلفاء، وخاصة الرشيد، فكان يحبه ويثق به، ويجزل له العطاء على أدبه وأخباره، وروايته الشعر.

لقد كان الأصعمي نحويا إضافة إلى كونه لغوياً وراوية للشعر، وقد خلّف ثروة من الكتب القيمة، منها : «خلق الإنسان» و «الإبل» و «المرادف» و «الفرق» و «الشاعر» و«الدارات»و«الوحوش وصفاتها» و «القلب والإبدال» و «كتاب الهمزة» وقد اختار أجود القصائد يؤدب بها الرشيد بأمر الخليفة المهدي، وقد عرفت هذه القصائد باسم «المفضليات».

ولد الأصمعي في البصرة، ومات فيها سنة ٢١٥هـ. رحمه الله وأجزل ثوابه.

(٣) القاضي: يعقوب بن إبراهيم:

ومنهم قاضيه: القاضي أبو يوسف، وهو يعقوب بن إبراهيم بن حبيب بن سعد بن حسنة، وهي أمه، وأبوه بجير بن معاوية، استصغر يوم أحد، وأبو يوسف كان أكبر أصحاب أبي حنيفة، روى الحديث عن الأعمش وهمام بن عروة ومحمد ابن اسحاق ويحيى ابن سعيد وغيرهم، وعنه محمد بن الحسن وأحمد بن حنبل ويحيى بن معين.

قال علي بن الجعد: سمعته يقول: توفي أبي وأنا صغير فأسلمتني أمي إلى قصَّار ،كنت أمر على حلقة أبي حنيفة فأجلس فيها، فكانت أمي تتبعني فتأخذ بيدي من الحلقة وتذهب بي إلى القصار، ثم كنت أخالفها في ذلك وأذهب إلى أبي حنيفة، فلما طال ذلك عليها قالت لأبي حنيفة: إن هذا صبي يتيم ليس له شيء إلا ما أطعمه من مغزلي، وإنك قد أفسدته علي، فقال لها: اسكتي يا رعناء[1] ها هو ذا يتعلم العلم وسيأكل الفالوذج بدهن الفستق من صحون الفيروزج، فقالت له: إنك شيخ قد خرفت.

قال أبو يوسف: فلما وليت القضاء وكان أول من ولاه القضاء الهادي وهو أول من لُقِّب قاضي القضاة، وكان يقال له: قاضي قضاة الدنيا، لأنه كان يستنيب في سائر الأقاليم التي يحكم فيها الخليفة. قال أبو يوسف: فبينا أنا ذات يوم عند الرشيد إذ أتي بفالوذج في صحن فيروزج فقال لي: كل من هذا، فإنه لا يصنع لنا في كل وقت، وقلت: وما هذا يا

(١) رعناء حمقاء

أمير المؤمنين؟ فقال: هذا الفالوذج. قال فتبسمت فقال: مالك تبتسم؟ فقلت: لا شيء أبقى الله أمير المؤمنين. فقال: لتخبرني فقصصت عليه القصة فقال: إن العلم ينفع ويرفع في الدنيا والآخرة. ثم قال: رحم الله أبا حنيفة، فلقد كان ينظر بعين عقله ما لا ينظر بعين رأسه، وكان أبو حنيفة يقول عن أبي يوسف: إنه أعلم أصحابه. وقال المزني: كان أبو يوسف أتبعهم للحديث. وقال ابن المديني: كان صدوقا. وقال ابن معين: كان ثقة. وقال أبو زرعة: كان سليما من التجهم، وقال بشار الخفاف: سمعت أبا يوسف يقول: من قال القرآن مخلوق فحرام كلامه، وفرض مباينته، ولا يجوز السلام ولا رده عليه. ومن كلامه الذي ينبغي كتابته بماء الذهب قوله: من تتبع غرائب الحديث كذب، ومن طلب العلم بالكلام تزندق.

ولما تناظر هو ومالك بالمدينة بحضرة الرشيد في مسألة الصاع وزكاة الخضروات احتج مالك بما استدعى به من تلك الصيعان المنقولة عن آبائهم وأسلافهم، وبأنه لم يكن الخضروات يخرج فيها شيء في زمن الخلفاء الراشدين. فقال أبو يوسف: لو رأى صاحبي ما رأيت لرجع كما رجعت، وهذا إنصاف منه.

وقد كان يحضر في مجلس حكمه العلماء على طبقاتهم، حتى إن أحمد بن حنبل كان شابا وكان يحضر مجلسه في أثناء الناس فيتناظرون ويتباحثون، وهو مع ذلك يحكم وينصف أيضاً، وقال: وليت هذا الحكم وأرجو الله أن لا يسألني عن جور ولا ميل إلى أحد، إلا يوماً واحداً جاءني رجل فذكر أن له بستاناً وأنه في يد أمير المؤمنين، فدخلت إلى أمير المؤمنين فأعلمته فقال: البستان لي اشتراه لي المهدي. فقلت: إن رأى أمير المؤمنين أن يحضره لأسمع دعواه، فأحضره فادعى بالبستان فقلت: ما تقول يا أمير المؤمنين؟ فقال: هو بستاني، فقلت للرجل: قد سمعت ما أجاب، فقال الرجل: يحلف، فقلت: أتحلف يا أمير المؤمنين؟ فقال: لا، فقلت سأعرض عليك اليمين ثلاثا فان حلفت وإلا حكمت عليك يا أمير المؤمنين، فعرضتها عليه ثلاثا فامتنع فحكمت بالبستان للمدعي، قال: ... ت في أثناء الخصومة أود أن ينفصل ولم يمكني أن أجلس الرجل مع الخليفة، وبعث القاضي أبو يوسف في تسليم البستان إلى الرجل.[1].

(١) البداية والنهاية جـ. ١٠ ص: ١٨٦ ـ ١٨٧.

أبـو يوسف رحمـه الله الذي لا يخشى في الله لومة لائم، والذي يقدم كتابه القيم «الخراج» إلى الرشيد بهذه العبارات التي تحمل أعنف نصيحة، وأشد لهجة تُقَدم إلى خليفة من خلفاء المسلمين إذ يقول:

«يا أمـير المؤمنـين، لقـد قلدك الله أمراً عظيماً، ثوابه أعظم الثواب، وعقابه أشد العقاب، قلدك أمر هذه الأمة، إلى أن قال: «فلا تضيعن ما قلدك الله من أمر هذه الأمة، ولا تؤخر عمل اليوم إلى غد، فإنك إن فعلت ذلك أضعت، وإياك والأمر بالهوى والأخذ بالغضب، وإذا نظرت إلى أمرين أحدهما للآخرة، والآخر للدنيا فاختر أمر الآخرة على أمر الـدنيا، فإن الآخرة، تبقى والدنيا تفنى، وكن من خشية الله على حذر، واجعل الناس عنـدك سواء، والقـريب والبعيد، واحـذر فان الحـذر بالقلب، وليس باللسان، واعمل للموقف الأعظم الذي تنخلع فيه القلوب، وتنقطع فيه الحجج، لعزة ملك قهرهم جبروته، والخلق وآخرون بين يديه، ينتظرون قضاءه، ويخافون عقوبته، وكان ذلك قد كان، فأعد للمسألة جوابها، فإن ما عملت قد أثبت فهو غدا عليك يقرأ، فاذكر كشف قناعك فيما بينك وبين الله في مجمع الأشهاد.

إنك راع وإن الراعي المضيع يضمن ما هلك على يديه، فاحذر أن تضيع رعيتك فيستوفي ربها حقها منك، ويضيعك بما أضعت أمانتك، وإن صلاح الناس بإقامة الحدود عليهم ورفع الظلم عنهم.

إن هذا الكلام لا يقوله إلا قاض عادل، ولا يسمعه إلا خليفة عادل. رحمهما الله.

(٤) القاضي: محمد بن الحسن الشيباني:

ومن خيرة القضاة والفقهاء الذين لعبوا دوراً مهماً في خلافة الرشيد؛ محمد بن الحسن بن فرقد الشيباني، المولود سنة ١٣١هـ في واسط بالعراق، وأصل أسرته من حرستا بغوطة دمشق، ونشأ في الكوفة حيث مناهل العلم والمعرفة، عرف أبا حنيفة، وحضر حلقته، وأخذ منه، وذلك لمدة أربع سنوات، ثم فارق أبو حنيفة الحياة، فالتزم محمد بن الحسن أبا يوسف صاحب أبي حنيفة.

رحل إلى بغداد رغبة في الاستزادة من العلم والمعرفة، ولكن شهرته ومناقبه وصلت

إلى الرشيد فرغب في لقائه، ثم اختاره فيها بعد لقضاء الرقة، وقد تضايق محمد من هذا الاختيار لرغبته بالتحصيل العلمي، وكراهته الارتباط بالمنصب الرسمي آنذاك.

عزله الرشيد عن قضاء الرقة، فعاد إلى بغداد، وقد اتهمه الرشيد بحض الطالبيين على الثورة ضده، بعد ما أفتى بعدم انتقاض كتاب الأمان الذي منحه الرشيد ليحيى بن عبدالله الطالبي، وخالف بذلك القاضي أبي البختري الذي عدد وجوه نقضه، ثم مزقه، فلم ينسَ الرشيد له موقفه، ومع ذلك ظل الرشيد يحترمه ويقدره رغم عزله، ولذلك اختاره قاضياً للقضاة بعد فترة وجيزة.

ويدل اختيار الرشيد له قاضياً للقضاة على ثقته به، وعلو كعبه في العلوم، وقد أثبت مرة ثانية قوته وصلابته في فتاويه، فقد أفتى ـ خلافاً لرغبة الرشيد ـ بعدم جواز نقض الصلح المعقود مع بني تغلب منذ عهد عمر رضي الله عنه.

والرشيد معذور في رغبته، فقد كان بعض أفراد هذه القبيلة يعاون الروم خفية ضد الرشيد، وهذا فيه نقض لبعض شروط الصلح، ولكن الرشيد أمضى رغبة قاضيه، وأنفذ فتواه.

قال الجصاص: «وقد حدثنا مكرم بن أحمد بن مكرم قال: حدثنا أحمد بن عطية الكوفي قال: سمعت أبا عبيد يقول: كنا مع محمد بن الحسن إذ أقبل الرشيد فقام الناس كلهم إلا محمد بن الحسن فإنه لم يقم، وكان الحسن بن زياد معتل القلب على محمد بن الحسن فقام ودخل ودخل الناس من أصحاب الخليفة، فأمهل الرشيد يسيراً ثم خرج الآذن فقال: محمد بن الحسن فجزع أصحابه له فأدخل فأمهل، ثم خرج طيب النفس مسروراً، قال: قال لي: مالك لم تقم مع الناس؟ قلت: كرهت أن أخرج عن الطبقة التي جعلتني فيها، إنك أهلتني للعلم فكرهت أن أخرج إلى طبقة الخدمة التي هي خارجة منه، وإن ابن عمك ﷺ قال: «من أحب أن يتمثل له الرجال قياماً فليتبوأ مقعده من النار» وإنه إنما أراد بذلك العلماء، فمن قام بحق الخدمة وإعزاز الملك فهو هيبة للعدو، ومن قعد اتبع السنة التي عنكم أُخذت، فهو زين لكم، قال: صدقت يا محمد، ثم شاورني فقال: إن عمر بن الخطاب صالح بني تغلب على أن لا يُنَصِّروا أولادهم، وقد نَصَّروا أبناءهم وحلت

بذلك دماؤهم فما ترى؟ قال: قلت: إن عمر أمرهم بذلك وقد نَصَّروا أولادهم بعد عمر واحتمل ذلك عثمان وابن عمك وكان من العلم بما لا خفاء به عليك، وجرت بذلك السنين، فهذا صلح من الخلفاء بعده، ولا شيء يلحقك في ذلك، وقد كشفت لك العلم ورأيك أعلى. قال: لا ولكنا نجريه على ما أجروه إن شاء الله، إن الله جل اسمه أمر نبيه بالمشورة. . فكان يشاور في أمره فيأتيه جبريل بتوفيق الله، ولكن عليك بالدعاء لمن ولاه الله أمرك، ومر أصحابك بذلك وقد أمرت لك بشيء تفرقه على أصحابك، قال: فخرج له مال كثير ففرقه»[1].

خلف محمد بن الحسن الشيباني ثروة من العلم كبيرة، وله الفضل في نشر مذهب أبي حنيفة، توفي الإمام رحمه الله في رمبويه من قرى الري، وكان بصحبته الرشيد، كما توفي معه الكسائي النحوي، فقال الرشيد حزناً: «دفنت الفقه والنحو بالري».

(٥) القاضي: حفص بن غياث:

ومن العلماء القضاة الذين عاصروا الرشيد واشتهروا بالحزم والعلم: الإمام العلامة قاضي الكوفة ومحدثها: حفص بن غياث المولود سنة سبع عشرة ومئة، والمتوفى سنة أربع وتسعين ومئة.

ذكر الذهبي عن المُسَلَّم بن محمد، أن رجلاً باع لوكيل زبيدة جمالاً بثلاثين ألف درهم، وأخذ الوكيل يماطل بالدفع، فاشتكاه الرجل إلى حفص بن غياث، فأقر الوكيل بالمال، وامتنع عن الدفع، فحبسه حفص القاضي، فكتبت زبيدة زوج الرشيد إلى صاحب الشرطة السندي بن شاهك ليخرجه، فأخرجه، فلما سمع حفص بذلك عزم ألا يجلس للقضاء حتى يرد الوكيل إلى السجن، فخاف السندي من غياث فنصح زبيدة برده إلى السجن، فردته إليه، ولكنها ألحت على روجها هارون الرشيد ليكتب إلى قاضيه ليخرج الوكيل من السجن، فأمر لها بالكتاب، فلما ورد الكتاب إلى حفص كان يشتغل بإثبات الدَّين على الوكيل، ولذلك لم يلتفت إلى الخادم أو يأخذ منه الكتاب، فلما فرغ من السجل، أخذ الكتاب من الخادم، فقرأه، فقال: اقرأ على أمير المؤمنين السلام وأخبره أنَّ كتابه ورد،

(١) الامام محمد بن الحسن الشيباني للدكتور محمد الدسوقي ص٨٩ - ٩٠

وقد أنفذت الحكم، فقال الخادم: قد والله عرفتُ ما صنعت، أبيت أن تأخذ كتاب أمير المؤمنين حتى تفرغ مما تريد، والله لأخبرنه بما فعلت، فلما جاء الخادم للخليفة أخبره بما فعل القاضي، فضحك الرشيد، وقال للحاجب: مُر لحفص بثلاثين ألف درهم»[1].

أرأيت إنه يكافىء القاضي لأنه أنفذ الحق، ورفض تدخل الخليفة في الأمر.

(٦) إمام المذهب المالكي: مالك بن أنس:

ومنهم الإمام مالك بن أنس الذي رحل هارون الرشيد بولديه الأمين والمأمون إلى المدينة، وذلك لسماع الحديث من عالمها: الإمام مالك رحمه الله. فهو شيخ الرشيد وشيخ ولديه. وقد رفض المثول أمام الرشيد عندما طلب منه ذلك وقال له: العلم يُؤتى إليه، فكان ذلك سبب رحلة الرشيد إليه.

ولـد الإمام مالك سنة ثلاث وتسعين من الهجرة، وينتهي نسبه إلى ملوك حمير في الجاهلية، فلما شب عكف على طلب العلم من جهابذته في المدينة، أمثال: ابن هرمز وابن شهاب الزهري، وربيعة بن أبي عبدالرحمن، وقد روى مالك عن نافع مولى عبدالله بن عمر المتوفي سنة ١٢٠هـ، وكذلك سمع مالك من جعفر الصادق، كما التقى بالإمام الليث بن سعد.

عاصر الإمام مالك قيام الدولة العباسية، وقد ناله بعض الأذى حيث ضرب ما بين ثلاثين إلى مئة سوط، وخلعت كتفه، حينما أفتى الناس: بأنه ليس على مكره يمين، وأن يمين الطلاق لا يقع على المكره، والناس إنما بايعوا للعباسيين كرها، فصوغت هذه الفتوى الانضمام إلى محمد النفس الزكية والثورة على أبي جعفر المنصور، ولكن العباسيين لم يلبثوا أن ثابوا إلى رشدهم ورفعوا الحيف عن الإمام مالك، وقربوه منهم، وسمعوا منه الموطأ، وكان ذلك من المهدي، ومن ولده الرشيد، وولدي الرشيد: الأمين والمأمون.

عاش الإمام مالك فترة من الزمن في خلافة الرشيد، حيث وافاه الأجل سنة تسع وسبعين ومائة رحمه الله.

(١) سير أعلام النبلاء جـ ٩ ص ٢٩

انتشر مذهب مالك في الأصقاع الإسلامية، وخاصة في المغرب الإسلامي، حدّث أبو زرعة الدمشقي فقال: سمعت أبا مسهر يقول: سأل المأمون مالك بن أنس هل لك دار؟ فقال لا، فأعطاه ثلاثة آلاف دينار، وقال: اشتر لك بها داراً، فلما أراد المأمون الانصراف قال لمالك: تعال معنا فإني عزمت أن أحمل الناس على الموطأ كما حمل عثمان الناس على القرآن، فقال له مالك: مالك إلى ذلك سبيل، ورفض الخروج من المدينة[1].

ويبدو لي أن الحديث كان بين أبي جعفر المنصور ومالك، لأن الإمام مات قبل خلافة المأمون، أو بين الرشيد ومالك وهو الأرجح للخبر الآتي، عن عبدالله بن عبدالحكم قال: سمعت مالك بن أنس يقول: شاورني هارون الرشيد في ثلاث: في أن يعلق الموطأ في الكعبة ويحمل الناس على ما فيه، وفي أن ينقض منبر النبي ﷺ ويجعله من جوهر وذهب وفضة، وفي أن يقدم نافع بن أبي نعيم إماما يصلي في مسجد رسول الله ﷺ، فقلت: يا أمير المؤمنين، أما تعليق الموطأ في الكعبة، فإن أصحاب رسول الله ﷺ اختلفوا في الفروع، وتفرقوا في الآفاق، وكل عند نفسه مصيب، وأما نقض منبر رسول الله ﷺ واتخاذك إياه من جوهر وذهب وفضة، فلا أرى أن تحرم الناس أثر النبي ﷺ، وأما تقدمتك نافعا إماما يصلي بالناس في مسجد رسول الله ﷺ فإن نافعا إمام في القراءة، لا يُؤمن أن تندر منه نادرة في المحراب فتحفظ عليه، قال: وفقك الله يا أبا عبدالله[2].

هذا موقف الرشيد من الإمام، طلب فتواه فلما نهاه عما عزم عنه امتثل دون اعتراض.

(٧) إمام المذهب الشافعي: محمد بن إدريس الشافعي:

ومنهم الإمام الشافعي: محمد بن إدريس الهاشمي القرشي المطلبي، أحد الأئمة الأربعة، وإليه نسبة الشافعية، ولد في غزة في فلسطين سنة «١٥٠ هجرية»، فحملته أمه إلى مكة حتى لا يضيع نسبه، فنشأ بها، وقرأ القرآن وهو ابن سبع سنين، وحفظ الموطأ، وأذن له شيخه مسلم بن خالد الزنجي بالفتيا صغيراً.

---

(١) حلية الأولياء ج٠ ٦ ص٠ ٣٣١.

(٢) حلية الأولياء ج: ٦ ص٠ ٣٣٢

برع الإمام الشافعي في الفقه وأصوله، وفي الحديث، وفي اللغة وآدابها، وفي الشعر، وأيام العرب، وفي القرآن وعلومه، وله تصانيف كثيرة.

ذكر ابن كثير عن ابن أبي حاتم عن الشافعي: أنه ولّي الحكم بنجران من أرض اليمن، ثم تعصبوا عليه ووشوا به إلى الرشيد أنه يروم الخلافة، فحُمل إلى بغداد فدخلها سنة أربع وثمانين ومائة، والأرجح أنه حُمل مع أحد الخوارج إلى بغداد، وكان قد شنع عليه الشافعي، فلما رآه الرشيد وسمع منه، وناظر محمد بن الحسن القاضي، أُعجب به الرشيد، وأكرمه محمد بن الحسن، وأعطاه كتب أبي حنيفة يتفقه بها.

وذكر في الحلية عن عبد الأعلى بن حماد النرسي، قال: قال الرشيد يوماً للفضل بن الربيع وهو واقف على رأسه: يا فضل! أين هذا الحجازي؟ - كالمغضب - فقلت: ها هنا. فقال: علي به، فخرجت وبي من الغم والحزن لمحبتي للشافعي لفصاحته وبراعته وعقله، فجئت إلى بابه فأمرت من دق عليه، وكان قائماً يصلي فتنحنح، فوقفت حتى فرغ من صلاته وفتح الباب، فقلت: أجب أمير المؤمنين. فقال: سمعاً وطاعة. وجدد الوضوء وارتدى وخرج يمشي حتى انتهينا إلى الدار، فمن شفقتي عليه قلت: يا أبا عبدالله قف حتى أستأذن لك، فدخلت على أمير المؤمنين فإذا هو على حالته كالمغضب، وقال: أين الحجازي؟ فقلت: عند الستر، فجئت إليه، فقام يمشي رويداً ويحرك شفتيه، فلما بصر به أمير المؤمنين قام إليه فاستقبله وقبل بين عينيه، وهش وبش وقال: لِمَ لا تزورنا أو تكون عندنا؟ فأجلسه وتحدثنا ساعة، ثم أمر له ببدرة دنانير، فقال: لا أرب لي فيه، قال الفضل فأومأت إليه فسكت، وأمرني أمير المؤمنين أن أرده إلى منزله، فخرجت والبدرة تحمل معه، فجعل ينفقها يمنة ويسرة حتى رجع إلى منزله وما معه دينار[1].

وله موعظة بليغة قالها للرشيد بعد محاورة طويلة جرت بينهما قال:

«يا أمير المؤمنين! اعلم أن الله جل ثناؤه امتحنك بالنعم، وابتلاك بالشكر، ففضل النعمة أحسن لتستغرق بقليلها كثيراً من شكرك، فكن لله تعالى شاكراً ولآلائه ذاكراً، تستحق منه المزيد، واتق الله في السر والعلانية تستكمل الطاعة، واسمع لقائل الحق وإن

---

(١) حلية الأولياء جـ. ٩ ص. ٨١

كان دونك تشرف عند الله، وتزد في عين رعيتك، واعلم أن الله سبحانه وتعالى يفتش سرك فإن وجده بخلاف علانيتك شغلك بهم الدنيا وفتق لك ما يزنق عليك، واستغنى الله والله غني حميد، وإن وجده موافقا لعلانيتك أحبك وصرف هم الدنيا عن قلبك، وكفاك مؤونة نظرك لغيرك، وترك لك نظرك لنفسك، وكان المقوي لسياستك، ولن تطاع إلا بطاعتك لله تعالى، فكن له طائعاً تكتسب بذلك السلامة في العاجل، وحسن المنقلب في الآجل ﴿ إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون﴾ واحذر الله حذر عبد علم مكان عدوه، وغاب عنه وليه، فتيقظ خوف السرى، لا تأمن من مكر الله لتواتر نعمه عليك، فإن ذلك مفسدة لك، وذهاب لدينك، وأسقط المهابة في الأولين والآخرين، وعليك بكتاب الله الذي لا يضل المسترشد به، ولن تهلك ما تمسكت به فاعتصم بالله تجده تجاهك، وعليك بسنة رسول الله ﷺ تكن على طريقة الذين هداهم الله فبهداهم اقتده، وما نصب الخلفاء المهديون في الخراج والأرضين، والسواد والمساكن والديارات، فكن لهم تبعا وبه عاملا راضيا مسلما، واحذر التلبيس فيه فإنك مسئول عن رعيتك، وعليك بالمهاجرين والأنصار ﴿الذين تبوؤوا الدار والإيمان﴾ فاقبل من محسنهم وتجاوز عن مسيئهم وآتهم من مال الله الذي آتاك، ولا تكرههم على إمساك عن حق، ولا على خوض في باطل، فإنهم الذين مكنوا لك البلاد، واستخلصوا لك العباد ونوروا لك الظلمة، وكشفوا عنك الغمة، ومكنوا لك في الأرض، وعرفوك السياسة وقلدوك الرياسة، فنهضت بثقلها بعد ضعف، وقويت عليها بعد فشل، كل ذلك يرجوك من كان من أمثالهم لعفتهم طمع الزيادة لهم، فلا تطع الخاصة تقربا إليهم بظلم العامة، ولا تطع العامة تقرباً إليهم بظلم الخاصة، لتستديم السلامة، وكن لله كما تحب أن يكون لك أولياؤك من العامة من السمع والطاعة، فإنه ما ولى أحد على عشرة من المسلمين فلم يحطهم بنصيحة إلا جاء يوم القيامة ويده مغلولة إلى عنقه، لا يفكها إلا عدله، وأنت أعرف بنفسك»، قال: فبكى الرشيد ـ وقد كان في خلال هذه الموعظة يبكي لا يُسمع له صوت ـ فلما بلغ إلى هذا الفصل بكى الرشيد وعلا نحيبه وبكى جلساؤه وبكى محمد وأبو يوسف، فقال الوالي: يا هذا الرجل! احبس لسانك عن أمير المؤمنين فقد قطعت قلبه حزنا، وقال محمد بن الحسن وقائم على قدمه: اغمد لسانك يا شافعي عن أمير المؤمنين فإنه أمضى من سيفك ـ والرشيد يبكي لا يفيق ـ فأقبل الشافعي على محمد والجماعة فقال:

«اسكتوا أخرسكم الله لا تذهبوا بنور الحكمة يامعشر عبيد الرعاع وعبيد السوط والعصا، أخذ الله لأمير المؤمنين منكم لتلبيسكم الحق عليه، وهو يرثكم الملك لديه، أما والله ما زالت الخلافة بخير ما صدف عنها أمثالكم، ولن تزال بشر ما اعتصمت بكم، فرفع الرشيد رأسه وأشار إليهم أن كفوا، وأقبل علي بسيف فقال: خذ هذا الكهل إليك ولا تحلني منه، ثم أقبل على الشافعي فقال: قد أمرت لك بصلة، فرأيك في قبولها. فقال له الشافعي: كلا! والله لا يراني الله تعالى قد سودت وجه موعظتي بقبول الجزاء عليها، ولقد عاهدت الله عهدا أني لا أخلط بملك من الملوك تكبر في نفسه وتصغر عند ربه، إلا ذكرت الله تعالى لعله أن يحدث له ذكراً. ثم نهض فلما خرج أقبل الرشيد على محمد ويعقوب فقال لهما: ما رأيت كاليوم قط، أفرأيتما أنتما كيومكما؟ فلم نجد بدا من أن نقول: لا، فقال الرشيد لهما: أبهذا تغرياني؟ لقد بؤتما اليوم بإثم عظيم، لولا أن منَّ الله علي بالتأييد في أمره، كيفما أوقعتماني فيما لا خلاص لي منه عند ربي، ثم وثب الرشيد وانصرف الناس. فلقد رأيت محمداً وهو بعد ذلك يكثر التردد إلى الشافعي، وربما حجب، ثم إن الشافعي بعد ذلك دخل على الرشيد فأمر له بألف دينار فقبلها، فضحك الرشيد وقال: لله درك! ما أفطنك؟ قاتل الله عدوك فقد أصبح لك وليا. وأمر الرشيد خادمه سراجا باتباعه، فما زال يفرقها قبضة قبضة حتى انتهى إلى خارج الدار وما معه إلا قبضة واحدة، فدفعها إلى غلامه وقال له: انتفع بها، فأخبر سراج الرشيد بذلك، فقال: لهذا ذرع همه وقوي متنه. فاستمر الرشيد عليهما[1].

مات رحمه الله ودفن في مصر سنة أربع ومائتين هجرية.

(٨) إمام الديار المصرية: الليث بن سعد:

ومن العلماء العاملين الذين كانت لهم صلة بالرشيد، وكانوا ممن يأخذ برأيهم في مهمات أموره، العالم العامل، «السري السخي، الملي الوفي، لعلمه عقول، ولماله بذول، أبو الحارث: الليث بن سعد»[1].

---

(١) حلية الأولياء جـ. ٩ ص ٨٩ - ٩٠ - ٩١

(١) حلية الأولياء للحافظ أبي نعيم الأصهاني جـ ٧ ص ٣١٨

كان الليث إمام الديار المصرية بلا مدافعة، ولد بقلقشندة سنة أربع وتسعين هجرية، وتوفي في شعبان سنة خمس ومئة وسبعين هجرية.

قال عنه ابن تغري بردي: «كان كبير الديار المصرية ورئيسها، وأمير من كان بها في عصره، بحيث إن القاضي والنائب من تحت أمره ومشورته»[1]

كان غنياً كريماً، له بالإمام مالك صلة حسنة، تبادلا الهدايا، وتناقشا في أمور الفقه، وظلت المودة بينهما قائمة، «حج مرة فأهدى له مالك طبقا من رطب، فرد الطبق وفيه ألف دينار»[2].

جاء في حلية الأولياء: «حدثنا محمد بن أحمد الجرجاني ثنا أبو علي الحسن بن مليح الطرايفي - بمصر - ثنا لولو الخادم - خادم الرشيد - قال: جرى بين هارون الرشيد وبين ابنة عمه زبيدة مناظرة وملاحاة في شيء من الأشياء، فقال هارون لها في عرض كلامه: أنت طالق إن لم أكن من أهل الجنة، ثم ندم واغتما جميعا بهذه اليمين، ونزلت بهما مصيبة لموضع ابنة عمه منه، فجمع الفقهاء وسألهم عن هذه اليمين فلم يجد منها مخرجاً، ثم كتب إلى سائر البلدان من عماله أن يحمل إليه الفقهاء من بلدانهم، فلما اجتمعوا جلس لهم وأدخلوا عليه، وكنت واقفا بين يديه لأمر إن حدث يأمرني بما شاء فيه، فسألهم عن يمينه وكنت المعبر عنه، وهل له منها مخلص، فأجابه الفقهاء بأجوبة مختلفة، وكان إذ ذاك فيهم الليث بن سعد فيمن أشخص من مصر، وهو جالس في آخر المجلس لم يتكلم بشيء وهارون يراعي الفقهاء واحدا واحدا، فقال: بقي ذلك الشيخ في آخر المجلس لم يتكلم بشيء، فقلت له: إن أمير المؤمنين يقول لك: مالك لا تتكلم كما تكلم أصحابك؟ فقال: قد سمع أمير المؤمنين قول الفقهاء وفيه مقنع، فقال: قل إن أمير المؤمنين يقول: لو أردنا ذلك سمعنا من فقهائنا ولم نشخصكم من بلدانكم، ولما أحضرت هذا المجلس. فقال يخلي أمير المؤمنين مجلسه إن أراد أن يسمع كلامي في ذلك، فانصرف من كان بمجلس أمير المؤمنين من الفقهاء والناس ثم قال: تكلم! فقال: يدنيني أمير المؤمنين فقال: ليس بالحضرة إلا هذا الغلام، وليس عليك

---

(1) الأعلام للزركلي حـ: ٥ ص ٢٤٨

(2) البداية والنهاية حـ. ١٠ ص. ١٧٠

منه عين، فقال يا أمير المؤمنين أتكلم على الأمان وعلى طرح التعمل والهيبة والطاعة لي من أمير المؤمنين في جميع ما آمر به؟ قال: لك ذلك، قال يدعو أمير المؤمنين بمصحف جامع، فأمر به فأحضر، فقال: يأخذه أمير المؤمنين فيتصفحه حتى يصل إلى سورة الرحمن، فأخذه وتصفحه حتى وصل إلى سورة الرحمن، فقال: يقرأ أمير المؤمنين، فقرأ فلما بلغ ﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان﴾ قال: قف يا أمير المؤمنين ههنا، فوقف فقال: يقول أمير المؤمنين والله، فاشتد على الرشيد ذلك، فقال له هارون: ما هذا؟ قال: يا أمير المؤمنين على هذا وقع الشرط، فنكس أمير المؤمنين رأسه - وكانت زبيدة في بيت مسبل عليه ستر قريب من المجلس تسمع الخطاب - ثم رفع هارون رأسه إليه فقال: والله! الذي لا إله إلا هو الرحمن الرحيم إلى أن بلغ آخر اليمين، ثم قال: إنك يا أمير المؤمنين تخاف مقام الله؟ قال هارون إني أخاف مقام الله، فقال: يا أمير المؤمنين فهي جنتان وليست بجنة واحدة، كما ذكر الله تعالى في كتابه، فسمعت التصفيق والفرح من خلف الستر، وقال هارون: أحسنت والله بارك الله فيك، ثم أمر بالجوائز والخلع لليث بن سعد، ثم قال هارون: يا شيخ اختر ما شئت وسل ما شئت تجب فيه، فقال: يا أمير المؤمنين وهذا الخادم الواقف على رأسك فقال: وهذا الخادم، فقال: يا أمير المؤمنين والضياع التي لك بمصر ولابنة عمك أكون عليها وتسلم إليّ لأنظر في أمورها، قال: بل نقطعك إقطاعا، فقال: يا أمير المؤمنين ما أريد من هذا شيئا بل تكون في يدي لأمير المؤمنين، فلا يجري على حيف العمال وأعز بذلك، فقال: لك ذلك، وأمر أن يكتب له ويسجل بما قال، وخرج من بين يدي أمير المؤمنين بجميع الجوائز والخلع والخادم، وأمرت زبيدة له بضعف ما أمر به الرشيد، فحمل إليه واستأذن في الرجوع إلى مصر فحمل مكرما[1].

(٩) الفضيل بن عياض:

ومن هؤلاء العلماء: الفضيل بن عياض، أبو علي التميمي، أحد أئمة العباد الزهاد، وهو أحد العلماء والأولياء، ولد بخراسان بكورة دينور وقدم الكوفة وهو كبير، فسمع بها الأعمش ومنصور بن المعتمر وعطاء بن السائب، وحصين بن عبدالرحمن وغيرهم، ثم انتقل

---

(١) حلية الأولياء للأصبهاني حـ: ٧ ص: ٣٢٣ - ٣٢٤

الأسدي، والد بكار، ألزمه الرشيد بولاية المدينة فقبلها بشروط عدل اشترطها، فأجابه إلى ذلك، ثم أضاف إليه نيابة اليمن، فكان من أعدل الولاة، وكان عمره يوم تولى نحواً من سبعين سنة.

(١٢) عبدالله بن عبدالعزيز العمري:

ومنهم: عبـدالله بن عبـدالعـزيز العمـري، أدرك أبـا طوالـة، وروى عن أبيه وإبراهيم بن سعد، وكان عابداً زاهداً، وعظ الرشيد يوماً فأطنب وأطيب، قال له وهو واقف على الصفا[1]: «أتنظر كم حولها - يعني الكعبة - من الناس؟ فقال: كثيراً، فقال: كل منهم يسأل يوم القيامة عن خاصة نفسه، وأنت تُسأل عنهم كلهم، فبكى الرشيد بكاء كثيراً، وجعلوا يأتونه بمنديل بعد منديل ينشف به دموعه. ثم قال له: يا هارون إن الرجل ليسرف في ماله فيستحق الحجر عليه، فكيف بمن يسرف في أموال المسلمين كلهم؟» ثم تركهم وانصرف والرشيد يبكي، وله معه مواقف محمودة غير هذه، توفي عن ست وستين سنة.[1]

(١٣) محمد بن يوسف بن معدان:

ومنهم كذلك: محمد بن يوسف بن معدان، أبو عبدالله الأصبهاني، أدرك التابعين، ثم اشتغل بالعبادة والزهادة، كان عبدالله بن المبارك يسميه عروس الزهاد، وقال يحيى بن سعيد القطان: ما رأيت أفضل منه، كان كأنه قد عاين. وقال ابن مهدي: ما رأيت مثله.

وكان لا يشتري خبزه من خباز واحد، ولا بقله من بقال واحد، كان لا يشتري إلا ممن لا يعرفه، يقول: أخشى أن يحابوني فأكون ممن يعيش بدينه، وكان لا يضع جنبه للنوم صيفاً ولا شتاء، ومات ولم يجاوز الأربعين سنة رحمه الله.[2]

(١٤) القاضي: عافية بن يزيد:

ومنهم: عافية بن يزيد بن قيس القاضي للمهدي على جانب بغداد الشرقي، وهو وابن علاثة، وكانا يحكمان بجامع الرصافة، وكان عافية عابدا زاهدا ورعا، دخل يوما على

---

(١) و (٢) البداية والنهاية جـ. ١٠ ص: ١٩٢

المهدي في وقت الظهيرة فقال: يا أمير المؤمنين أعفني، فقال له المهدي: ولِمَ أعفيك؟ هل اعترض عليك أحد من الأمراء؟ فقال له: لا ولكن كان بين اثنين خصومة عندي فعمد أحدهما إلى رطب السكر ـ وكأنه سمع أني أحبه ـ فأهدى إليَّ منه طبقا لا يصلح إلا لأمير المؤمنين، فرددته عليه، فلما أصبحنا: وجلسنا إلى الحكومة لم يستويا عندي في قلبي ولا نظري، بل مال قلبي إلى المهدي منهما، هذا مع أني لم أقبل منه ما أهداه فكيف لو قبلت منه؟ فاعفني عفا الله عنك فأعفاه. وقال الأصمعي: كنت عند الرشيد يوما وعنده عافية وقد أحضره لأن قوما استعدوا عليه إلى الرشيد، فجعل الرشيد يوقفه على ما قيل عنه وهو يجيب عما يسأله. وطال المجلس فعطس الخليفة فشمته الناس ولم يشمته عافية، فقال له الرشيد: لِمَ لم تشمتني مع الناس؟ فقال: لأنك لم تحمد الله، واحتج بالحديث في ذلك. فقال له الرشيد: ارجع لعملك فوالله ما كنت لتفعل ما قيل عنك، وأنت لم تسامحني في عطسة لم أحمد الله فيها. ثم رده ردا جميلا إلى ولايته[1].

(١٥) صالح بن بشير المرّي:

ومنهم كذلك: صالح بن بشير المرّي أحد العباد الزهاد، كان كثير البكاء يعظ فيحضر مجلسه سفيان الثوري وغيره من العلماء، ويقول: سفيان هذا نذير قوم، وقد استدعاه المهدي ليحضر عنده فجاء إليه راكباً على حمار فدنا من بساط الخليفة وهو راكب فأمر الخليفة ابنيه ـ ولي العهد من بعده موسى الهادي وهارون الرشيد ـ أن يقوما إليه لينزلاه، عن دابته، فابتدراه فأنزلاه، فأقبل صالح على نفسه فقال: لقد خبت وخسرت إن أنا داهنت ولم أصدع بالحق في هذا اليوم، وفي هذا المقام. ثم جلس إلى المهدي فوعظه موعظة بليغة حتى أبكاه، ثم قال له: اعلم أن رسول الله ﷺ خصم من خالفه في أمته، ومن كان محمد خصمه كان الله خصمه، فأعد لمخاصمة الله ومخاصمة رسوله حججاً تضمن لك النجاة، وإلا فاستسلم للهلكة، واعلم إن أبطأ الصرعى نهضةً صريع هوى بدعته، واعلم أن الله قاهر فوق عباده، وأن أثبت الناس قدما آخذهم بكتاب الله وسنة رسوله، فبكى المهدي وأمر بكتابة ذلك الكلام في دواوينه. توفي سنة ١٧٦هـ رحمه الله.

---

(١) البداية والنهاية حـ ١٠ ص ١٨٢

(١٦) فرج بن فضالة التنوخي الحمصي:

ومنهم: فرج بن فضالة التنوخي الحمصي، كان على بيت المال ببغداد في خلافة الرشيد، فتوفي في هذه السنة «١٧٦هـ»، وكان مولده سنة ثمان وثمانين فمات وله ثمان وثمانون سنة. ومن مناقبه: أن المنصور دخل يوماً إلى قصر الذهب فقام الناس إلا فرج بن فضالة فقال له وقد غضب عليه: لِمَ لم تقم؟ قال: خفت أن يسألني الله عن ذلك ويسألك لِمَ رضيت بذلك، وقد كره رسول الله ﷺ القيام للناس. قال: فبكى المنصور وقربه وقضى حوائجه[1].

(١٧) عبدالله بن إدريس:

ومن هؤلاء الأعلام الهداة: عبدالله بن إدريس، فقد استدعاه الرشيد ليوليه القضاء فقال له: لا أصلح، فقال له الرشيد: وددت أني لم أكن رأيتك[2]؟ فقال له ابن إدريس: وأنا وددت أني لم أكن رأيتك، فخرج، ثم ولّى الرشيد حفص بن غياث فقبل، فحلف ابن إدريس ألا يُكلم ابن غياث حتى يموت.

ويُذكر أن الرشيد أرسل إليه بخمسة آلاف فلم يقبلها، فبعث إليه الرشيد: لم تَلِ لنا، ولم تقبل صلتنا؟[3].

وحج الرشيد في بعض السنين فاجتاز بالكوفة ومعه القاضي أبويوسف والأمين والمأمون، فأمر الرشيد أن يجتمع شيوخ الحديث ليُسمعوا ولديه، فاجتمعوا إلا ابن إدريس هذا، وعيسى بن يونس. فركب الأمين والمأمون بعد فراغهما من سماعهما على من اجتمع من المشايخ إلى ابن إدريس فأسمعهما مائة حديث، فقال له المأمون: يا عم إن أردت أعدتها من حفظي، فأذن فأعادها من حفظه كما سمعها، فتعجب لحفظه، ثم أمر له المأمون بمال فلم يقبل منه شيئاً، ثم سارا إلى عيسى بن يونس فسمعا عليه ثم أمر له المأمون بعشرة آلاف فلم يقبلها، فظن أنه استقلها فأضعفها فقال: والله لو ملأت لي المسجد مالاً إلى سقفه ما

---

(١) البداية والنهاية جـ ١٠ ص ١٧٦

(٢) تحسرا أنه رآه ولم يستفد منه بالقضاء.

(٣) سير أعلام النبلاء للذهبي حـ ٩ ص ٤٧

قبلت منه شيئاً على حديث رسول الله ﷺ. ولما احتضر ابن إدريس بكت ابنته فقال: علام تبكي؟ فقد ختمت في هذا البيت أربعة آلاف ختمة[1].

(١٨) أبومعاوية الضرير:

ومنهم الإمام الحافظ الحجة أبومعاوية محمد بن خازم السعدي الكوفي الضرير، حدّث عن جمهرة من الأعلام، كما حدّث عنه كثيرون. قال عنه أحمد بن عمر الوكيعي: «ما أدركنا أحداً كان أعلم بأحاديث الأعمش من أبي معاوية». وقال عنه النسّائي: ثقة.

كان هارون الرشيد يجل أبامعاوية، ويحترمه، يجلسه معه على طعامه، وقد قيل: إنه أكل عنده، فغسل يديه، فكان الرشيد هو الذي صَبَّ على يده الماء، وسأله: أتدري يا أبامعاوية من يصب عليك؟ إنه أمير المؤمنين، فرد قائلا: إنما أكرمت العلم يا أمير المؤمنين. توفي رحمه الله سنة ١٩٦هـ.

(١٩) عبدالله بن المبارك:

ومنهم العالم العامل عبدالله بن المبارك، أبوعبدالرحمن المروزي، كان أبوه تركياً مولى لرجل من التجار من بني حنظلة من أهل همذان، وكان ابن المبارك إذا قدمها أحسن إلى ولد مولاهم، وكانت أمه خوارزمية، ولد لثمان عشرة ومائة، وسمع إسماعيل بن خالد، والأعمش، وهشام بن عروة، وحميد الطويل، وغيرهم من أئمة التابعين. وحدّث عنه خلائق من الناس، وكان موصوفا بالحفظ والفقه والعربية، والزهد والكرم والشجاعة والشعر، له التصانيف الحسان، والشعر الحسن المتضمن حكما جمة، وكان كثير الغزو والحج، وكان له رأس مال نحو أربعمائة ألف يدور يتجر به في البلدان، فحيث اجتمع بعالم أحسن إليه، وكان يربو كسبه في كل سنة على مائة ألف ينفقها كلها في أهل العبادة والزهد والعلم، وربما أنفق من رأس ماله.

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير جـ ١٠ ص ٢١٧

كان السماك ورعاً تقياً، وواعظاً قويا، لا يخاف في الله لومة لائم، ولا يدخر موعظة لقاض أو إمام، كتب إلى محمد بن الحسن حين ولي القضاء: «أما بعد، فلتكن التقوى في بالك على كل حال، وخف الله في كل نعمة عليك لعلة الشكر عليها مع المعصية بها، فإن في النعمة حجة، وفيها تبعة، فأما الحجة فيها فالنسبة لها، وأما التبعة فيها فعلة الشكر عليها، فعفا الله عنك لما صنعت من شكر، أو ركبت من ذنب، أو قصرت من حق». [1]

وعن محمد بن بكار: قال: بعث هارون الرشيد إلى ابن السماك فدخل وعنده يحيى ابن خالد البرمكي، فقال يحيى: إن أمير المؤمنين أرسل اليك لِمَا بلغه من صلاح حالك في نفسك، وكثرة ذكرك لربك عز وجل، ودعائك للعامة، فقال ابن السماك: أما بلغ أمير المؤمنين من صلاحنا في أنفسنا فذلك بستر الله علينا، فلو اطلع الناس على ذنب من ذنوبنا لما أقدم قلب لنا على مودة، ولا جرى لسان لنا بمدحة، وإني لأخاف أن أكون بالستر مغروراً، وبمدح الناس مفتوناً، وإني لأخاف أن أهلك بهما وبقلة الشكر عليها، فدعا بداوة وقرطاس فكتبه إلى الرشيد. [2]

ودخل ابن السماك يوماً على الرشيد فقال له: «إن لك بين يدي الله موقفاً، فانظر أين مصرفك، إلى الجنة أم النار؟ فبكى الرشيد حتى كاد يموت». [3]

ومواقفه مع الرشيد كثيرة، جرى ذكرها في باب صفات الرشيد، ولعل من الطريف ان نذكر رسالته إلى الرشيد يعزيه بابن له: «أما بعد، فإن استطعت أن يكون شكرك لله حين قبضه أكثر من شكرك له حين وهبه، فإنه حين قبضه أحرز لك هبته، ولو سلم لم تسلم من فتنته، أرأيتَ حزنك على ذهابه، وتلهفك لفراقه! أرضيت الدار لنفسك فترضاها لابنك! أما هو فقد خلص من الكدر، وبقيت أنت معلقاً بالخطر، واعلم أن المصيبة مصيبتان إن جزعت، وإنما هي واحدة إن صبرت، فلا تجمع الأمرين على نفسك». [4]

---

(١) حلية الأولياء ح ٨ ص ٢٠٥.

(٢) حلية الأولياء ج ٨ ص ٢٠٩

(٣) البداية والنهاية ج ١٠ ص ١٨٩

(٤) عيون الأخبار لابن قتيبة ح ٢ ص ٥٤

(٢١) سفيان بن عيينة:

ومنهم سفيان بن عيينة بن ميمون الهلالي الكوفي، أبو محمد، محدث الحرم المكي، من الموالي ولد بالكوفة سنة ١٠٧هـ ٧٢٥م، وسكن مكة، وتوفي بها سنة ١٩٨هـ ٨١٤م.

كان ابن عيينة رحمه الله حافظاً ثقة، واسع العلم، كبير القدر؛ قال عنه الشافعي: «لولا مالك وسفيان لذهب علم الحجاز».

حج سبعين سنة، له الجامع في الحديث، وكتاب في التفسير.[1]

وصفه الأصبهاني في الحلية[2] فقال: «الإمام الأمين، ذو العقل الرصين، والرأي الراجح الركين، المستنبط للمعاني، والمرتبط للمباني، كان عالماً ناقداً، وزاهداً عابداً، علمه مشهور، وزهده معمور».

قال الحسن بن أبي الفهم: ثنا محمد بن عباد عن سفيان بن عيينة قال: دخلت على الرشيد فقال: ما خبرك؟ فقلت:

بعـينِ الله ما تخفـي الـبيوتُ ... فقـد طالَ التحمـلُ والسكـوتُ

فقال: يا فلان مائة ألف لابن عيينة تغنيه وتغني عقبه، ولا تضر الرشيد شيئا.

بطانة الرشيد ومجالسه:

لقد نشرنا في هذه العجالة ترجمة وجيزة للعلماء والقضاة والفقهاء الذين كانت للرشيد بهم صلة من جهة ما، وذلك دفعاً لما يتوهمه الكثيرون: أن حياة الرشيد مشوبة باللهو والمجون، كما زعمت روايات ألف ليلة وليلة الخيالية، وكما نعته الشعوبيون في عصره، أو في العصور التي تلته.

فمن وقف على هذه العجالة أيقن أن بلاط الرشيد بستان مزدهر بالعلم والمعرفة، غرست فيه الفضيلة وأينعت ثماراً طيبة، كان لها أثر كبير في ازدهار بغداد، وإقبال الناس عليها من أصقاع الأرض، لينهلوا من ينابيع المعرفة، والخير، والجهاد، والعمل الصالح.

---

(١) الأعلام للزركلي

(٢) حلية الأولياء ج ٧ ص ٢٧٠.

وقد ضربنا صفحاً عن ترجمة قواده، وأمراء بني هاشم في عصره، الذين حكموا البلاد، وقادوا الجهاد، وأعلوا منارة الإسلام والمسلمين، ونكسوا رايات الشرك والكفر والصلبان، فأرغموا بجهادهم كل جاحد، وأذلوا بكفاحهم كل جبارعات، فدفع له نقفور كلب الروم ـ كما وصفه الرشيد ـ الجزية صاغراً ذليلاً عن نفسه وأولاده، وأحبار كنيسته.

ضربنا صفحاً عن ترجمة هؤلاء الصناديد حتى لا يتحول كتابنا الى ترجمة شخصيات فرعية، ونكتفي بالقول المأثور عن الرشيد يخاطب السحاب: «أمطري أينما شئت، فسيأتيني خراجك»[1].

والرشيد إنما سطع في عالم الفتوحات، وعالم الأدب والمعرفة لأنه أحسن اختيار بطانته، وأحسنوا هم إليه، فكانوا له، وكان لهم سياجا وحصناً يدفعون معاً عجلة التقدم والازدهار إلى الأجيال التي جاءت بعدهم.

ولا يفوتنا القول: إن البرامكة وقد تقدم شيء من ترجمتهم ما كان يظهر منهم عند الرشيد إلا ما يوافق الشرع، ويستقيم مع الفضيلة، ويتمشى مع العرف، وأخبارهم في عالم الأدب والمعرفة محفوظة معروفة في كتب الأدب والتراجم. فلا مطعن على الرشيد إذ اختارهم، وقربهم إليه، وفوض ـ ولو لفترة قصيرة ـ أمور الخلافة إلى أحدهم ـ وهو يحيى بن خالد بن برمك.

فبطانة الرشيد من العلماء والفضلاء، ومجالسه عامرة بالعلم والأدب والحكمة، وزوجه وأهل بيته من عقلاء الناس وأفاضلهم، والأمراء عنده من سلالة حبر الأمة ابن عباس رضي الله عنه، وقواده من أشراف العرب، وسادة العجم. فمن أين يأتيه النقص والعيب؟!! اللهم إلا من كذّاب أفاك لدود الخصام للإسلام والمسلمين!!

---

(١) هذا القول بسنده ابن ابي مريم مضحك الرشيد إلى الرشيد، في قصة طويلة مع الأمير العباسي محمد بن سليمان العباسي.

الباب الثامن

شبهات حول الرشيد وردها

للعظماء سمتان: **الأولى**: كثرة أعمالهم، وعظمة إنجازهم، وسعة فتوحاتهم، وضبط بلادهم، واستقامة أحوالهم، **والثانية**: تضخيم الأعداء لأخطائهم، وتصديهم لهفواتهم، وإيغار صدور المؤرخين عليهم.

فمن يعمل لا بد أن يخطىء، والخطأ لا يتعمده العاقل، ولا يقبل به المنصف، ولكل خطأ مآب، ولكل خطاء توبة، والله يملك وحده الغفران، فيغفر لمن شاء من خلقه.

والرشيد من هؤلاء أخطأ وأصاب، وأخطأ وتاب، وانحرف ثم اعتدل، فلِمَ تضخم أخطاؤه، ولماذا توجه التهم اليه، وفي تاريخنا من أشبع الأمة ظلما وقهراً، ولكنه في طي النسيان، ولم يتعرض له أحد بالجرح والاتهام.

في رأينا أن بصمات الرشيد الواضحة على التاريخ العربي، ومكانته المرموقة بين الخلفاء المسلمين، وبلوغ الحضارة العربية في عهده مداها، وإقامة جسور التقدم لمن بعده في عهده، كل ذلك كان مثار أحقاد خصومه لهدم محاسنه، وردم ما قام به ونسيانه، ليتسنى بذلك لخصوم الحضارة العربية إنكارها وتشويهها وتحقير أمرها.

فعن طريق الطعن بالرشيد، يطعن الأعداء في صميم الحضارة الإسلامية، ويهدمون في صرح التقدم العربي الذي وصلت اليه بغداد في زمنه.

وقد كثر أعداء الرشيد في الماضي والحاضر، وقد أمدت كتب الأدب الأعداء بسيل من الأخبار الكاذبة عن الرشيد، فمنها استنبط الكثيرون صفات الرشيد.

ولكن كتب الأدب لم تكن في يوم من الأيام مصدر صدق ويقين للمؤرخ الثقة المأمون، وإذا كانت كتب الأدب ليست المصدر الموثوق في ذلك، فإن كتب الحكايات الشعبية أولى بالرفض، وهي أبعد ما تكون عن الأمانة والتوثيق، لأنها تقام أصلاً على الحكاية والأسطورة.

ولعب دور الأعداء كذلك في تشويه سيرة الرشيد بدافع مخلص أو خبيث بعض الأدباء، ممن لا خبرة لهم بالتاريخ، ولم يكن التاريخ مجال اختصاصهم، وقد حاولوا محاكاة المستشرقين في طعونهم ومآخذهم على خلفاء المسلمين وزعمائهم.

ومن جملة الأعداء، بل من أشدهم بأساً في هذا الميدان: **الطالبيون** الذين يعدون الرشيد خصمهم اللدود، لأنهم يعدونه وراء موت الكاظم ويحيى رحمهما الله تعالى، **والشعوبيون**، الذين يرون أن نكبة البرامكة ضربة قاصمة للامبراطورية الفارسية التي كانوا يرغبون تحقيقها، وقد دفعتهم العاطفة نحو آل البيت للتشدد في موقفهم هذا.

ولا ننسى الدور الكبير الذي لعبته الكنيسة الأوروبية في تشويه سيرة الرشيد، انتقاماً منها للضربات الموجعة التي وجهها الرشيد للإمبراطورية الرومانية في عقر دارها، والذل والهوان الذي أسبغ عليها بدفع الجزية له صاغرة ذليلة عن كل فرد فيها، بما في ذلك الامبراطور وأولاده، وكهنته، وأرباب كنيسته.

كل هؤلاء يهمهم تشويه سيرة الرشيد، وكما قال الشاعر:

وإذا أتتك مذمتي من ناقص ... فهي الشهادة لي بأني كامل

فلا شك بنقص هؤلاء، وعدم الوثوق بأقوالهم، وأنهم مدفوعون إلى ذلك بدوافع الحقد والكراهية للإسلام والمسلمين.

فإذا عرفنا ذلك سهل علينا رد الشبهات إلى هذه القاعدة وتحطيمها عليها بكل ثقة واطمئنان، ولكن ذلك لا يمنع من ذكر هذه الشبهات وتفنيدها والرد عليها. . .

١ ـ قصة العباسة وجعفر البرمكي:

روى الطبري هذه القصة عن زاهر بن حرب، في معرض حديثه عن أسباب الإيقاع بالبرامكة، فقال: «إن سبب هلاك جعفر والبرامكة: أن الرّشيد كان لا يصبر عن جعفر وعن أخته عباسة بنت المهدي، وكان يُحضرهما إذا جلس للشرب؛ وذلك بعد أن أعلم جعفرا قلّة صبره عنه وعنها، وقال لجعفر: أزوّجكُها ليحل لك النظر إليها إذا أحضرتها مجلسي، وتقدّم إليه ألا يمسّها، ولا يكون منه شيء مما يكون للرجل إلى زوجته؛ فزوّجها منه على ذلك، فكان يُحضرهما مجلسه إذا جلس للشرب، ثم يقوم عن مجلسه ويُخليهما، فيثْمُلان من الشراب، وهما شابّان، فيقوم إليها جعفر فيجامعها، فحملت منه وولدت غلاماً، فخافت على نفسها من الرَّشيد إن علم بذلك، فوّجهت بالمولود مع حَواضِن لَه من مماليكها إلى مكّة، فلم يزل الأمر مستوراً عن هارون، ، حتى وقع بين عباسة وبين بعض جواريها شرّ، فأنهت أمرَها وأمر الصبيّ إلى الرشيد، وأخبرته بمكانه؛ ومع مَن هو من جواريها، وما معه من الحلْي الذي كانت زيَّنته به أمه؛ فلما حجّ هارون هذه الحَجّة، أرسل إلى الموضع الذي كانت الجارية أخبرته أن الصبيّ به من يأتيه بالصبي وبمنْ معه من حواضنه، فلمَّا أحضِروا سأل اللواتي معهنّ الصبي، فأخبرنَه بمثل القصة التي أخبرتْه بها الرافعة على عبَّاسة، فأراد ـ فيما زُعم ـ قتلَ الصبيّ، ثم تحوّب من ذلك»[1]

وقد تابع المؤرخون ابن جرير في ذكر هذه القصة بروايات مختلفة ومتناقضة، حتى قال ابن كثير: «ومن العلماء من أنكر ذلك، وإن كان ابن جرير قد ذكره»[2] فقد أنكر العلماء هذه القصة، ولكنهم ذكروها متابعة لابن جرير رحمه الله، ومن المؤسف أن واحداً من هؤلاء لم يكلف نفسه مؤنة البحث والموازنة بين هذه القصة وبين الواقع الذي يكذبها، حتى أتى ابن خلدون رحمه الله فأنكرها جملة وتفصيلا.

ومن الواضح أن علماء التاريخ قد تساهلوا كثيراً في هذه القصة وفي غيرها من القصص التاريخية التي أوردوها في كتبهم. عكس ما عرفناه عنهم في علوم التفسير والحديث

---

(١) تاريخ الطبري ج ٨ ص ٢٩٤

(٢) البداية والنهاية ج ١٠ ص ١٩٦.

والجرح والتعديل، فقد تشددوا هنا، وتساهلوا في علم التاريخ، لقناعتهم أن ذلك لا يؤثر في عدالة المؤرخ، حتى ان ابن جرير المفسر المرجع، وابن كثير المحدث الثقة قد دكرا في تاريخهما روايات متناقضة وغير صحيحة،[1] ومنها قصة العباسة وجعفر البرمكي.

ومن المؤسف له أن ابن كثير ومثله ابن جرير لم يترجما للعباسة، ولم يذكرا سنة وفاتها، ولم يبديا اهتماماً بها، اللهم إلا في معرض الاتهام لها عند حديثهما عن البرامكة، وقد ترجم ابن كثير لشخصيات لا قيمة لها في التاريخ، وأغفل ترجمة العباسة، وأهمل سنة وفاتها عكس ما يفعله مع الاخرين في تاريخه.

وما كنا نرغب في ذكر هذه القصة لولا تعرض كثير من المؤرخين الموثوقين لها، وذكرها دون الرد عليها، ومنهم الأستاذ الفاضل محمود شاكر الذي جعل من العلاقة بين العباسة وجعفر السبب الرئيسي في نكبة البرامكة، ويعتب على الرشيد في ذلك قائلاً: «وإن كان هو نفسه السبب في ذلك لِمّا فرّط في أهله».[2]

والأستاذ محمود شاكر نفسه يقول في الصفحة ١٥٧ عن الرشيد: «وكان تقياً ورعاً يخشى الله في أموره كلها» ولعمري كيف جمع الأستاذ بين المتناقضين، فقد وصف الرشيد بالتقوى والورع وهو مقام أعلى من التقوى ووصفه بالخشية من الله في كل الأمور، ثم يتهمه بالتفريط بحق أهله وأخته وعرضه؟

وحسبنا أن نكرر ما قاله ابن خلدون رحمه الله رداً على محمود شاكر وغيره في مقدمته إذ يقول:

«ومن الحكايات المدخولة للمؤرخين ما ينقلونه كافة في سبب نكبة الرشيد للبرامكة من قصة العباسة أخته مع جعفر بن يحيى بن خالد مولاه، وإنه لكلفه بمكانهما من معاقرته إياهما الخمر أذنَ لهما في عقد النكاح، دون الخلوة حرصا على اجتماعهما في مجلسه، وأن العباسة تحيلت عليه في التماس الخلوة به لما شغفها من حبه حتى واقعها، (زعموا في حالة السكر) فحملت ووشي بذلك للرشيد، فاستغضب. وهيهات ذلك من منصب العباسة في

---

(١) راجع ان شئت ج ١٠ ص ١٩١ و٢٠٥ من البداية والنهاية.

(٢) التاريخ الإسلامي ج ٥ ص ١٦٤

دينها وأبويها وجلالها، وإنها بنت عبدالله بن عباس ليس بينها وبينه إلا أربعة رجال، هم أشراف الدين وعظماء الملة من بعده، والعباسة بنت محمد المهدي، ابن عبدالله أبي جعفر المنصور، ابن محمد السجاد، ابن علي أبي الخلفاء، ابن عبدالله ترجمان القرآن، ابن العباس عم النبي ﷺ، ابنة خليفة، أخت خليفة، محفوفة بالملك العزيز، والخلافة النبوية، وصحبة الرسول وعمومته، وإقامة الملة ونور الوحي ومهبط الملائكة من سائر جهاتها، قريبة عهد ببداوة العروبة، وسذاجة الدين البعيدة عن عوائد الترف ومراتع الفواحش، فأين يُطلب الصون والعفاف إذا ذهب عنها؟ أو أين توجد الطهارة والذكاء إذا فقدا من بيتها؟ أو كيف تلحم نسبها بجعفر بن يحيى وتدنس شرفها العربي بمولى من موالي العجم بملكة جده من الفرس؟ أو بولاء جدها من عمومة الرسول وأشراف قريش وغايته إن جذبت دولتهم بضبعه وضبع أبيه واستخلصتهم ورفعتهم إلى منازل الأشراف. وكيف يسوغ من الرشيد أن يصهر إلى موالي الأعاجم على بعد همته وعظم آبائه؟ ولو نظر المتأمل في ذلك نظر المنصف.وقاس العباسة بابنة ملك من عظماء ملوك زمانه لاستنكف لها عن مثله مع مولى من موالي دولتها وفي سلطان قومها، واستنكره ولج في تكذيبه، وأين قدر العباسة والرشيد من الناس؟»[1].

فهذه القصة من الحكايات المدخولة على المؤرخين، ويبدو أنها دخلت على الأستاذ محمود شاكر، علماً بان جمعاً غفيراً من المؤرخين في العصر الحديث قد ردها واستهجنها كثيراً، منهم الدكتور حسن إبراهيم حسن في كتابه تاريخ الإسلام: ج٢ ص: ١٧٠، وقد ضرب بها الدكتور محمد أسعد طلس عرض الحائط، عندما يقول: «ومنهم من قال: إن السبب هو قصة العباسة أخت الرشيد التي تجرأ جعفر البرمكي وطلب يدها، وقد راجت هذه بين العامة حتى ألفت فيها الروايات، كما فعل الأتليدي صاحب «أعلام الناس»، وجرجي زيدان صاحب «العباسة أخت انرشيد»، وأنطون رباط صاحب «الرشيد والبرامكة»، وعزيز أباظة في «مسرحيته»، ولا نريد الإطالة فيها بعد أن نفاها مؤرخ ثقة كالجهشياري حين قال في معرض كلامه عن نكبة البرامكة: أن عبيد الله بن يحيى بن خاقان سأل مسروراً الكبير خادم الرشيد في خلافة المتوكل عن سبب إيقاع الرشيد بالبرامك فأجاب مسرور: «كأنك

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ١٥

تريد ما تقوله العامة فيها كان من أمر المرأة لا والله ما لشيء من هذا أصل» . وقد نقض الفكرة من أساسها المؤرخ ابن خلدون .[1]

وقد أورد قصة العباسة الدكتور أحمد مختار العبادي، أستاذ التاريخ بجامعة الكويت، ثم عقّب عليها بقوله: «هذا ملخص قصة العباسة التي يظهر فيها الخيال والاختراع، وواضح أن القصد منها هو الحط من مكانة الرشيد وطعنه في كرامته وعرضه، ولا شك أنها من وضع الشعوبية الفارسية، التي أرادت الانتقام من الخليفة الهاشمي العربي الذي أوقع بالبرامكة العجم، ولا شك أن الرشيد لا يمكن أن يُطعن في رجولته ومروءته بمثل هذه الصورة المزرية التي تصوره يجمع بين أخته وجعفر بزواج صوري» .[2]

وقد ذهب إلى بطلان قصة العباسة وجعفر البرمكي جمهرة من المؤرخين في العصر الحديث، نكتفي بما نقلناه عن بعضهم، وننتقل إلى مناقشتها موضوعياً ورفضها لما يأتي:

١ ـ لم يذكر كل من الدينوري واليعقوبي والأصفهاني القصة، وهم من أوائل من كتب في تاريخ العراق وأحداثه .[3]

٢ ـ روى الطبري القصة عن أحمد بن زهير، عن عمه زاهر بن حرب، وهما لا يعرفان، والقصة لا تصح .[4]

٣ ـ ذكرها الجهشياري مستهزئا بها مستنكرا لها، حيث نقل عن مسرور الكبير قوله لمن سأله عن أسباب نكبة البرامكة: «كأنك تريد ما تقوله العامة فيما ادعوه من أمر المرأة، لا والله ما لشيء من هذا أصل، ولكنه من ملل موالينا وحسدهم» .[5]

٤ ـ أنكرها ابن خلدون المؤرخ ومؤسس علم الاجتماع وقال: إنها من الحكايات المدخولة للمؤرخين» .[6]

---

(١) تاريخ العرب ج ٢ ص ١١١ .

(٢) في التاريخ العباسي والفاطمي ص ٨٦.

(٣) الجدور التاريخية للوزارة العباسية ص ١١٧ .

(٤) سير أعلام النبلاء للذهبي ح ٩ ص ٦٦ (الهامش).

(٥) الجهشياري ص ٢٠٤

(٦) مقدمة ابن خلدون ص ١٥

٥ - ناقض ابن كثير رواية ابن جرير الطبري مناقضة واضحة، ثم اعترف: «أن العلماء أنكروها، وإن كان ابن جرير قد ذكرها».(١)

٦ - كانت العباسة متزوجة من الأمير محمد بن سليمان الهاشمي والي البصرة، وقد جمع له المنصور بين ولاية البصرة والكوفة، وزوجه المهدي ابنته العباسة، وقد توفي سنة ثلاث وسبعين ومائة(٢) ثم تزوجت من الأمير إبراهيم بن صالح العباسي المتوفي سنة ١٧٦هـ،(٣) ثم تزوجها موسى بن عيسى العباسي الذي توفي سنة ١٨٣هـ، وقد توفيت العباسة بنت المهدي سنة ١٨٢هـ،(٤) وبهذا يتضح أن العباسة لم تكن في يوم من الأيام دون زواج، اللهم إلا فترات العدة التي تفصل بين كل زواج وآخر، وقد دفع موت أزواجها بعضهم متندرا بقوله: «من أراد الموت فليتزوج من العباسة»(٥).

٧ - رغم غرام الأصفهاني في كتابه الأغاني بمثل هذه القصة، فإنه لم يتعرض لها بذكر، بل لم يأت للعباسة بأثر، ولم يتعرض لاسمها، وقد ترجم لها كثير من المؤرخين على أن اسمها «علية» وأن العباسة لقب لها.

٨ - اذا اتفقنا مع بعض المؤرخين: أن علية والعباسة اسمان لشخصية واحدة فإلى القارىء صفات علية كما جاءت في كتاب الأغاني:

«عن محمد النوفلي عن عمه قال: كانت من أحسن الناس وأظرفهم تقول الشعر الجيد وتصوغ فيه الألحان الحسنة، وكان بها عيب في جبينها فضل سعة حتى تسمح العصائب المكللة بالجوهر لتستر بها جبينها فأحدثت والله أعلم شيئا ما رأيت فيما ابتدعته النساء وأحدثته أحسن منه.

وصفها إبراهيم بن إسماعيل الكاتب فقال: كانت علية حسنة الدين وكانت لا

---

(١) البداية والنهاية ج ١٠ ص ١٩٦.

(٢) البداية والنهاية ج ١٠ ص ١٦٧.

(٣) أزمنة التاريخ الإسلامي ج ١ ص ٢٣٤.

(٤) المصدر السابق ج ١ ص ٢٤٣

(٥) ينسب هذا القول إلى أبي نواس الشاعر «الجذور التاريخية للوزارة العباسية ص ١١٧»

تغني ولا تشرب النبيذ إلا اذا كانت معتزلة الصلاة، فاذا طهرت أقبلت على الصلاة والقرآن وقراءة الكتب، فلا تلذ بشيء غير قول الشعر في الأحيان.

وتقول: ما حرم الله شيئا إلا وقد جعل فيها حلل منه عوضا فبأي شيء يحتج عاصيه والمنتهك لحرماته.

وتقول: لا غفر الله لي فاحشة ارتكبتها قط»[1]

وفي نزهة الجلساء، قال الحصري: «كانت علية تعدل بكثير من أفاضل الرجال، في فضل العقل وحسن المقال، ولها شعر رائق وغناء رائع».

أفيصح من مثل هذه المرأة المحتشمة المتدينة العاقلة أن ترضى بزواج صوري من مولى أعجمي؟ بالتأكيد: لا.

٩ ـ ذكر الطبري أن الرشيد لا يصبر على فراقها، وهذا حق وصحيح، ولا يصبر على فراق جعفر البرمكي، ويذكر كذلك أنها حملت من جعفر وولدت صبيا أرسلته إلى مكة، ومقتضى كلامه أن تداوم على مجالسة الرشيد ومنادمته مع جعفر، فكيف لم يلحظ الرشيد كبر بطنها وزيادة حجمه بسبب الحمل، ولفترتين متتاليتين، إذ يخالف ابن كثير شيخه الطبري فيذكر أنها ولدت غلامين، فهل يخفى حمل المرأة ولفترتين متتاليتين، ويخفى على مثل الرشيد؟

إنها البلاهة التي لم يفطن لها واضع القصة، وظن ان الناس كلهم على شاكلته سذاجة وغباوة، ثم ما مصير الطفلين؟ ولِمَ لم يذكر المؤرخون عنهما شيئا، ولماذا أخذ الرشيد البرامكة كلهم بذنب جعفر؟ كل هذا الذي قدمناه يوضح كذب القصة، وركاكة ترتيبها، وتأكيد وضعها من قبل كذاب أفاك.

١٠ ـ ونذكر هنا في دحض ورد هذه الفرية عن العباسة وجعفر حقيقة غفل عنها المؤرخون، وهم علماء الدين والدنيا، ونبدي استغرابا واستهجانا لهم، ولكل من ندب نفسه لموافقتهم في هذه الفرية.

---

(١) الاغاني لأبي الفرج الأصفهاني ج ٩ ص ٨٣.

نقول لهؤلاء جميعا: متى كان العقل أو النقل يبيح للأخ أن يتزوج من أخته، فجعفر البرمكي أخو الرشيد من الرضاعة، وهذا مجمع عليه من المؤرخين قديما وحديثا، ومشهور أنه كان يخاطب يحيى البرمكي بقوله: «يا أبتِ»، ولما حبس البرامكة كانت أم جعفر تدخل عليه، وتتوسل إليه بثدييها اللذين أرضعته بهما، وكان الرشيد يجلها ويحترمها ويتمرغ على صدرها، ويخاطبها بقوله: «يا أم الرشيد»، وقد أثبتنا في فصل رضاعة الرشيد أن الرشيد رضع من نساء يحيى البرمكي، وأن أولاد يحيى قد رضعوا من الخيزران.

من هذه الحقيقة نستنتج أن العباسة أخت لجعفر بالرضاعة، ويحرم بالرضاعة ما يحرم بالنسب، كما تقول القاعدة الشرعية، فكيف جوّز العلماء لأنفسهم أن يقبلوا هذه الفرية؟ وكيف لم يفطنوا إلى هذه الحقيقة؟ فهذه الحقيقة تنسف كل ما ذكروه، وهي الرد الفيصل في هذه الفرية.

ومثل هذا الاتهام يحتاج إلى أربعة شهود لإثباته، وإذا لم يتوفر هذا العدد من الشهود كان المتهم قاذفاً للمتهوم، ويقام عليه حد القذف الشرعي، فالشرع يضبط الأصول التاريخية، ولا يجوز أن يخرج عنها، فجدير بكل من اتهم العباسة أن يقام عليه حد القذف، هذا مع غفلته أنها أخت جعفر بالرضاعة، أما إذا علم أنها أخته فيكون أكثر من قاذف، ويكون عليه حدّ أعظم وأشد من حد القاذف.

ولكن لا بد أن نرد على تساءل البعض: كيف راجت هذه القصة؟.

إن العامة والغوغاء من الناس، الذين لا يستخدمون عقولهم يصعب عليهم أن يدركوا أن هلاك البرامكة كان بسبب سياسي أو اقتصادي أو سواه، ولكن يرضيهم ويشبع عواطفهم، أن تكون نكبة البرامكة بسبب فضيحة أخلاقية، ولذلك فقد استلهموا هذه القصة من صلة جعفر القوية بالرشيد وعائلته، ورأوا في العباسة مأربهم لإشباع خيالهم وإرواء عواطفهم، فأشاعوا ذلك، حتى انتشر بين الناس وكثر عنه الحديث، فالتقطه بعض المؤرخين دون روية أو تمحيص، فدونوه في كتبهم، فصار عند البعض حقيقة تاريخية!!

وظلت هذه الحقيقة الزائفة البراقة ـ وكل باطل براق إلى أن يثبت العالم الثقة زيفه ـ وقد أيد الله لابن خلدون سبق كشف هذا الزيف، ورد هذا الباطل، فأنكر القصة جملة وتفصيلا.

ونحمد الله أن وفقنا إلى كشفها بحقيقة شرعية، منضبطة مع القواعد الأصولية في شريعتنا الغراء

فكل ما يحرم بالنسب يحرم بالرضاعة، والعباسة أخت لجعفر بالرضاعة، وبذلك تتهافت هذه القصة، وتضيع الفرصة على مروجي الإثم والكذب. والحمدلله.

٢ ـ شربه المسكر:

روجت كتب الأدب في القديم: وعلى رأسها كتاب الأغاني، ومنها كتاب العقد الفريد، وفي الحديث كتاب ضحى الإسلام لأحمد أمين وغيرهم، أن الرشيد كان يشرب المسكر في مجالسه، وفي أوقات منادمته.

وهذا الاتهام الخبيث فيه النيل من دين الرشيد، وطعن في إسلامه، والصحيح ما ذكرته كتب التاريخ: أن الرشيد كان يشرب النبيذ غير المسكر، والذي يرخص بشربه فقهاء العراق من الأحناف.

قال الشيخ محمد الخضري: «واشتهر أن الرشيد كان يشرب النبيذ الذي يرخص أهل العراق في شربه».[(١)]

ولنفرق بين المسكر والنبيذ لا بد لنا من تعريف كل منهما:

فالخمر: «مصنوع من سوائل معروفة بطريق تخمر بعض الحبوب أو الفواكه، وتحول النشا أو السكر الذي تحتويه إلى غَوْل «كحول» بوساطة بعض كائنات حية لها قدرة على إفراز مواد خاصة يعد وجودها ضروريا في عملية التخمر».[(٢)]

وأما النبيذ: «فهو الذي يؤخذ من ماء الزبيب إذا طُبخ، أو فى طبخ، يحل شربه ما دام حلوا، فإذا غلا واشتد وقذف بالزبد يحل شربه ما دون السكر عند أبي حنيفة وأبي يوسف».[(٣)]

(١) محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية «الدولة العباسية» ص ١٣٧.

(٢) فقه السنة ج ٢ ص ٣٧٦.

(٣) الكاساني في بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع

وقد خالف فقهاء العراق جمهور العلماء في تحليل النبيذ، ولهم أدلتهم وحججهم المبسوطة في كتب الفقه، ومن هؤلاء العلماء الذين لا يرون بأسا بشربه: إبراهيم النخعي، وسفيان الثوري، وابن أبي ليلى، وشريك، وابن شبرمة، وسائر فقهاء الكوفيين، وأكثر علماء البصريين، وأبي حنيفة، فإنهم قالوا: بتحريم القليل والكثير من الخمر التي هي من عصير العنب، أما ما كان من الأنبذة من غير العنب، فإنه يحرم الكثير منه، أما القليل الذي لا يُسكر فإنه حلال.[1]

يقول ابن خلدون رحمه الله: وأما ما تموه به الحكاية من معاقرة الرشيد الخمر واقتران سكره بسكر الندمان، فحاشا الله ما علمنا عليه من سوء، وأين هذا من حال الرشيد وقيامه بما يجب لمنصب الخلافة؟ من الدين والعدالة؟ وما كان عليه من صحابة العلماء والأولياء؟ ومحاوراته للفضيل بن عياض وابن السماك، والعمري؟ ومكاتبته سفيان الثوري[2]؟ وبكائه من مواعظهم ودعائه بمكة في طوافه؟ وما كان عليه من العبادة والمحافظة على أوقات الصلوات وشهود الصبح لأول وقتها؟

وأيضا فقد كان من العلم والسذاجة بمكان، لقرب عهده من سلفه المتحلين لذلك، ولم يكن بينه وبين جده أبي جعفر بعيد زمن، إنما خلفه غلاما، وقد كان أبوجعفر بمكان من العلم والدين قبل الخلافة وبعدها، وهو القائل لمالك حين أشار عليه بتأليف الموطأ: يا أبا عبدالله إنه لم يبق على وجه الأرض أعلم مني ومنك وإني قد شغلتني الخلافة فضع أنت للناس كتابا ينتفعون به، تجنب فيه رخص ابن عباس، وشدائد ابن عمر، ووطئه للناس توطئة، قال مالك: فوالله لقد علمني التصنيف يومئذ، ولقد أدركه ابنه المهدي أبو الرشيد، وهو يتورع عن كسوة الجديد لعياله من بيت المال، ودخل عليه يوما وهو بمجلسه يباشر الخياطين في إرقاع الخلقان من ثياب عياله، فاستنكف المهدي من ذلك وقال: يا أمير المؤمنين عليّ كسوة هذه العيال عامنا هذا من عطائي، فقال له: لك ذلك، ولم يصده عنه ولا سمح بالإنفاق فيه من أموال المسلمين، فكيف يليق بالرشيد على قرب العهد من هذا

---

(١) فقه السنة ج ٢ ص ٣٧٧ - ٣٧٨

(٢) الصحيح أن سفيان الثوري مات قبل خلافة الرشيد، ولعل ابن خلدون يقصد سفيان ابن عيينة لأن له صلة بالرشيد ومحاورات ومجالسة

الخليفة وأبوته وما رُبِّي عليه من أمثال هذه السير في أهل بيته والتخلق بها أن يعاقر الخمر أو يجاهر بها؟ وقد كانت حالة الأشراف من العرب الجاهلية في اجتناب الخمر معلومة، ولم يكن الكَـرْم شجرتهم، وكان شربها مذمة عند الكثير منهم، والرشيد وآباؤه كانوا على ثبج من اجتناب المذمومات في دينهم ودنياهم والتخلق بالمحامد وأوصاف الكمال ونزعات العرب، وانـظر ما نقله الطبري والمسعودي في قصة جبريل بن بختيشوع الطبيب حين أحضر له السمك في مائدته فحماه عنه ثم أمر صاحب المائدة بحمله إلى منزله وفطن الرشيد وارتاب به ودس خادمه حتى عاينه يتناوله، فأعد ابن بختيشوع للاعتذار ثلاث قطع من السمك في ثلاثة أقداح، خلط إحداها باللحم المعالج بالتوابل والبقول والبوارد والحلوى، وصب على الثـانية ماء مثلجا، وعلى الثالثة خمرا صرفا، وقال في الأول والثاني: هذا طعام أمير المؤمنـين إن خلط السمك بغيره أو لم يخلطه، وقال في الثالث: هذا طعام ابن بختيشوع ودفعها إلى صاحب المائدة، حتى إذا انتبه الرشيد وأحضره للتوبيخ أحضر ثلاثة الأقداح فوجد صاحب الخمر قد اختلط وأماع وتفتت، ووجد الآخرين قد فسدا وتغيرت رائحتهما، فكانت له في ذلك معذرة، وتبين من ذلك أن حال الرشيد في اجتناب الخمر كانت معروفة عند بطانته وأهل مائدته، ولقد ثبت عنه أنه عهد بحبس أبي نواس لِمَا بلغه من انهماكه في المعـاقـرة حتى تاب وأقلع، وإنما كان الرشيد يشرب نبيذ التمر على مذهب أهل العراق وفتاويهم فيها معروفة، وأما الخمر الصرف فلا سبيل إلى اتهامه بها ولا تقليد الأخبار الواهية فيها، فلم يكن الرجل بحيث يواقع محرما من أكبر الكبائر عند أهل الملة، ولقد كان أولئك القوم كلهم بمنجاة من ارتكاب السرف والترف في ملابسهم وزينتهم وسائر متناولاتهم، لما كانوا عليه من خشونة البداوة وسذاجة الدين، التي لم يفارقوها بعد، فما ظنك بما يخرج عن الإباحة إلى الحظر وعن الحلة الى الحرمة.[1]

وقد نفى الجاحظ اتهام الرشيد بمعاقرة الخمر فقال: «من أخبرك أنه رآه قط يشرب إلا الماء فكذبه، وكان لا يحضر شربه إلا خاص جواريه».[2]

مما قدمناه يتأكد للقارىء أنّ الرشيد إن شرب النبيذ إنما شربه متأولا حلته بموجب

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ١٦ ـ ١٧

(٢) التاج في أخلاق الملوك للجاحظ ص ١٣٧.

فتاوي فقهاء الحنفية، وإن كنا نرى أن الرشيد لم يشربه، ولا يمكن لمثله أن يشربه، لأن الرشيد كان مريضا بقرحة بمعدته، أو بسرطان المعدة - كما أطلق عليه الدكتور شاكر مصطفى - ومن الثابت تاريخيا أن أسباب وفاته تلك العلة في معدته، ومعلوم من الناحية الطبية أن النبيذ وأمثاله يهيج مثل هذه العلة، ويسبب آلاما هي أشد وأعظم بكثير مما يحصل من المتعة بتناول مثل هذه المشروبات.

٣ - ازدواج الشخصية:

ذهب الأستاذ أحمد أمين في كتابه: «ضحى الإسلام»[1] عند ترجمته لحياة الرشيد، إلى أن الرشيد يجنح بعواطفه نحو العنف والقوة، فبقدر جموح عاطفته الدينية، لديه جنوح في عاطفته نحو اللهو والغناء والسرف والترف، ويرد على ابن خلدون في دفاعه عن الرشيد، ويريد بذلك أن يثبت صدق ما جاء في كتاب الأغاني من أكاذيب عن الرشيد ولهوه وطربه.

ثم تابع الأستاذ أحمد أمين في اتهامه للرشيد الشيخ علي الطنطاوي أمد الله في عمره في كتابه: «رجال من التاريخ» وتحت عنوان: أكبر ملوك الأرض.

ومن المؤسف أن المقال قد امتلأ بالطعن على الرشيد والنيل منه، وامتلأ كذلك بمدحه والثناء عليه، والذي نريده هنا قوله: وأنا مولع بتحليل النفوس، نفوس الأحياء من الأصدقاء والأموات من رجال التاريخ، وكشف خفاياها، ورد مظاهرها المعقدة إلى عناصرها الأولى، والذي استخلصته من تحليل نفسية الرشيد، أن هذا التناقض الظاهر في شخصيته، من لهوه المفرط، وعبادته المفرطة، وقتله الأبرياء، وبطشه البطشة الكبرى بالبرامكة، إلى بكائه وسماعه المواعظ، وحجه ماشيا من بغداد إلى عرفات. وحرصه على الوحدة الإسلامية، وتحالفه مع شارلمان الأجنبي. ضد ابن عمه الأموي صاحب الأندلس، وعزمه على الأمر العظيم كما عزم على فتح قناة السويس قبل دليسبس بأكثر من ألف سنة، ثم رجوعه عنه لأيسر اعتراض.

---

(١) ضحى الإسلام ج ١ ص ١١١ وما بعدها

الذي استخلصته أن مرجع ذلك كله، إلى عقدة نفسية فيه، هي أنه كان مؤمنا محبا في قرارة نفسه للتقى والصلاح، ولكنه لم يستطع أن يوفق بين أعماله، وبين هذه الرغبة في الصلاح. وكانت تغريه مغريات الملك، فيوغل في اللذة وفي البطش، ثم يتنبه إيمانه فيمضي أكثر أيامه تحت ثقل تأنيب الضمير، وهذا تعليل منعه الناس أن يذكروا البرامكة أبدا بعد بطشه بهم، فيحسب من يقرأ الخبر أنه نسيهم، مع أنه لم ينس الحادث لحظة، وهو يمنع الناس من الخوض فيه ليفر من نفسه، وهذا تعليل قيامه من مجلس الغناء والشراب، إلى الصلاة والتهجد، حتى ليصلي مئة ركعة كل ليلة، فتخدع صلاته المؤرخ الثقة حتى يكذّب أخبار لهوه، كما فعل ابن خلدون.[1]

ومن المؤسف أن الشيخ علي الطنطاوي نفعنا الله بعلمه لم يأتِ بدليل على بعض ما ذكره، فقد ذكر تحالف الرشيد مع شارلمان ضد ابن عمه صاحب الأندلس، وقد فندنا هذا الزعم في الكتاب عند حديثنا عن علاقات الرشيد الخارجية، ونجزم القول هنا: بأن علاقة الرشيد مع شارلمان لم تتجاوز علاقة المجاملة السياسية، فضلا أن تكون تحالفا ضد ابن عمه، فالرشيد لم يذكر مؤرخ أنه حرك ساكنا ضد الأمويين في الأندلس، ولم يذكر مؤرخ أنه عقد اتفاقاً مع شارلمان ضد الدولة الأموية في الأندلس.

وقد بينا خلال بحثنا أن بطش الرشيد بالبرامكة كان لأسباب قوية، ونحن نعتقد أن الرشيد صبر طويلا حتى انتهى إلى قراره.

أما ما ذكره متابعا لأحمد أمين: من أن الرشيد متناقض في عواطفه فهذا غير صحيح البتة، فالمتتبع لسيرة الرشيد يجده متزنا في عواطفه، مستقيما في أحواله، يجلس إلى العلماء والفقهاء ويسمع منهم، ولم يبطش بواحد منهم أبدا، بل كانوا عنده محل إكرام وتقدير، وكان كما وصفه يزيد بن مزيد الشيباني بقوله: «تتثبت تحرجا عند الغضب، وتتطول ممتنا بالنعم، وتعفو عن المسيء تفضلا بالعفو»[2] والمتتبع لتاريخ دولة الرشيد لا يجد منفذا أو مطعنا في استقامة أحواله، وانضباطه بموجب الشرع والدين، وفي بحثنا ما يرد هذه التهمة، ولا نرى

(١) رجال من التاريخ ص ٨٧.

(٢) تاريخ الطبري ج ٨ ص ٣٥٣.

داعيا لتكرار ما جاء في البحث في الحديث عن صفاته وأحواله. ففي ذلك الرد على هذه الشبهة ودحضها.

٤ ـ سماع الغناء:

لقد أُتهم الرشيد بسماع الغناء، وأكثروا عليه التهم في هذا الأمر، ونحن وإن كنا لا نُكَذب سماعه للغناء جملة، لكننا نريد توضيح حقيقة غفل عنها كثير من الناس وهي: أن سماع الغناء من الرجل جائز، ومن الزوجة كذلك، ومن الأَمَة المملوكة، ما لم يصاحب ذلك عزف أو موسيقا، ولم يكن الكلام فاحشاً بذيئاً.

والرشيد إنما كان يطربه الشعر، وتحركه الكلمة، مثله في ذلك مثل جميع الفصحاء والبلغاء، تحركهم العبارة الموحية، وتطربهم الجملة البليغة، فكان يفد عليه الشعراء والفصحاء يدلون ببضاعتهم، ويشاركون بأقوالهم، فيأخذ المغنون ذلك ويترنمون به عند الرشيد فينالون منّ عطائه وكرمه، وقد كان الرشيد يحتجب عن المغنين، ويأبى التبذل والخفة في مجالس طربه، ولياليٍ أنسه التي كانت تقتصر على الرجال في غالب الأحيان.

إما إذا كانت المغنية امرأة، فإنه يسمع ذلك من جواريه، وهن إماء مملوكات اشتراهن بخالص ماله من سوق النخاسة، أو من أسرى الروم أو سوى ذلك، ومعروف أن الأَمَة حلال لسيدها أن يتمتع بجسدها وجمالها، وله نكاحها، لأنها ملك له، فسماع صوتها، ورؤية حركاتها حلال له، فهي كالزوجة تغني لزوجها أو ترقص له. وهذا لا شيء فيه كذلك، وهو حلال مباح.

ومع الذي قدمناه فقد كان الرشيد حريصا أن يسمع رأي الدين في الأمر، فيجدَّ في البحث والسؤال عمن يحرم الغناء ليقف على حقيقة الأمر.

فقد حدّث إسحاق بن عمارة قال: وحدثني إبراهيم بن سعد الزهري قال: قال أبويوسف القاضي: ما أعجب أمركم يا أهل المدينة في هذه الأغاني! ما منكم شريف ولا دنيء يتحاشى عنها! قال: فغضبت وقلت: قاتلكم الله يا أهل العراق! ما أوضح جهلكم وأبعد من السداد رأيكم! متى رأيت أحدا سمع الغناء فظهر منه ما يظهر من سفهائكم

هؤلاء الذين يشربون المسكر فيترك أحدهم صلاته، ويطلق امرأته، ويقذف المحصنة من جاراته، ويكفر بربه! فأين هذا من هذا؟ من اختار شعرا جيدا ثم اختار جرما حسنا فردده عليه فأطربه وأبهجه فعفا عن الجرائم، وأعطى الرغائب. . . ؟ فقال أبويوسف: قطعتني! ولم يحر جوابا.

وقال إسحاق: وحدثني إبراهيم بن سعد الزهري قال: قال لي الرشيد: مَنْ بالمدينة ممن يحرم الغناء؟ قال: قلت: من قنعه الله بخزيه، قال: بلغني أن مالك بن أنس يحرمه. قلت: يا أمير المؤمنين، أو لمالك أن يحرم ويحلل؟ والله ما كان ذلك لابن عمك محمد ﷺ إلاّ بوحي من ربه؛ فمن جعل هذا لمالك؟ فشهادتي على أبي أنه سمع مالكا في عرس ابن حنظلة الغسيل يتغنى:

سُليْمَى أزمعت بيْنا ... فأين بوصلِها أيْنا

ولو سمعت مالكا يحرمه ويدي تناله لأحسنت أدبه! قال: فتبسم الرشيد[1]

من النصين السابقين يتضح لنا أن قاضي قضاة الرشيد أبو يوسف يذهب إلى تحريم الغناء، وهو من يعتمد الرشيد على فتاويه في أموره كلها، فلا شك انه ينكر على الرشيد، سماعه للغناء إن رآه أو سمع بذلك، وعدم صدور ما يدل على نكيره ذلك على الرشيد يدل على أن الرشيد لا يستمع الغناء.

ثم لو أن الرشيد يستمع الغناء فلِمَ يسأل عمن يحرمه؟ إن سؤال الرشيد فيه إشارة خفية بأنه لا يسمع الغناء، ويريد أن يقوي رأيه بمن يحرمه من أهل المدينة.

وإذا صح أنه استمع اليه فذلك من تزيين جلسائه له، فقول إبراهيم بن سعد الزهري يدل على أنه لا يرى بالغناء حرمة، وإن صح ذلك فإن إبراهيم الزهري وأمثاله ممن يزين للرشيد حلَّ الغناء وعدم حرمته، فيسمعه الرشيد متأولاً بناء على هذه الفتاوي.

وسماعه الغناء من الموصلي وغيره إن صح، فهو سيئة تذوب في بحر حسناته الكثيرة، ونشير إلى أن الموصلي وأمثاله كانوا يتمتعون بخلق قويم، ويداومون على الطاعات،

[1] ذكره في العقد الفريد ح ٧

ويصحبون الرشيد إلى الحج، فهم ليسوا خلعاء في كلامهم وألحانهم، ولا يصدر عنهم ما يخالف الدين والعرف والتقاليد العربية العريقة.

٥ ـ سرفه وترفه:

أما السرف والترف، وهو ما صورته القصص الخيالية في ألف ليلة وليلة، فإننا قد رددنا عليه، وفندنا كذبه، وذلك في باب الحديث عن صفاته.

وأساطير ألف ليلة وليلة قصص قديمة فارسية الأصل، ثم تُرجمت إلى العربية، وجُعل بطلها الرشيد لشهرته وذيوع صيته، وذلك لضمان الإقبال عليها، وحيازتها رضا الجمهور، وقدأساءت للرشيد إساءة بالغة، وإن كانت من جانب آخر جعلته مشهوراً بين الناس حتى الأوروبيين منهم.

وقد استغلها كثير من الأدباء فاتخذوها مادة لقصصهم الخيالي، ولم يتورعوا عن زج الرشيد في مغامراتهم الكاذبة، وعلى رأس هؤلاء جورجي زيدان، والمستشرق الفرنسي لاهارب، والمستشرق الألماني فون هامار وغيرهم.

وأمثال هذه القصص الخيالية التي لم يُذكر لها مؤلف ولا تاريخ ، هي أشبه ما تكون بحكايات القصاصين في مجالس العامة، لإلهائهم عن القضايا السياسية الخطيرة، في العصور التي تلت.

والأدب هو مرآة الأمة، وغالبا ما ألفت هذه القصص أو ترجمت في العصر العباسي الثاني، أو في عصور أكاسرة الفرس كما سبق أن أشرنا، وقد ذكرت شخصيات قديمة كجميل بن معمر الشاعر، وذكرت أحداثاً قديمة كذلك، ثم نسبت كل ذلك إلى عصر الرشيد، إضافة إلى ذكرها أشياء لا تصح علمياً، مثل استخدام الرشيد للزئبق في الرفاهية علماً بأن الزئبق من المواد السامة واستخداماته تـضر بالصحة. وكل ذلك يدل على تهافت القصة وخياليتها وكذبها.

نسأل الله أن نكون قد وفقنا للصواب ، وأن يعفو عنا إن أخطأنا أو أسأنا في اجتهادنا، فإننا لا نرجو بعملنا هذا إلا الله والحق. وآخر دعوانا : الحمد لله رب العالمين.

الفهرس